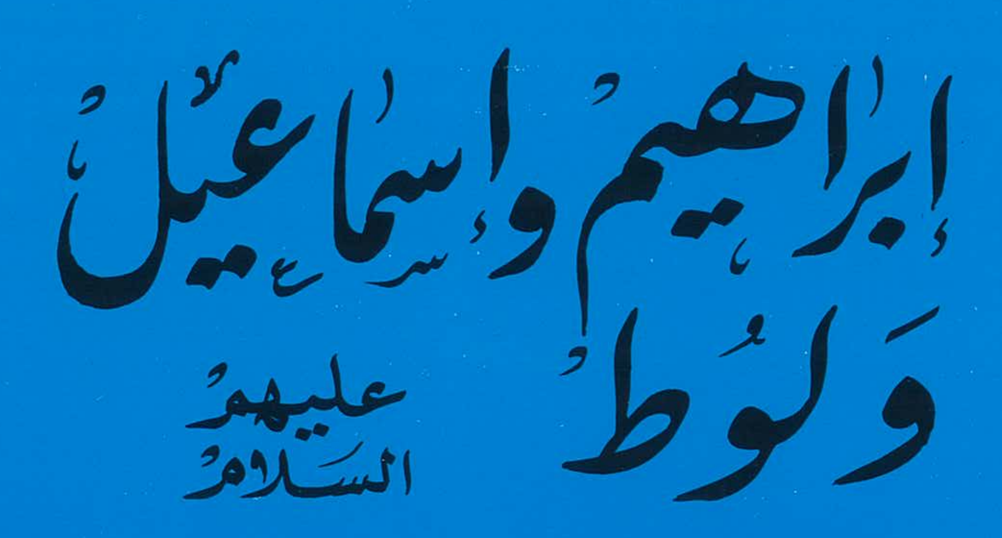


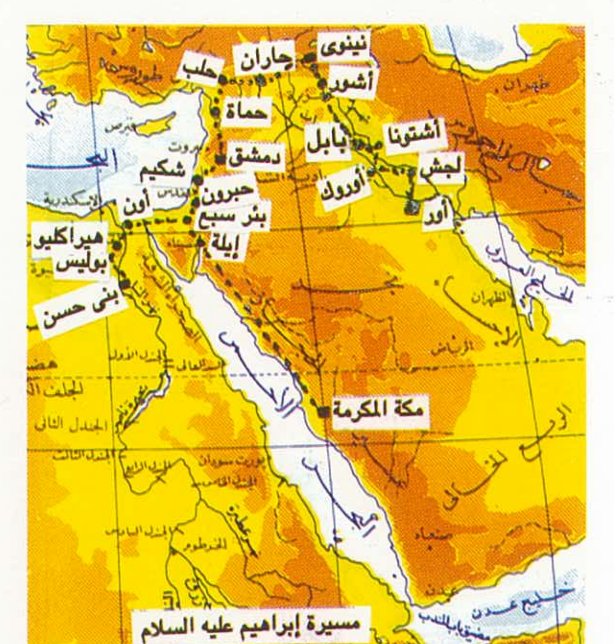
قصص الأنبياء والتاريخ

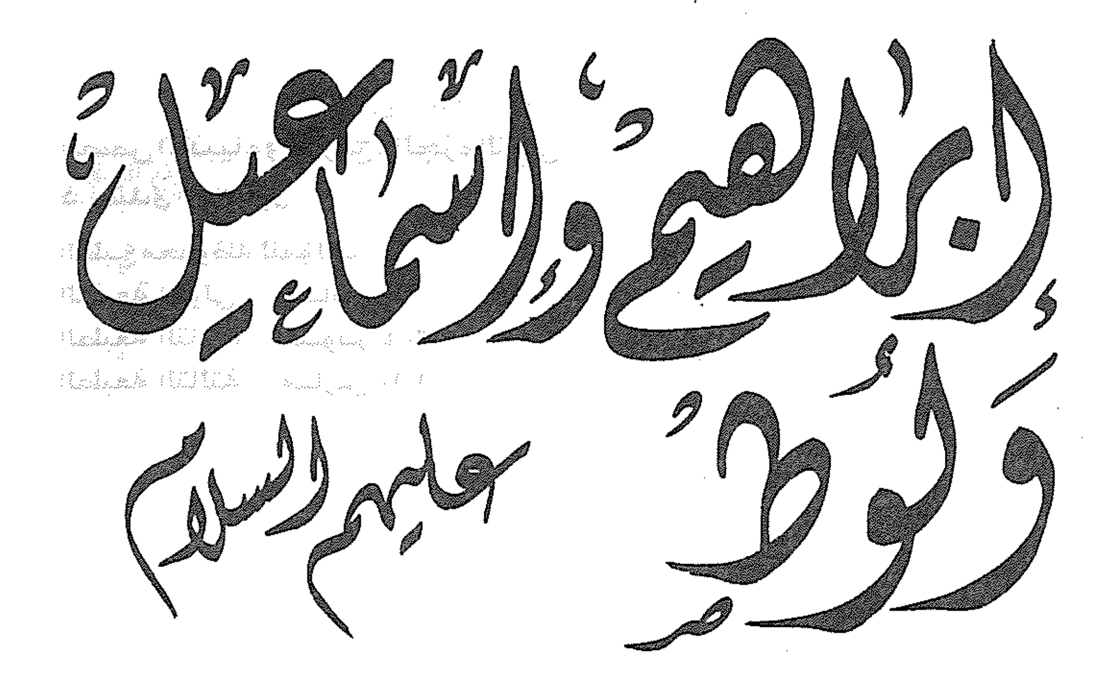
الجزء الثانى

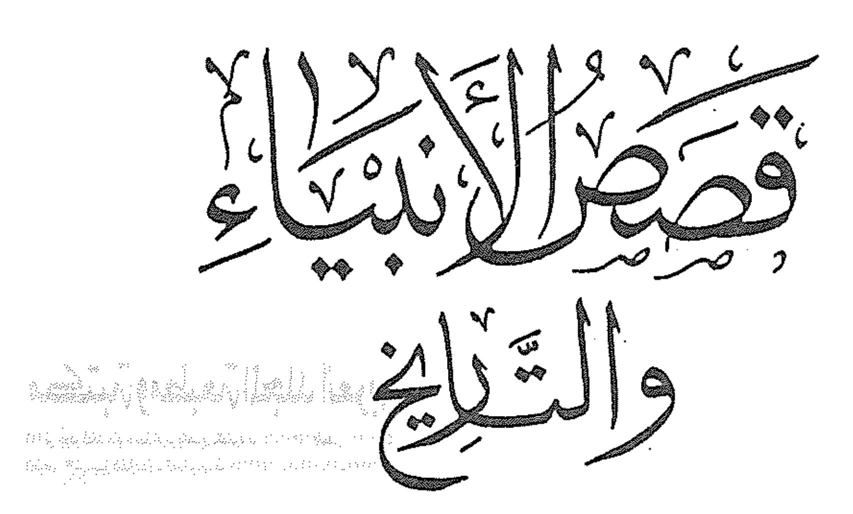
تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة







الجزء الثاني

تأليف دكتور
رشدى البدراوى
الاستاذ بجامعة القاهره

قصص الأنبياء والتاريخ ـ الجزء الثانى .

د. رشدى البدراوى

الطبعة الأولى : ينـايـر ١٩٩٧
الطبعة الثانية : اكتـوبـر ٢٠٠٤
الطبعة الثالثة : مـارس ٢٠١٠

مكتبة ومطبعة المجلد العربى

١١٦ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر بالحسين ـ القاهرة ت: ٢٥٩١١٥٢٤ فاكس: ٢٥٨٩٢٢٢١
المطبعة: ١٩ ش سبيل الخازندار ـ العباسية ـ ت: ٢٦٨٢٢٢٥٨ ـ ٢٦٨٢٢٢٥٩ ـ ٢٦٨٢٢٢٧٦

رقـم الإيـداع : ١٩٩٧/٠٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977 - 19 - 2592 - x

محتويات الجزء الثانى

رقم الصفحة

فهرس الأشكال والخرائط

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» وهى تختص بسير الأنبياء إبراهيم وإسماعيل ولوط عليهم السلام. وهى لا تختلف كثيرا عن الطبعة الأولى إلا فى نقطة واحدة هى عدد زيارات إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل وزوجه هاجر فى مكة وهى مذكورة فى صفحة ١٨٠.

أكتوبر ٢٠٠٤ المؤلف

أبناء نوح عليه السلام
(إعمار العراق بعد الطوفان)

سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (شكل ٢٤) أنه فى شمال العراق التقى أبناء قابيل القادمين من جنوب العراق، مع أبناء شيث وذرية إدريس القادمين من مصر عبر فلسطين وسوريا. وضل الجميع وعبدوا الأصنام. فأرسل الله إليهم نوحا عليه السلام.

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما». (١٤ - العنكبوت)

وظل يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. وتجول فى العراق من شماله إلى جنوبه، فلم يجد أذانا صاغية. ومن المؤكد أنه تجوّل أيضا فى سوريا وفلسطين ودعا أهلها إلى عبادة الله. فالقاعدة هى ألا يعذب الله قوما حتى يبعث فيهم رسولا:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا». (١٥ - الإسراء)

وظل يدعوهم عشرات بل مئات السنين:

«وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا، إنهم مغرقون». (٣٦ - ٣٧ - هود)

وكان الطوفان الذى أغرق هذه المنطقة وأهلها، فبادوا كلهم ولم ينج أحد، ممن كانوا يسكنون هذه المناطق، إلا من ركب السفينة مع نوح وهم:

- أهله : هو وزوجته وأبناؤه الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم.
- ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل.

وتزاوج الأبناء والأحفاد، وتكاثروا بسرعة، إذ كانت الأرض خصبة والأمطار غزيرة، والأنهار ممتلئة بالمياه. وكلما ازدحم مكان بساكنيه، وضاقت الموارد المتاحة عن تلبية احتياجاتهم، لزم أن ترحل جماعات إلى مكان جديد. وبالطبع كان الأبناء هم الذين يرتحلون، ومن بعدهم كان يرتحل الأحفاد.

كان شمال العراق أكثر وعورة لوجود الجبال به، وكذلك كان أكثر برودة، مما يجعل الحياة أكثر مشقة، لذلك كانت الهجرات تتجه إلى الجنوب الأكثر دفئا. ونشأت التجمعات السكانية

على هيئة قرى أو مدن صغيرة. كل مدينة تحتوى عددا من البيوت وحولها أرض زراعية تكفى أهلها من الغذاء. وأرض كمراعى للأغنام. ومن الطبيعى أن يحتكم السكان إلى كبير العائلة أو كبير القبيلة فى تسيير أمورهم وحل منازعاتهم. فنشأت دويلات المدن City States . كل مدينة تحتوى عددا أكبر من السكان وقد تضم حولها عدة قرى. والمدينة يرأسها حاكم يعنى بأمورها، ويدبر شئونها، مستقلا عن الدويلات الأخرى. وتوافر الطمى لبناء المساكن من اللبن. وفى حالة تالية بدأت بعض البيوت تبنى من الحجارة. مثل بيت الحاكم أو بيوت العبادة. وفى المدن ظهرت الحرف، فهذا نجار وذاك حداد وآخر برع فى بناء البيوت وهكذا والكل يتعاون فى الزراعة وعند جنى المحاصيل.

فى بعض الأحيان كانت دويلة تعتدى على دويلة مجاورة تضمها إليها. وقد يظهر رئيس دويلة ذو طموح كبير فيضم دويلات كثيرة ليؤسس دولة أو مملكة. وقد شهدت بلاد مابين النهرين Mesopotamia مشاحنات داخلية كثيرة. إذ قد يظهر فى الدويلات المغلوبة من يثير حماسها فتقاتل لاستعادة استقلالها، وظل هذا التناحر والتقاتل بين الدويلات زمنا طويلا. وحتى بعد أن اتحدت بعض منها فى دول أكبر، لم تكن دولة واحدة، بل عدة دول تتنازع وتتحارب فيما بينها، وكان هذا عاملا من عوامل تأخر حضارة مابين النهرين عن حضارة وادى النيل.

وبالمثل نشأ المصريون الأوائل على هيئة قبائل متفرقة، ولما توفرت لديهم أسباب استقرار الحياة اضطروا إلى التعاون للمصلحة المشتركة. وانضم بعضهم إلى بعض وألفوا إمارات صغيرة مستقلة. ولما زادت مطالب الحياة بمرور الأيام أصبح من الضرورى توسيع دائرة التعاون والاتحاد. فانضمت تلك الإمارات بعضها إلى بعض وكونت مملكتين منفصلتين: إحداهما فى الشمال ولها ملك يلبس تاجا أحمر والأخرى فى الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجا أبيض اللون. ثم تم الاندماج على يد «نارمر» أو «مينا» فى العام ٣٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك وأصبح وادى النيل كله مملكة واحدة يحكمها ملك واحد. وأتاح هذا الاندماج الاستقرار اللازم لنمو الحضارة. فنمت الحضارة المصرية نموا متصلا وتقدمت بخطى واسعة وحققت إنجازات هائلة فى البناء والعلوم والفنون والآداب - مايزال باقيا يبهر الأنظار والأفكار إلى يومنا هذا. بعكس العراق الذى ظلت دويلات المدن ودوله تتصارع فيما بينها للحفاظ على مافى يدها من أرض زراعية أو لانتزاع أراضٍ من دويلة أو دويلات مجاورة.

خارج المناطق الزراعية كان رعى الأغنام والإبل هو عمل البدو الرحل الذين كانوا يجوبون بادية الشام وشمال شبه الجزيرة العربية. ويتنقلون حسب مناطق المطر وتوافر المراعى لمواشيهم وأماكن الصيد. وبالطبع لم يكن لهم أن يبنوا بيوتا. بل كانت الخيام هى مأواهم، ينقلونها كلما ارتحلوا إلى أماكن جديدة. وظل الأفراد متناثرين فى أراضٍ شاسعة يتنقلون

فيها بحرية، ولا تعاون بينهم وبين قبائل البدو الرحل الآخرين إلا فى مقايضة بعض السلع البسيطة. وقد قدر البعض كثافة السكان فى مناطق البدو الرحل بحوالى ٤ أشخاص لكل ١٠ كيلو متر مربع، فى حين أنها ترتفع فى المناطق الزراعية إلى ١٠ أفراد لكل كيلو متر مربع - أى ٢٥ ضعفا (أطلس تاريخ العالم. كولين وسارة. جـ١ ص١٠).

يتضح لنا مما سبق أن منطقة الشرق الأدنى القديم قد انقسمت إلى قسمين:

١ - الزراع وساكنى القرى.

٢ - البدو الرحل والصيادين.

واختلفت طبيعة كل قسم عن الآخر تبعا لمكان إقامتهم وسهولة المعيشة أو صعوبتها.

كان على الزراع الانتظار فى نفس المكان حتى ينمو الزرع وتنضج البذور لذلك تعلموا الاستقرار. وكل زارع تعهد الأرض التى زرعها فأصبحت ملكا له، وبنى بيتا ليسكن فيه، وتعاونوا فيما بينهم. هكذا ساعدت الزراعة على قيام المدنية والحضارة وتطورها.

وقد تتوافر نفس الظروف حول بئر فى الصحراء. فتنشأ تجمعات سكانية حول البئر. ويختلف عدد السكان حسب غزارة مياه البئر. فتنشأ حضارة منعزلة وسط الصحراء. ولكن حينما يجف مورد المياه هذا، يرتحل القوم عن المنطقة. أما من كانوا يعيشون على الرعى، فهم كثيرو التنقل من مكان إلى مكان، سعيا وراء المعيشة والكلأ. ولتنقلهم الدائم لم يكن فى استطاعتهم بناء بيوت ثابته، بل كان مأواهم خياما يسهل نقلها كلما ارتحلوا إلى مكان جديد. وكانت ألبان الأغنام ولحومها بالكاد تكفيهم. لذلك كانوا فى الأغلب مهزولين جياعا.

ولما كانت المراعى تجف إذا شح المطر ويقل الصيد أيضا - فكان لابد - لكى يجدوا طعامهم. أن يغيروا على الشعوب المستقرة. وخاصة أن المجتمعات المستقرة يكون عندها وفرة من الطعام مخزونة، كما أن أهلها قد ركنوا إلى الدعة، فلم تعد عندهم كفاءة للقتال بالرغم من أنهم أكثر عددا. وغارات البدو الرحل على حدود الدول المستقرة قد تكون لنهب كميات من الحبوب ثم يعودون إلى الصحراء ثانية. وقد يفرضون على البلد أن يدفع لهم مقدارا من الحبوب كل عام، وإن لم تفعل هددوه بالغزو والنهب مرة أخرى. وأحيانا يظهر زعيم من إحدى قبائل البدو، يوحد أكثر من قبيلة تحت زعامته ثم يتوجة إلى البلدة المجاورة، وبدلا من النهب والعودة إلى الصحراء يحتل البلد نفسه، ويصبح الغزاة هم سكان البلد. وسرعان ما تستهويهم حياة الترف وتضعف كفاءتهم القتالية. وقد يظهر فى البد المحتل زعيم يعمل على إذكاء الشعور الوطنى ويطرد المحتل الغاصب. وخير مثال على ذلك ماحدث فى مصر من غزو الهكسوس - الملوك الرعاة - ودام حكمهم ما يقرب من مائة وثمانين سنة (١٧٨٠ - ١٦٠٠ ق.م) ثم قام أحمس بطردهم.

في الجزء الأول لم نجد ضرورة لذكر تفاصيل تاريخية أو جغرافية جديدة إذ أن قصص الأنبياء الذين ذكرناهم كان يكفى لفهمها ماهو معروف من معلومات عامة عن مناطقهم. أما فى هذا الجزء - وسيكون الكلام فى معظمه عن إبراهيم عليه السلام - فسيجد القارئ أن أسماء بعض المناطق غريبة على أسماعه. مثل: فدان أرام أو أرض كنعان أو بابل وآشور كذلك قد يأتى ذكر مناوشات حدثت بينه وبين الأراميين فى دمشق. أو الحرب التى قيل إنه لاقى فيها ملوك دول عيلام وشنعار وغيرهم. ولكى يستطيع القارئ متابعة الأحداث التاريخية وجب أن نعطى فكرة عن تاريخ هذه المنطقة والدول التى حكمتها. ولما كان تاريخ هذه المنطقة فى غاية التعقيد لكثرة الدول التى تصارعت. فقد أصبح لزاما أن نجعل الأمر سهلا ومبسطا فليس المجال هنا هو دراسة التاريخ. بل الهدف هو توضيح الحقائق التاريخية التى تعين على فهم قصص الأنبياء. وستكون هذه المنطقة مسرحا للأحداث المتعلقة بعدد كبير من الأنبياء، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام. لهذا كله كان لابد من خلفية تاريخية مختصرة ومبسطة بقدر الإمكان. أما من يريد التوسع فهناك كتب كثيرة عن تاريخ الشرق الأدنى القديم تقع فى عدة مجلدات يمكن الرجوع إليها. وفى هذا الموجز التاريخى الذى سنذكره سنتخذ نهجا غير مادرجت عليه كتب التاريخ ليسهل الأمر على القارئ. إذ سيتم ربط المعلومة التاريخية باسم أبناء أو أحفاد نوح عليه السلام.

سبق أن ذكرنا أن من هبط من السفينة بعد الطوفان هم:

أ - نوح عليه السلام وزوجته وأبناؤه الثلاثة : سام وحام ويافث وزوجاتهم .

ب - من آمن . وما آمن معه إلا قليل . قال ابن اسحق إنهم كانوا عشرة .

- وأبناء سام يطلق عليهم اسم الساميين وفى الحديث المذكور فى الجزء الأول ص ١٢٨ أن من ذريته : العرب وفارس والروم.

- كذلك يسمّى أبناء حام حاميون .

- ومن ذرية يافث الترك والصقالبة وسكان وسط آسيا .

- ويهمل علماء التاريخ كلية فريق «من آمن» فلا يذكرون أى شئ عنهم. مع أنهم كانوا عشرة. ولعلهم كانوا خمسة رجال وخمس نساء. ولا نظن صحيحا ما قاله سعيد بن أبى عروبة عن قتادة من أن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث إذ ليس هناك من سبب لحدوث ذلك. فلابد أن هؤلاء العشرة تكاثروا وبدأوا ينزحون إلى

أماكن جديدة على شكل هجرات، وقد يكون منهم المجموعات البشرية التى يصفها المؤرخون بأنها «مجهولة الأصل» أو يقولون عنها «ولا يمكن بالتحديد معرفة أصلهم».

كذلك يجب التنبيه إلى أنه لا توجد هناك سلالة نقية خالصة فإن السلالات تتزاوج وتمتزج والثقافات تتأثر بما حولها من ثقافات. وقد اشتهر من السلالات ما يسمى بالعناصر السامية. وهى التى كانت تعيش فى منطقة الشرق الأدنى القديم. ومن اسمها يفهم أنها تنسب إلى سام بن نوح عليه السلام. ويختلف مفهوم السامية عند المؤرخين. فمثلا تنسب التوراة الكنعانيين إلى كنعان بن حام. والأموريون (أبناء الأمورى) واليبوسيون (أبناء اليبوسى) كلهم من أبناء كنعان أى حاميون. إلا أن علماء الأجناس وعلماء التاريخ يعتبرونهم ساميين. وهناك من يعتبر هذه التسمية – أى السامية – هى تسمية لغوية أى تعنى تشابها لغويا، ولا تدل على أصول عرقية. وعلى العموم فليس هنا مجال الدخول فى هذه التفاصيل أو الخلافات. ولتيسير الأمور نبدأ بذكر شعبين ينسبان إلى اثنين من أبناء سام: أحدهما «أرام» سكن بنوه فى أعلا الفرات إلى ساحل البحر المتوسط أى فى أقصى الغرب من منطقة الشرق الأدنى. والآخر «عيلام» سكن بنوه فى أقصى شرق المنطقة إذ سكنوا شرقى نهر دجلة على حدود الهضبة الإيرانية (شكل ١).

١ - أبناء أرام :

كان تركيزنا فى الجزء الأول على قبيلتين من أبناء أرام:

١ – **قبيلة عاد** بن عوص بن أرام (بن سام بن نوح) التى ارتحلت إلى الأحقاف فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وظهر فيها نبى الله هود عليه السلام.

٢ – **قبيلة ثمود** بن أرام. وهذه ارتحلت إلى شمال غرب شبه الجزيرة العربية. وظهر فيها نبى الله صالح عليه السلام.

باقى أبناء أرام – وبالطبع كانوا يسمون بالأراميين – ظلوا عشائر متفرقة فى شمال العراق وبادية الشام وكونوا دويلات صغيرة (دكتور بيومى مهران. دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ٨ ص ٥٥٢). لم يتجمعوا ليكونوا وحدة سياسية كبيرة كما فعل أبناء عيلام وأشور، بل ظلوا دويلات متفرقة. وكانت الدول المجاورة كثيرا ما تتوغل فى أراضى هذه الدويلات بين الحين والآخر. ويمكن تقسيم **الدويلات الأرامية** جغرافيا إلى: (شكل ٢)

أ – دويلات على نهر الفرات الأعلى :

١ – دويلة بيت أدينى.

٢ – دويلة بيت بخيانى .

٣ – دويلة فدان أرام وعاصمتها حاران .

ب – دويلات سوريا :

١ – دويلة جرجوم وعاصمتها مرعش .

٢ – دويلة ياخان وعاصمتها أرباد .

٣ – دويلة يمخذ وعاصمتها حلب .

٤ – دويلة حماة وحمص .

٥ – دويلة أرام دمشق وعاصمتها دمشق .

٦ – دويلة صوبة وعاصمتها صوبة جنوب زحلة .

جـ – دويلات فى شرق الأردن :

١ – دويلة بيت رحوب .

٢ – دويلة جشور .

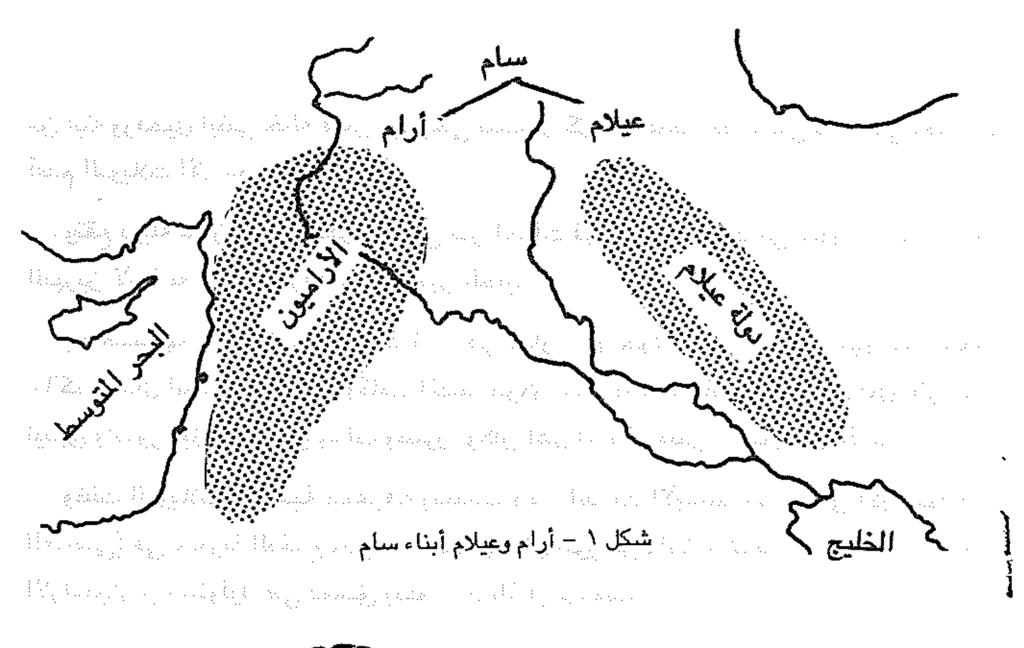
٣ – إمارة طوب .

ولا يجب أن يفهم أن هذه الدويلات كانت كلها موجودة فى وقت واحد بل إنها ظهرت على فترات. فكلما اجتاحت دولة مجاورة أراضى دويلة من دويلات الأراميين، نزح أهلها إلى منطقة خالية مجاورة وأسسوا دويلة أخرى. وكانت أرام دمشق هى أقواها من الناحية السياسية وكانت الدويلات الأخرى تحتمى بها. لذلك لما أفلح الأشوريون فى اجتياحها سقطت الدويلات الأخرى كلها تباعا فى قبضة الأشوريين.

وسنذكر دويلتين من هذه الدويلات بالتفصيل، هما فدان أرام وأرام دمشق .

فدان أرام أو أرام النهرين :

ولعلها هى أول دويلة أنشأها أبناء أرام إذ يرجع ذكرها إلى عام ٢٣٠٠ ق.م. وتكونت فى أقصى شمال الفرات فى إقليم أرام ولذلك سميت أرام النهرين. وعاصمتها حران أو حاران. عاش بها أجداد إبراهيم عليه السلام قبل نزوحهم منها إلى أور فى جنوب العراق. وبعد محنة إحراقه ونجاته من النار عاد إليها. ومات بها أبوه ودفنه هناك. كما أن إبراهيم عليه السلام أرسل إليها وكيله أليعازار ليختار زوجة لابنه إسحق إذ لم يشأ أن يزوجه من إحدى بنات الكنعانيين فأحضر أليعازار معه رفقة لتكون زوجة إسحق. كما أن يعقوب ذهب إليها ليتزوج



شكل ١ – أرام وعيلام أبناء سام

شكل ٢ – الدويلات الأرامية

من ليئة وراحيل ابنتى خاله لابان. وسيجئ تفصيل كل ذلك فيما بعد. وعلى ذلك فهى تعتبر من أقدم الدويلات الأرامية.

وتقع دويلة فدان أرام (شكل ٢) على نهر الفرات فى جزئه الموجود فى سوريا. وتسمى أرام النهرين لأنها تقع على الفرات ورافده نهر الخابور.

وعاصمتها - كما سبق أن ذكرنا - هى حاران أو حران وهى تقع على نهر بليخ حوالى ٦٠كم شمال اتصاله بالفرات. وكانت المدينة مركزا تجاريا هاما على طريق القوافل التى تصل نينوى وأشور وبابل بدمشق وحلب وصور. وكان أهل المدينة يعبدون «سين» إله القمر.

وظلت الدويلات الأرامية متفرقة ومنتشرة فى الفرات الأوسط. وفى وادى الأورونت (نهر العاصى) فى سوريا البقاع ودويلات حلب وجبال طوروس وإمارة شمال أنطاكية. واستطاع الأراميون أن يستولوا على دمشق وتكونت دويلة أرام دمشق.

أرام دمشق :

نشأت دولة أرام دمشق حينما استولى الأراميون على دمشق. وتطورت أرام دمشق حتى غدت دولة كبرى تمتد من الفرات حتى نهر اليرموك وكان ملوكها يسيطرون على ١٢ دويلة صغيرة من حولهم وكانت أرام دمشق معاصرة لدولة إسرائيل. وبدأ الصراع بين الأراميين والعبرانيين واستمر إلى أن استولى داوود عليه السلام على دمشق.

٢ - عيـــلام :

هو الابن الأكبر لسام بن نوح. وسكن أقصى الشرق من جبال أراراط جنوب بحر قزوين. ثم انحدرت ذريته جنوبا حتى استقروا فى المنطقة فى غرب إيران وشرقى نهر دجلة حتى الخليج وكونوا «دولة عيلام» (شكل ٣) وكانت عاصمتها تسمى سوسة. ولما وصلوا إلى الخليج اتجهوا غربا وأسسوا مدينتين فى جنوب العراق هما إريدو وتل العبيد.

قلنا إن العيلاميين جاءوا من المنطقة الجبلية جنوب بحر قزوين. وانحرفوا عن عبادة التوحيد وعبدوا آلهة الربوات التى تصوروها فوق قمم الجبال. ولما ارتحلوا جنوبا وخاصة قرب الخليج كانت الأرض منبسطة. وظل فى تصورهم أن الآلهة تحب الأماكن المرتفعة. وقد وُجد فى إريدو وتل العبيد معابد لآلهتهم مبنية فوق مسطحات مرتفعة تسمى «زقورات» (شكل ٤) يحاكون بها مرتفعات الجبال الشمالية حتى ترضى عنها الآلهة وبالتالى ترضى عنهم. فى مرحلة تالية اتجهت بعض القبائل غربا وعبرت نهر الفرات فوصلت إلى الأراضى الخصبة بين النهرين

وأقاموا دويلة مدينة أونوج أو أوروك وتعرف فى التوراة باسم إرك وحاليا تسمى الوركاء. كان ذلك فى حوالى العام ٣٠٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م. وإلى الشرق من أوروك أسسوا دويلة لارسا.

وكانت دولة عيلام فى صراع دائم مع جيرانها: الأشوريين والبابليين فى الغرب - والجوتيين فى الشمال والإيرانيين فى الشرق.

الأموريون والأكاديون :

يقول بعض علماء التاريخ (د. عبد العزيز صالح) إن الأموريين ساميون جاءوا من المنطقة الجبلية فى شمال العراق. ويقول آخرون (د. بيومى مهران) إنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية. وتنسبهم التوراة (إصحاح ١٠ تكوين) إلى الأمورى ابن كنعان . وقد انقسم الأموريون إلى شعبتين.

أ - الشعبة الأولى : سكنت فى المنطقة الوسطى من أراضى ما بين النهرين وتكونت منهم عدة دويلات. وكانت أهمها دويلة أكد وعاصمتها أكد. ولذلك سموا **بالأكاديين** . وكانت هناك دويلات أكدية أخرى (شكل ٥) .

١ - أكد وعاصمتها أكد .

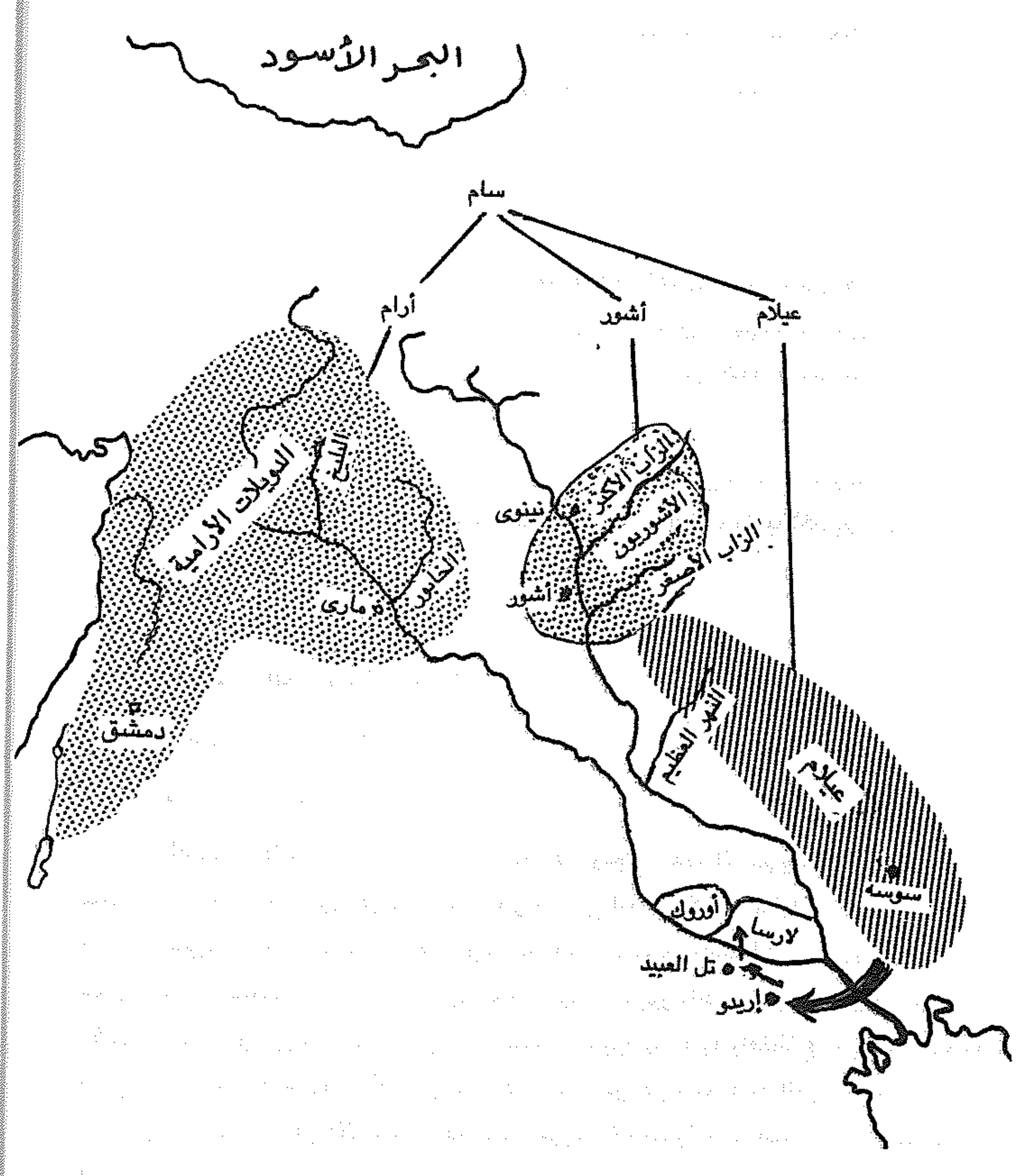
٢ - بابل قرب الحلة حاليا وعاصمتها بابل .

٣ - كيش (الأحيمر حاليا).

٤ - سيبار (أبو حبة) .

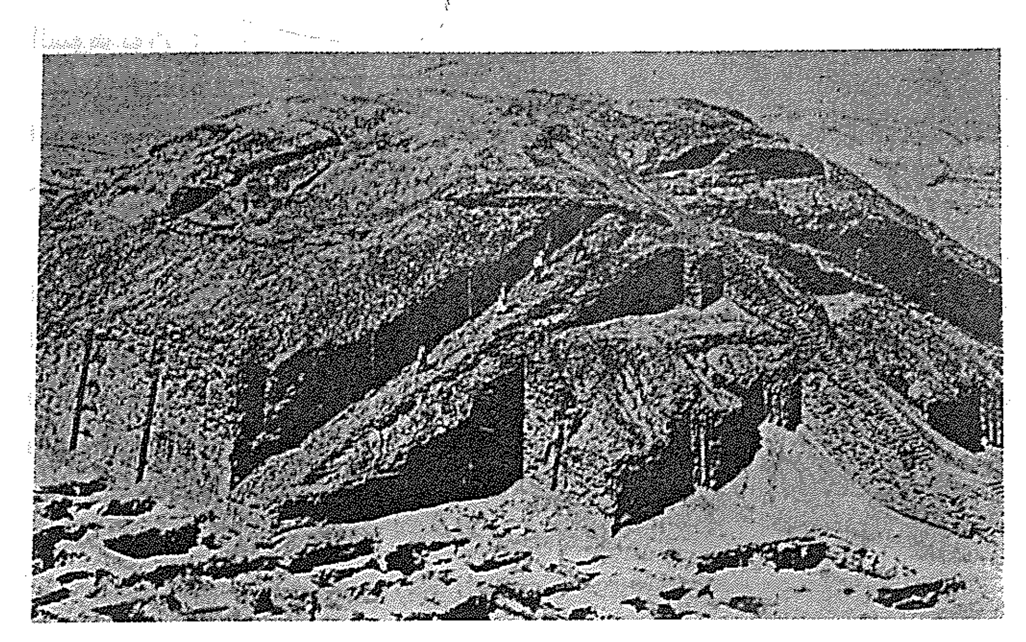
ب - الشعبة الثانية : ظلت تحتفظ باسم **الأموريين** . وهذا الاسم يعنى أهل الغرب لأنهم سكنوا المنطقة الغربية من الفرات. وكلمة أمورو تعنى الغرب. كذلك قالوا إن أحد آلهتهم كان اسمه «أمورو» بمعنى الواحد الأعلى. ونُسبوا إليه وتسموا بإسم الأموريين وأسسوا دويلة مارى، وكانت عاصمتها مارى جنوب التقاء نهر الخابور بالفرات، وهى الآن تل الحريرى. وكانت دويلة مارى فى فترات تتقلص كثيرا باعتداء جيرانها عليها واقتطاع أجزاء من أرضها. وعلى العموم فإن الأموريين ظلوا إلى حد كبير بعيدين عن صراعات العراق. أما الأكاديون فإنهم وقد نزلوا العراق الأوسط فإنهم كانوا فى بؤرة الصراع وخاصة بعد اندماجهم مع السومريين فى دولة بابل.

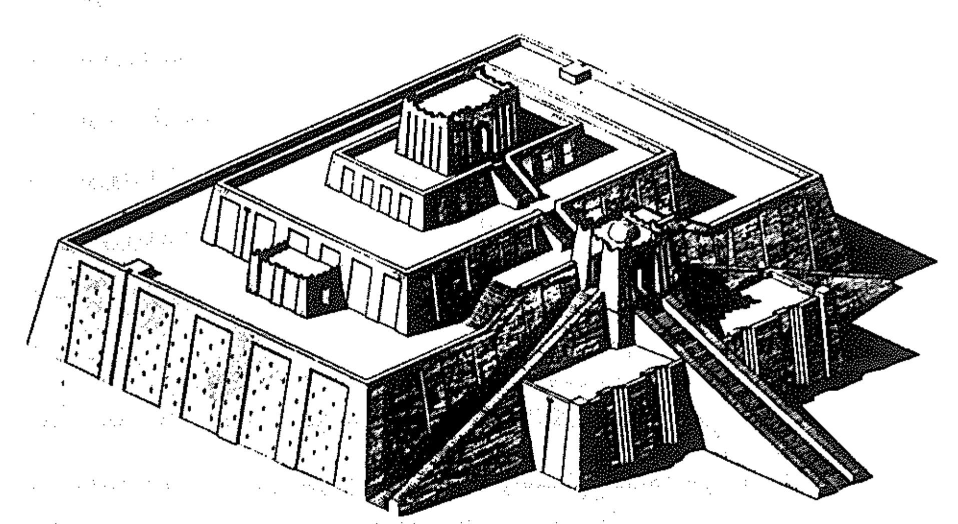
نترك أبناء سام مؤقتا لنذكر شعبا كان له دور بارز فى تاريخ هذه المنطقة هو الشعب السومرى أو السومريون.



شكل ٣ – دولتى عيلام وأشور والدويلات الآرامية .

بدء انتشار الدويلات فى جنوب العراق .





شكل ٤ – الزقورات وفوقها المعابد

السومريون :

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح : إن التاريخ لايزال على غير بينة أكيدة من جنس السومريين أو موطنهم الأصلى الذى وفدوا منه على العراق إذا كانوا قد أتوا اليه حقا من خارجه.

ومادمنا نقبل أن الأموريين ينسبون إلى الأمورى ابن كنعان واليبوسيون ينتسبون إلى اليبوسى والجرجاشيون إلى الجرجاشى، فلا مانع من قبول الرأى القائل بنسبة السومريين إلى الصمارى بن كنعان بعد تخفيف الصاد إلى سين. (وهذا يماثل تسمية الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم). ولما كان شمال العراق قد شغله الأشوريون من الشرق والدويلات الآرامية فى الغرب فإن السومريين نزحوا إلى جنوب العراق وأسسوا إمارات المدن. لكل مدينة حاكمها وإلهها. وما عرف من هذه الإمارات مبين فى شكل ٦ والاسم بين القوسين هو اسم المدينة حاليا.

١ – أور (المقير حاليا) .

٢ – إريدو (أبو شهرين حاليا) .

٣ – لارسا (سنكرة) .

٤ – لجش (تللو) .

٥ – أوما (تل خوجا) .

٦ – أوروك (الوركاء) .

٧ – شورواك (فارة) .

٨ – نيپور (نفر) .

٩ – خفاجى .

وكان يجاور هذه الدويلات من الشمال الدويلات الأكدية المذكورة فى شكل ٥ .

كانت المنازعات تدور بين الدويلات السومرية، وتسيطر إحداها على الدويلات الأخرى. فمرة تكون القيادة لدويلة أور. ثم بعد فترة كانت السيادة لدويلة لجش. إلى أن ظهر فى دويلة أوما حاكم قوى اسمه لوجال زاجيزى بدأ مشروع توحيد الدويلات السومرية كلها تحت زعامته. واستغل الدين لتأييد مشروعه السياسى هذا فادعى أنه ابن الربة «نيسابا». ورضيع اللبن المقدس من الربة «نين قرساج». ووحد الدويلات السومرية فى دولة موحدة هى سومر وجعل عاصمته فى أوروك. واعتبر نفسه كاهنا للإله «آن» إله أوروك. وجعل السيادة للإله «إنليل»

نهر الخابور
ماري
الأموريون
الدويلات الأكدية
أكد
سيبار
كيش
بابل
الفرات

شكل ٥ – الأكديون والأموريون

ماري
نيبور
أوما
أسين
لجش
أوروك
شورروباك
لارسا
دولة عيلام
أور
إريدو

شكل ٦ – دويلات المدن السومرية

معبود أوما. واستقرت الوحدة بين الدويلات السومرية. فانتشرت الفنون ونقشت الرسوم على الأوانى الخزفية. وظهرت العربات الصغيرة ذات العجلتين. ثم الكبيرة ذات العجلات الأربع. وتطور فن النحت. ونُحتت تماثيل الأرباب الرئيسية أكبر حجما مما سواها لتعبر بضخامتها النسبية عن جلال أربابها. وكانت تباشير الكتابة قد ظهرت فى دويلة أوروك من قبل. فبدأت فيها أولى علامات الكتابة. وبدأت بالطريقة التصويرية (شكل ٧) أى التعبير بالصورة عن المعنى المقصود وهى طريقة تصلح للتعبير عن الماديات مثل شجرة أو نهر أو سمكة. إلا أنهم طوروها فأصبحت تعبر أيضا عن الأفعال والمعنويات. فالقدم تعبر عن حركة المشى. والذراع يعبر عن القوة. وبالتدريج أدخلت المقاطع والحروف فالكلمات ثم الجمل.

وطور السومريون اللغة والأعداد الحسابية وطريقة الكتابة. ووجدوا أن الطين أسهل فى الكتابة عليه من قطع الحجر. فكانوا يتخيرون طميا نقيا ناعما ويصبونه على هيئة ألواح ثم يكتبون عليها بأقلام من الغاب الرفيع (مثل قلم البسط الذى كان يستخدم فى الثلاثينيات من هذا القرن فى حصص الخط) وكانوا أيضا يكتبون بأقلام من المعدن ذات سن مدبب. وكانت الحروف عريضة فى أعلاها ولها ساق رفيع فهى تشبه المسمار ولذلك سميت بالكتابة المسمارية (شكل ٨ ، ٩) وقد أخذ الأشوريون والأكديون والحيثيون عن السومريين هذا النوع من الكتابة. ولما كان الطين سهل التلف لذلك كانت اللوحات الهامة تحرق فى أفران لتصبح صلبة وأكثر مقاومة فيسهل حفظها.

بابل والدويلات الأكدية :

كما اتحدت الدويلات السومرية كذلك بدأت الدويلات الأكدية (شكل ٥) فى نوع من التجمع واتخذت من «أكد» عاصمة لها. إلا أن ميزان الثقل السياسى بدأ يميل ناحية بابل. وكانت بابل بلدة صغيرة اسمها كدنجيرا. ولما تولى الأكديون حكمها أحالوها إلى مدينة كبيرة وأحسنوا استغلال موقعها الإستراتيجي والاقتصادى المتميز لقيامها فى منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات فى وسط العراق فيتوافر الرى وتجود الغلال وتكثر أيضا المراعى. كما أنها تقع على طريق القوافل من جنوب العراق إلى شماله.

ويرى البعض أنها سميت باب الإله أى باب إيل أى بابلا أو بابل. ولو أن التوراة تذكر سببا آخر لا بأس من ذكره لطرافته (إصحاح ١١ تكوين) فتقول:

وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وارتحلوا وقالوا هلم نبنى لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه إلى السماء. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال



شكل ٧ – كتابة بالخط المسمارى القديم
لاتزال على هيئة صور

شكل ٨ – كتابة مسمارية مطورة على لوح من الطين

الكتابة المسمارية	النطق	الترجمة الانجليزية	الترجمة العربية
	dingir nin-giz-zi-da	The god 'Lord Gizzida'	الإله الرب جزيدا
	dingir-ra-ni	the god of	إله
	gu-de-a	Gudea	جوديا
	en-si	governor	حاكم
	lagasa-ki	of Lagash	لجش
	lu e-ninnu	(the man who the 'Temple of 50'	الرجل الذى المعبد ٥٠
	dingir nin-gir-su-ka	of the god 'Lord of Lagash'	للإله رب لجش
	in-du-a	built)	بنى
	e gir-su-ki-ka-ni	his temple in Lagash	معبده فى لجش
	mu-na-du	he built for him.	بناه له

شكل ٩ – الترجمة الانجليزية والعربية لبعض الأسطر من الكتابة المسمارية

(نقلا عن أطلس كولن وسارة جـ ١ ص ١٦)

الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم. وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل وهناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعى اسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض.

وواضح عدم معقولية هذا التفسير.

وانتشرت فى بابل الأسماء المركبة من «إيل» أو «إل» بمعنى الإله، واختار الحكام البابليون أسماء تدل على قربهم من الإله «إيل» مثل :

إيل ما أبى	بمعنى	إلهى أبى
جميل إيلى شو	بمعنى	هدية أو عطية الرب
إيل دورى	بمعنى	إلهى حصنى
إيل إمدى	بمعنى	إلهى سندى

هذا بالإضافة إلى الأسماء المركبة التى كان يدخل فى تركيبها اسم القمر «سين» فكان من ملوك بابل الأوائل: «أب إيل سين» و «سين مو باليط».

وزادت سمعة بابل واعترفت بسلطانها الدويلات المجاورة. وانضمت إليها الدويلات التى من أصل سومرى. وفى النهاية اتحدت سومر وأكد تحت تاج واحد وكونتا «دولة بابل» (د. نجيب ميخائيل ابراهيم – مصر والشرق الأدنى القديم. جـ ٣ ص ١٣١).

نعود لنستكمل باقى أبناء سام. ذكرنا منهم أرام وعيلام. ويبقى ثلاثة هم: أشور ولود وأرفكشاد.

٣ – أشـــور :

وقيل إن أشور فى لغتهم تعنى «الرحمن» .

سكن أشور المنطقة الواقعة بين نهرى الزاب الأكبر والزاب الأصغر، رافدى نهر دجله فى شمال العراق. وبنى مدينة غرب دجلة سماها باسمه «أشور» (شكل ١٠). وتكاثر أبناء أشور وذريته وتكون منهم الأشوريون.

وصارت لهم دولة واحدة منذ القرن الحادى والعشرين ق.م. وكان من ملوكهم الأقوياء «بوزو أشور الأول» ثم جاء بعده «شيروكين الأول» وهو المشهور بـ **«سرجون الأول»**.

وسَّع سرجون مملكته فضم الجزء الشمالى كله من نهر دجلة واستولى على دويلة مارى فى الغرب. ونقل عاصمة مملكته إلى نينوى (شكل ١١) ويقال إن إسمها مشتق من اسم الإلهة «نون» إلهة الماء وكانوا يتخيلونها على هيئة سمكة. ثم توسع جنوبا واستولى على دويلة كيش وأكد من الأكديين ونقل عاصمته إلى أكد باعتبارها مركز عبادة الربة «عشتار» ثم بسط نفوذه على جميع الدويلات السومرية فى جنوب العراق حتى ساحل الخليج وغزا شمال العراق كله وأصبح لقبه «ملك سومر وأكد».

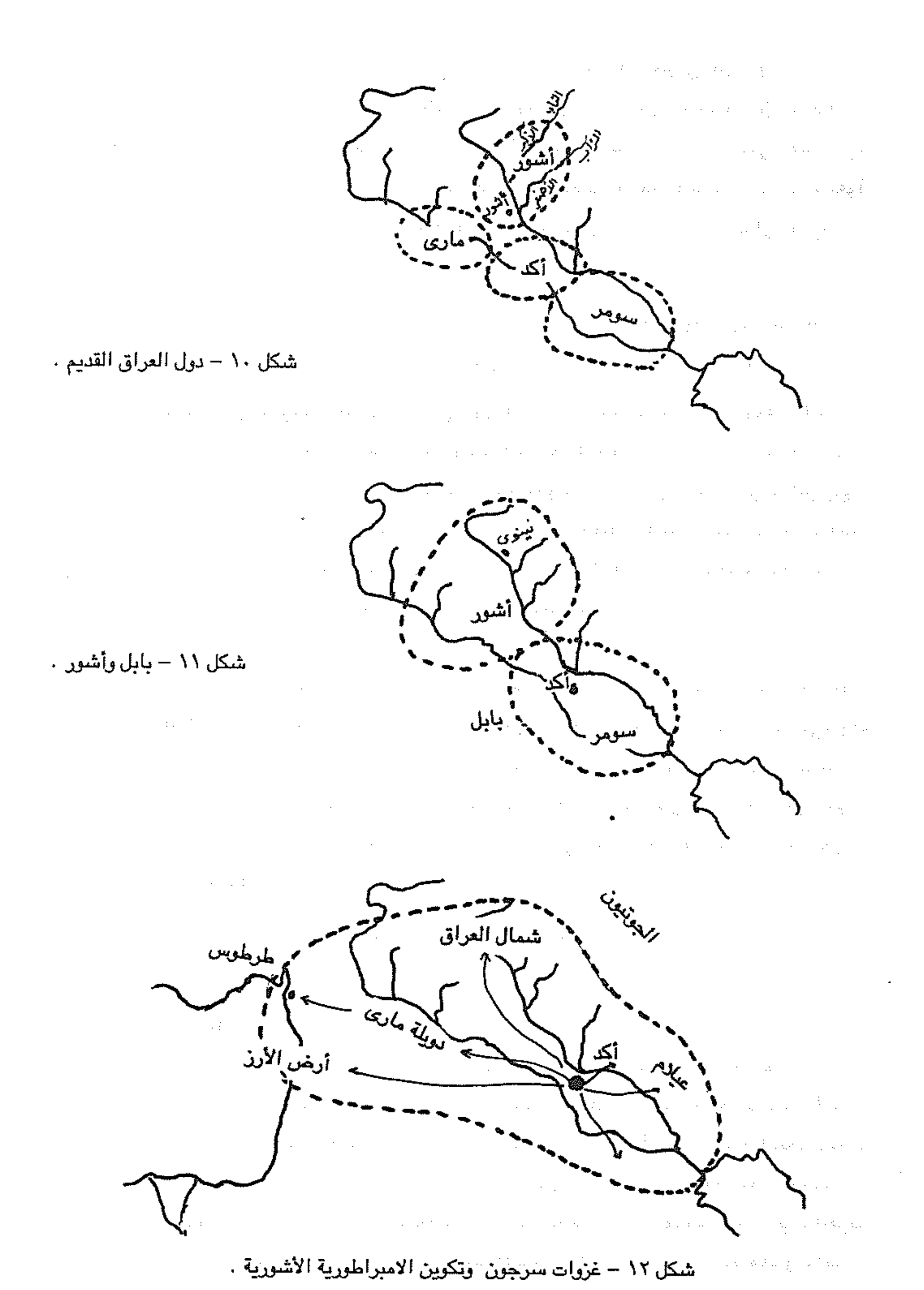
ثم غزا عيلام شرقا وضمَّ أجزاء كبيرة من أرضها. وسبق أن ضم دويلة مارى فى الغرب ثم واصل سيره غربا وتقول كتاباته إنه وصل إلى أرض الأرز وطرطوس (شكل ١٢).

تقول الأساطير إن المعبود «إنليل» كان فى أول الأمر راضيا عن سرجون ووهبه السيادة على البلاد. ولكن بعد أن زاد ثراء الأشوريين ازدادوا ظلما وفسادا وهاجم جنوده معبد «إكور» فنهبوه ودمروه ونهبوا الإلهة «نفر» نفسها. فهاج «إنليل» وقذفهم بأهالى الجبال وهم الجوتيون. ونزل الجوتيون من أعلى الجبال فى شمال العراق ومن جوار البحر الأسود (شكل ١٣) وتدفقوا على الأراضى الزراعية فى شمال العراق واحتلوها وفتكوا بالأهالى. وأضعف غزو الجوتيين دولة أشور فاستعادت دويلات الجنوب السومرية أستقلالها كما كانت فى العصر السومرى. ومن الدويلات التى استقلت دويلة أور ولجش وأوروك (شكل ١٤) يسمى ذلك بعصر الإحياء السومرى. وسنذكر شيئا عن دويلة أور. إذ تولى الحكم فيها ملك اسمه «أورنمو» فى بداية أسرة أور الثالثة التى نهضت بالدولة نهضة عظيمة. ثم تولى الحكم بعد ذلك «شولجى» وظل حاكما لمدة ٥٠ عاما. وفى هذه الفترة وُلد إبراهيم عليه السلام فى أور وبُعث وبدأ يدعو إلى عبادة الله. ثم كان أن كسر الأصنام. ومن المرجح أن شولجى هو الذى حدث ذلك فى عهده، وأنه هو الذى أمر بإحراق إبراهيم عليه السلام كما سيجئ فيما بعد. وكذلك عاد الأموريون إلى وسط العراق (شكل ١٥).

بقى من أبناء سام الخمسة اثنان هما «لود» و«أرفكشاد».

٤ - لود أو لواد :

بالطبع تكاثر بنوه وأحفاده، وكانوا فى أول أمرهم فى جبال أراراط فى أرمينيا - حيث هبطت سفينة نوح عليه السلام، وظلوا لمدة طويلة فى مكانهم. فلما ضاقت بهم الأرض واتجهوا جنوبا. كانت المناطق الخصبة حول الأنهار وما بين النهرين فى العراق والشام وفلسطين قد تم شغلها (شكل ١٥) إذ سبقهم إليها أبناء أشور وأبناء عمهم كنعان فلم يستطيعوا مزاحمتهم. واضطرتهم الظروف إلى الالتجاء إلى المناطق الصحراوية فى الشام وشمال الجزيرة العربية فأصبحوا بدوا رحلا. واتجهوا جنوبا وسكنوا وسط الجزيرة العربية وكان منهم مالوق وأضيف



شكل ١٠ – دول العراق القديم .

شكل ١١ – بابل وأشور .

شكل ١٢ – غزوات سرجون وتكوين الامبراطورية الأشورية .

شكل ١٣ – تقلص دولة الأشوريين واستقلال دويلات جنوب العراق

شكل ١٤ – عودة الأموريين لوسط العراق
وعهد الإحياء السومرى

شكل ١٥ – لود وأرفكشاد لا يجدون مكانا فى العراق

إليه مقطع عم بمعنى شعب فأصبح الاسم عم مالوق ثم عمالوق ثم عماليق. وظلوا يتجولون فى شمال الجزيرة العربية وراء الآبار والأمطار وأماكن الرعى. ولما تفجرت بئر زمزم بمشيئة الله لهاجر وابنها إسماعيل استأذنوا هاجر واستقروا بمكة وكذلك فعلت قبيلة جرهم من أبناء أرفكشاد فأصبحوا هم والعماليق أهل مكة (شكل ١٦).

٥ - أرفكشاد أو أرفخشذ :

لم يجد أرفكشاد أيضا له مكانا فى أراضى العراق الخصبة. قد يكون ذلك بسبب قلة أفراد عشيرته. أو لأنه كان يميل إلى السلام وعدم الرغبة فى المزاحمة والحروب. لذلك آثر أن يهاجر أيضا فوصل إلى مشارف صحراء الشام والعراق (شكل ١٦) وولد له شالح الذى ولد له عابر ولعابر وُلد ثلاثة أبناء:

١ - **يقطان أو قحطان** : وقد ولد له ١٣ ابنا. ولم يجدوا لهم مكانا إلا فى جنوب شبه الجزيرة العربية فكان منهم القحطانية - وأهل حضرموت الذين جاوروا قبيلة عاد قوم هود عليه السلام. أما ابنه «شبا» فقد اتجه غربا فوصل إلى ساحل البحر الأحمر وأنشأ أبناؤه - السبئيون - مملكة سبأ.

٢ - **فالج** : ظل هو وذريته سائرين فى محاذاة الشاطئ الغربى لنهر الفرات على الحافة بين الأراضى الزراعية الخصبة فى الشرق، والصحراء فى الغرب وظلوا يتنقلون شيئا فشيئا فى اتجاه الجنوب. وكان الأبناء والأحفاد: رعو ثم سروج ثم ناحور ثم تارح أو آرز الذى كان قد وصل إلى بلدة أور. وكان بارعا فى صناعة التماثيل فصنع للقوم تماثيل لآلهتهم واستقر بمدينة أور وهناك ولد له ولد سماه أبرام فى لغتهم (وهو بالعربية إبراهيم عليه السلام).

٣ - **جرهم** : وسبق الإشارة إلى أن أحفاده استقروا فى مكة بعد تفجر بئر زمزم.

المعتقدات الدينية فى العراق القديم

من الطبيعى أن أبناء نوح عليه السلام وأحفاده كانوا مؤمنين بالله تعالى يوحدونه ويعبدونه كما علمهم جدهم نوح عليه السلام. ولكن مع تكاثر الذرية وارتحال القبائل إلى مناطق بعيدة تقطعت الصلات بينهم وبدأوا فى نسيان عبادة التوحيد التى كانوا عليها.

وسبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٥١ ، ص ٦٠) أن النفس البشرية فيها «وعى» داخلى بوجود قوة عليا أقوى من البشر كما أن الإنسان يميل إلى اللجوء إلى هذه القوة العليا عند الشدائد.

فى شمال العراق - وهى منطقة جبلية تكثر فيها الرعود والبروق. وهو شئ مخيف فعلا

شكل ١٦ – أماكن أبناء لود وأرفكشاد

وخاصة إذا تتابع. وهذا الخوف وعدم معرفتهم بحقيقة هذه الظواهر الطبيعية صور لهم **آلهة** الربوات فوق قمم الجبال وعبدوها استرضاء لها حتى لا تؤذيهم فى ثوراتها وغضبها. كذلك فإن **المياه العظيمة**، سواء كانت أمطارا أو فيضانات أنهار فقد عبدوها ليرجوا نفعها ويتقوا غضبها. وهكذا ظهرت المجموعة الأولى من الآلهة وهى آلهة الطبيعة.

فى جنوب العراق كانت السماء صافية. ليس فيها سحب أو غيوم ولا رعد أو برق. فتمكن الناس من رصد **الكواكب** وعرفوا علاقتها بمقدم الفصول - من صيف حار أو شتاء مطير وظنوا أن ظهور هذه النجوم هو الذى يحدث الفصول ومن ثم عبدوا الكواكب والنجوم. بهرهم القمر بنوره وخاصة عند اكتماله فعبدوه. وقد وجد معبد مكسو بالجص يسمى المعبد الأبيض ومخصص لعبادة القمر فى أوروك. وعرفوا الشمس ببعثها الدفء والحرارة فى الكون فجعلوا منها إلهًا وعبدوه. ثم رصدوا بقية الكواكب: الزهرة والمشترى وغيرها وعبدوها كآلهة.

وكانت فيضانات نهرى دجلة والفرات - فى كثير من الأحيان - عاتية مدمرة تكتسح أمامها كل شئ مهلكة الحرث والنسل. ولعلهم لم يكونوا على علم بأن سبب الفيضان هو الأمطار الغزيرة التى تسقط على منابع الأنهار وتخيلوا الفيضانات على أنها مياه تنبع من الأرض لذلك تصوروا ربا يتحكم فى مياه الأعماق أو المياه الحبيسة تحت الأرض وعبدوا هذه الآلهة لتحميهم من هذه الفيضانات المدمرة. وتقول إحدى الأساطير إن المياه العميقة الحبيسة طغت على سطح الأرض وغطت على مياه الأنهار وظلت كذلك حتى عمل «نينورتا» رب الرياح الجنوبية على تكديس الحجارة. وجعل منها سدا حجز به تلك المياه العظمى وصرف ما غمر البلاد وأزاح عنها ما أصابها من كرب.

وهكذا نرى أنهم افترضوا لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة. وافترضوا لأربابهم صورا بشرية مضخمة وحياة تماثل حياة البشر. يتزاوجون ويتناسلون ويتحاربون ويتخاصمون. وبجانب هؤلاء توجد أرباب صغار لعلهم كانوا يشبهون الأولياء أو القديسين. اتخذهم الأفراد أربابا شخصيين أو حماة أو شفعاء لهم لدى الأرباب الكبار الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم.

كما أنهم أحيانا تصوروا أربابهم بهيئة الحيوانات والطيور. ومن ذلك أنهم رمزوا إلى معبودهم «نين جرسو» بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد.

وجعلوا أيضا للقيم المعنوية أربابا. وللزرع والخصوبة أربابا وآلهة. وتعددت الآلهة والأرباب وانتقلت عبادتها إلى الدول المجاورة عن طريق قوافل التجارة - أو عن طريق الغزو السياسى ويفرض المنتصر عبادة آلهته على المهزومين. وقد يتغير اسم الإله حسب مكان عبادته. وكانت الآلهة من الكثرة وأسماؤها من التعدد بحيث يصعب ذكرها كلها ولكن يمكننا تصنيف آلهة

العراق القديم إلى الأقسام التالية:

أ – آلهة الكون :

١ – إله السماء «أن» أو «آنوم» أو «آنو» .

٢ – إله الأرض «إنليل» أو «إلليل» .

٣ – إله الماء «إنكى» أو «أبا» .

٤ – إله العالم السفلى «نرجال» .

ب – آلهة الفلك :

١ – إله القمر «سين» .

٢ – إله الشمس «شمش» .

٣ – إلهة الزهرة «عشتار» إلهة الحب والحرب .

جـ – آلهة الطبيعة :

١ – إله الصواعق «إشكور» أو «أدد» .

٢ – إله العواصف «نينورتا» أو «ننجرسو» .

٣ – إلهة النار «جيبل» أو «نوسكو» أو «إيشوم» .

٤ – آلهة الأنهار والمجارى المائية والقنوات : «نهرور» إله ذكر و «نانسى» إلهة أنثى لها علاقة بالماء والأسماك.

د – آلهة الخصب والتغذية والشراب :

١ – «دموزى» .

٢ – «جشزيدا» .

٣ – نيسابا» .

٤ – «إشنان» أو «إزينو» .

هـ – الآلهة الوطنية :

١ – «مردودك» إله بابل .

٢ – «نابو» .

٣ – «أشور» إله أشور والأشوريين .

وسنذكر نبذة عن أهم هذه الآلهة .

أ – الثالوث الأول :

ويتكون هذا الثالوث من إله السماء وإله الهواء والأرض العليا وإله المياه العذبة وسيد الأرض ويسمون الآلهة الكبار.

١ – **إله السماء** «آنو» أو «أنوم» وهو الإله الأعظم ودائما يتصدر قوائم الآلهة ويلقب باسم إله السموات. وعرشه فى قبة السماء، وله السلطة العليا ويخضع له جميع الآلهة الأخرى. وهو الذى يخوِّل لملوك الأرض السلطة التى يحكمون بها. وتشير الأساطير إلى أن «آنو» كان يسكن السماء وكان يحرس بوابته معبودان هما «تموز» و «جيزيدا». وكان يُعبد مع المعبودة «إينانا» فى الوركاء. كما كان فى خدمته من الآلهة الصغرى المعبود «آنوم».

٢ – **إله الريح أو رب العاصفة** «إنليل» وهو أيضا إله الهواء. ولما كانت الريح فى اعتقادهم تهب من الجبل فقد اعتبر أيضا إله الجبل وإله الأرض العليا. وبصفته الأخيرة هذه كان هو الذى يحدد مصائر الناس. وكانت زوجته هى ننليل» ويلاحظ هنا إضافة مقطع «نن» فى أول الكلمة للدلالة على التأنيث. وكان لإنليل معبد كبير فى بابل. ومن الآلهة الصغرى فى خدمة «إنليل» يوجد المعبود إجيجى. وبالاضافة إلى هذا الإله الكبير للرياح توجد ألهة أخرى مثل: «إينورتا» أحد أرباب الأعاصير والسحب الممطرة . و «نينورتا» رب الرياح الجنوبية . و «إشكور» رب الرياح.

٣ – **إله المياه العذبة** «إنكى» **وسيد الأرض**. فقد كان القوم يعتقدون أن هناك ثلاثة أراضى:

أ – الأرض العليا (الملاصقة للهواء) حيث يحكم «إنليل» .

ب – الأرض الوسطى (وبها المياه الجوفية السطحية التى تنبت الزرع وبهذا تكون سببا للحياة). وهذه الأرض الوسطى هى مملكة «إنكى».

جـ – الأرض السفلى : حيث يحكم «نرجل» .

وكانوا يعتقدون أنه تحت الأرض العليا التى نعيش عليها يوجد مسطح كبير من المياه العذبة تطفو عليه الأرض وهو الحوض الذى تتدفق منه منابع الجداول والأنهار.

وكان «إنكى» هو إله السحر أيضا. ولا غرو فالماء كان يستعمل فى التطهير والتنبؤ. والماء المقدس فى المعابد يستخدم كثيرا فى طقوس الشفاء من الأمراض. وكان «إنكى» إلها للحكمة

كذلك. وكان له معبد كبير فى إريدو (أبو شهرين حاليا). وكانت زوجته هى «ننكى» بمعنى سيدة الأرض – ويلاحظ أيضا إضافة «نن» فى أول الكلمة للتأنيث.

وابنهما هو «مردوك» أو «مردوخ» الذى صار إلها أكبر للإمبراطورية فى عهد حمورابى وبُنى له معبد كبير فى بابل.

وتوجد آلهة أخرى للمياه مثل «آبو» الرب الذى يتحكم فى مياه الأعماق.

ب – الثالوث الثانى :

وهو ثالوث الكواكب. ويتكون من القمر والشمس وكوكب الزهرة. ويعد إله القمر أقدم آلهة هذا الثالوث، ويعتبر أبا للشمس وكوكب الزهرة وعلى هذا كان إله الشمس أخا للزهرة. وإله الشمس ذكر كأبيه، أما كوكب الزهرة فكانت تارة نجمة الصباح وتارة أخرى نجمة المساء وكانت تعتبر أحيانا ذكرا وأحيانا أنثى ولكن غلب الجانب الأنثوى.

وسبق أن ذكرنا أن عبادة الكواكب بدأت فى جنوب العراق. إذ ساعدت السماء الصافية الخالية من السحب. على رؤية الكواكب بوضوح وتتبع مساراتها وأوقات ظهورها وغروبها فكان من أهم مراكز عبادة الثالوث هو مدينة «أور» حيث عاش إبراهيم عليه السلام.

١ – إله القمر «سين» :

هو ابن «إنليل» أحد الآلهة الكبار. وزوج «ننجال» أو «ننجل» بمعنى السيدة الكبيرة وهو أبو الشمس والزهرة. وكان أهم مركز لعبادته هو «أور».

وقد انتشرت عبادة القمر حتى وصلت إلى شمال العراق فكان يعبد فى حاران. وانتشرت عبادته كذلك إلى كل من سوريا وفينيقيا والبدو الأراميين. ويعتقد أن اسم سيناء مشتق من «سين» إله القمر. وسماه السومريون «ننا» بمعنى رجل السماء. وانتشرت عبادته حتى وصلت إلى جزيرة العرب فعبد تحت اسم «ود» عند المعينيين وباسم «المقة» أو «الموقاة» عند السبئيين. إلا أن الحضرميين احتفظوا باسم «سين» .

وتماثيل إله القمر «سين» فى أور تصوره على هيئة رجل جالس على عرش وقدماه عاريتان وله لحية مجعدة تسقط على صدره. أما تاجه فأربعة أزواج من القرون يعلوها هلال. وعصا الصولجان فى يمينه وفى يده اليسرى فأس. وقد يرسم على هيئة هلال فى السماء. وحين ينحدر الشهر يتحول الإله القمر إلى شيخ مسن له لحية ينفذ بحكمته وأقواله الرصينة قرارات الآلهة الذين فى السماء وعلى الأرض. والقمر هو الذى ينظم أيام الشهور والسنة. وكان لحركات القمر دور هام فى التنبؤ. وكان خسوف القمر أهول الظواهر.. وكان ينسب إلى هجوم

سبع أرواح شريرة على محل الإله «سين» وكانت ترسل الدعوات إلى الإله وتقدم القرابين حتى يعود ضوء القمر ثانية بانتصاره على القوى التى تعترض مجراه وتحاول حجب نوره.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٢) أنه وجد فى أوروك معبد مكسو بالجص (المصيص) يسمى بالمعبد الأبيض مخصص لعبادة القمر.

٢ – إله الشمس «أوتو» :

يأتى فى المرحلة التالية بعد أبيه إله القمر. و«أوتو» هو إله الشمس ورب العدالة أيضا. ومعبده فى سيپار شمال بابل (أبو حبة حاليا). وعبد أيضا فى لارسا إحدى دويلات جنوب مابين النهرين. وكان العبرانيون والأراميون يسمونه «شمش». رقد عبدت الشمس فى قتبان وحضرموت وسبأ. وإلى هذا يشير القرآن الكريم على لسان هدهد سليمان:

«وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله». (٢٤ – النمل)

وزوجة «أوتو» هى «إيا».

وقد جاء ذكر عبادة الشمس والقمر فى قوله تعالى:

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر. لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون». (٣٧ – فصلت)

٣ – الإلهة الزهرة «عشتار» :

وهى الثالثة فى ثالوث الكواكب بعد القمر أبيها والشمس أخيها، وهى ذكر فى الصباح يشرق على الحروب والمذابح. وأنثى فى المساء ترعى الحب والشهوة. فهى ربة تسعى وراء اللذة والإغواء. وهى لدى السومريين «أنينا» أو «أنينى» أو «نين» والاسم يعنى سيدة السماء. أما فى أكد فاسمها «عشتار» أو «استار» وتسمى «عشتارت» أو «عشتورة» عند الكنعانيين والفينيقيين و«عثتر» عند عرب الجنوب. وهى «إفروديت» لدى اليونان و«فينوس» عند الرومان.

ويمكن رؤية كوكب الزهرة بالعين المجردة لو نظرنا إلى جهة الغرب بعد غروب الشمس فهى أول ما يظهر من النجوم إذ هى أكثر الكواكب لمعانا فى السماء. كذلك يمكن رؤيتها إذا نظرنا فى اتجاه الشرق قبل شروق الشمس فهى آخر ما يختفى من النجوم. والزهرة هى ثانى كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس إذ أن عطارد هو أقربها إلى الشمس. يليه الزهرة ثم الأرض. ثم المريخ فالمشترى.

وقد مجد الأشوريون **الزهرة** كإلهة حرب. ومحاربة سلاحها المفضل هو القوس وحيوانها

الأثير هو الأسد، وصوروها واقفة على ظهر أسد فى أغلب النقوش التى تمثلها.

وقد انتقلت عبادة عشتار إلى بنى اسرائيل متأثرين بطقوسها التى كانت تقام فى مدينة صيدون. وفى عهد يوشيا حرمت عبادتها تحريما قاطعا (الجزء الخامس ص ٣٦١).

ورمزها نجم يخرج منه ثمانية من الأشعة أو ستة عشر داخل دائرة. وتلقب بعشتار النجوم لأنها الأكثر اتساعا بينهم. وهى التى تقود النجوم.

وهى تلى «شمش» مباشرة فهى أخته. وتوأم له. وهى إبنه «سين» إله القمر و «ننجال» فالليل يلد النهار ونجوم النهار يلدها إله الليل، وكوكب الزهرة نجم الفجر هى المرحلة بين مملكة الظلام. عرش أرشكيجال أختها. ومملكة الضوء – عرش شمس أخيها.

وهى فى شجاعة أخيها وقوته وفتوته فهى الشجاعة بين الآلهة والإلهات. وهى سيدة المعارك. ويفخر الأشوريون بعشتار المحاربة كشعب تعد حياته ملحمة حربية دائمة. وهى تبدو بتاج يعلوه نجم ذو ثمان أشعة. والسيف ملتصق بيسراها وهى تقف على أسد وأحيانا تمسك بيسراها القوس بصفتها إلهة الحب واللذة – خاصة فى المساء – وقد أقيم لها معبد فى أوروك (الوركاء). تبدو فيه عشتار تجتذب عابديها. وتحولت أوروك إلى مدينة المحظيات وبنات الهوى والعاهرات. إذ كانت عبادتها تحتوى على كثير من معالم الخلاعة. وكانت كاهناتها يتولين الدعارة رسميا.

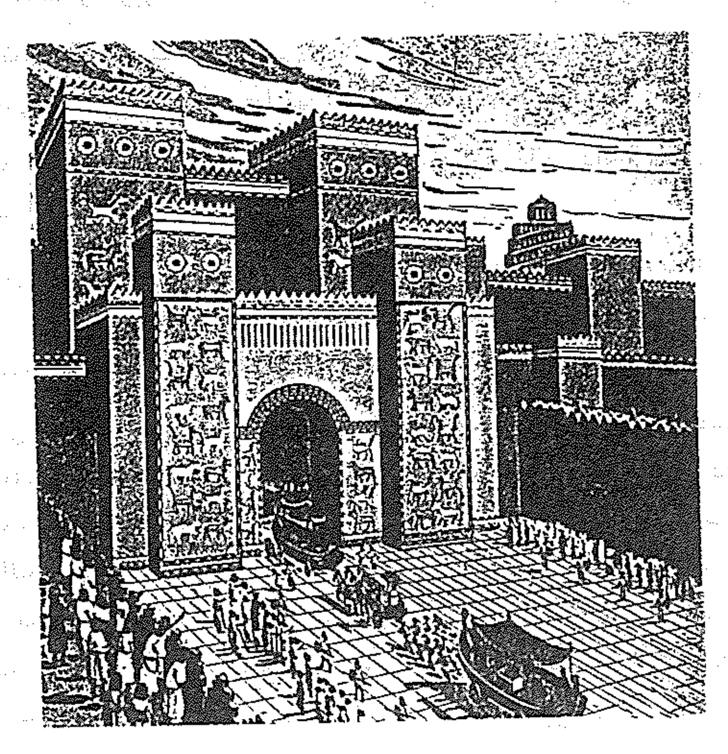
كما أنها ترفع إلى عرشها من تهواه من البشر. حتى أصبحوا الأزواج الأعزاء لها. فمثلا اجتذبت سرجون الأكدى من مركزه الوضيع لتجلسه على العرش. وهى التى سعت وراء أشور ناصر أبلا فى الجبال المجهولة لتنشئه ليرعى شعبه وتمنحه حكم أشور. ومن حَبَتهم بعطفها ومنحتهم حبها رفعتهم إلى السلطان. والحب الجسدى هبة من عشتار. هى ربة العشق وملكة اللذة. وهى زوجة وعشيقة لكبار الآلهة. وهى التى تحدد مصائر البشر.

وأقيمت لها معابد فى أوروك. وأكد وسيپار. ثم انتقلت عبادتها إلى نينوى.

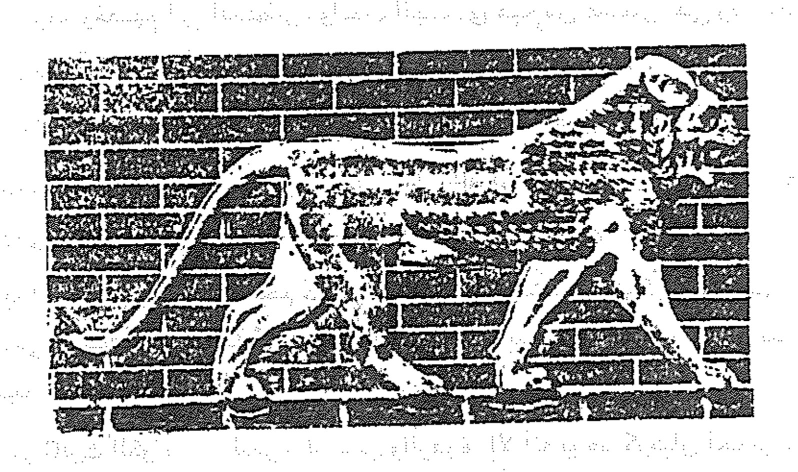
وعبدت فى أشور وكذلك فى كثير من المدن على الفرات حتى حاران بل وامتدت عبادتها فى الشرق. وفى «عيلام» كانت تعبد فى سوسة العاصمة وعرفت باسم «سيدة عيلام».

وفى بابل كان يوجد باب ضخم كبير يسمى بوابة عشتار (شكل ١٧) يؤدى إلى معبد عشتار. وفى الاحتفالات الدينية كان موكب الملك والكهنة يمر من هذه البوابة فى طريق مرسوم على جانبيه «أسود» (شكل ١٨).

هذا هو ثالوث الكواكب: القمر والشمس والزهرة. إلا أنه يوجد كوكبان آخران عبدا بجوار هذا الثالثوث، هما المشترى «مردوك» و «نابو» المريخ.



شكل ١٧ – رسم لبوابة عشتار ببابل



شكل ١٨ – أحد الأسود التى كانت تزين الأسوار المحيطة بطريق الموكب

٤ - مردوك :

هو رب المشترى، وكان مركز عبادته مدينة أور، وهى المدينة التى كان بها إبراهيم عليه السلام، ولما كسر الأصنام فى المعبد علق الفأس فى إحدى أذنى تمثال الإله مردوك، فهو كبير الآلهة.

«قال بل فعله كبيرهم هذا». (٦٣ - الأنبياء)

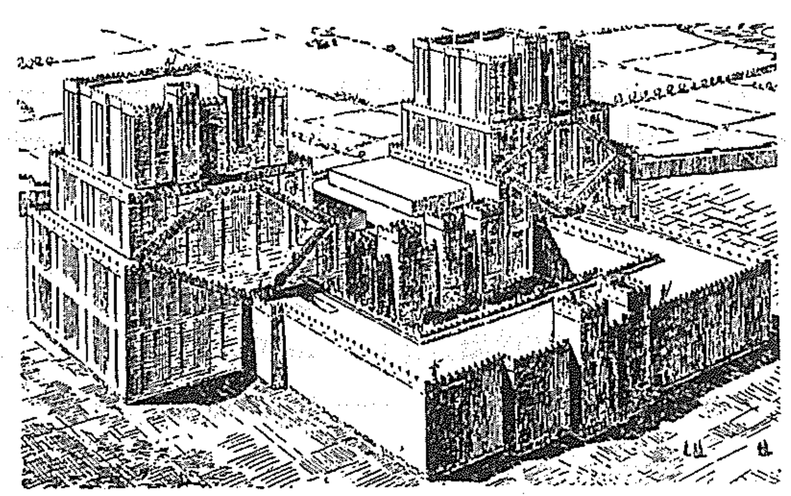
وبلغ «مردوك» أو «مردوخ» شهرة عظيمة فى المنطقة لأنه كان أيضا المعبود الرئيسى فى بابل، واستمرت عبادته حوالى ١٥٠٠ عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا حتى سقوط بابل فى عام ٥٣٩ ق.م. إذ نقرأ قول إرميا النبى العبرانى عند سقوط بابل: قولوا أُخذت بابل، تضعضعَ مردوخ.

وكوكب مردوك هو المشترى Jupiter. ومردوك هو الإبن البكر لـ «إنكى» أو «إيا» إله الماء، وهو إله إريدو، المدينة المقدسة وهذا ما أعطاه مركزا مرموقا فى بابل وكل مدن الجنوب.

ولمردوك أربعة عيون وأربعة آذان، وهو «أعقل العقلاء» و «الواعى بين الآلهة». وقد أسس له الآلهة معبدا فى بابل (شكل ١٩) عرفانا لجميله بعد أن أنقذهم من خطر كان قد تهددهم، ولمردوك خمسون إسما، بل هو يتمثل فى جميع الآلهة الأخرى أو أن الآلهة الأخرى ماهى إلا صورة من صوره، و «نرجال» إله المعارك هو مردوك، و «إنليل» سيد الآلهة هو مردوك و «سن» المضئ بالليل هو مردوك وهكذا، وكما تتركز فى «عشتار» كل المعبودات الأنثى، تتركز فى «مردوك» أيضا كل المعبودات الذكر، ومن ألقابه «بل» أى سيد الآلهة قاطبة، ويصور فى المعابد بتمثال وعلى رأسه تاج مخروطى عالى وله لحية وشعره منسدل وراء رأسه ويرتدى ثوبا طويلا تزينه نجوم ينسدل إلى قدميه، ويمسك بيده اليسرى المضمومة إلى صدره، رمز القوة وهى دائرة وعصا، أما يده اليمنى فمتدلية إلى جانبه، ويحميه الثعبان الأحمر، وهو حيوان له رأس ثعبان وجسد مغطى بالفلوس وله ذنب عقرب والمخلبان الأماميان مخلبا أسد أما الخلفيان فمخلبا نسر (شكل ٢٠).

وهو فى السلم الإله الخيِّر الذى يرعى الأقوات والشراب ويشرف على الأعمال العمرانية وهو لا يستخدم أسلحة الحرب إلا للدفاع عن الوطن، وقد ورث عن أبيه «إنكى» العلم والسحر، وعند ممارسة السحر كان الكهنة يذكرون اسم «مردوك» ويتلون الرقى والتعاويذ، فهو الذى يشفى المرضى ويحيى الموتى، وفى الأمور المستعصية كان «مردوك» يلجأ إلى أبيه «إنكى» طلبا للمعونة.

وزوجة «مردوك» هى «ساربانيتوم» أو «صبرانيتم» بمعنى الوضاءة كالفضة، وهى «التى تخلق مع مردوك النطفة»، وهى تدعى مع زوجها للخروج فى عيد رأس السنة من قدس الأقداس، ليتقدما موكب الآلهة، وقد انتشرت عبادة «مردوك» من العاصمة إلى كل أنحاء



شكل ١٩ – رسم لزقورة بابل والمعبد الرئيسى لعبادة « مردوك »



شكل ٢٠ – الإله «مردوك» وبجانبه الثعبان الأحمر

الإمبراطورية، وكانت تماثيله توضع فى المدن الأخرى إلى جانب تماثيل المعبودات المحلية. ولما غزا الأشوريون بابل قدموا ولاءهم لـ «مردوخ». وتقول الأساطير إن آخر ملوك بابل قد أحضر إله منافسا لمردوك ووضع تمثاله فى بابل. فعاقبه مردوك وعاقب قومه باستعداء الأجانب عليهم، فكان دخول الفرس إلى بابل!!

٥ - « نابو » ابن مردوك :

وكوكبه هو المريخ. وهو يرتبط ارتباطا مباشرا بعبادة مردوك وفى الاحتفالات الدينية يستقر إلى جانب أبيه «مردوك» وهو يحدد أقوات البشر فى السنة القادمة. ودور «نابو» فى ذلك هو كاتب الآلهة. فهو «سيد القلم» وهو يسجل ما يحدده «مردوك» من أقدار وأعمار البشر. ونابو هو أيضا «إله السمع» كبير الأذنين (شكل ٢١).

٦ - « أشور » :

وأشور من الآلهة الوطنية وهو إله مدينة أشور مدينة الأشوريين وهو زوج «كيشار».

وحينما كانت السيادة للإمبراطورية الأشورية، انتزع «أشور» السيادة من «مردوك» وأصبح «أشور» هو كبير الآلهة أو «إنليل الآلهة» وهو الذى يفتتح المواكب الدينية. ويصور «أشور» واقفا فوق حيوانين خرافيين أحدهما تنين «مردوك» والآخر أسد. وأحيانا يصور على هيئة حيوان برأس بشرى وجسم أسد وله جناحان. (شكل ٢٢).

آلهة أخرى :

١ - «نينازد» إله الطب (وكان مقر عبادته إشنونا).

٢ - «إيرو» رب الحرب وله معبد فى كوتة شمال بابل.

٣ - «لهار» رب الماشية .

٤ - «أشنان» رب الغلال .

٥ - «نينتو» أو «ماما» ربة الأمومة. كانت تعبد فى دويلات وسط سومر - جرشو ولجش - وفى بعض البلاد كان اسمها «ماه».

٦ - «دموزى» رب خصوبة الأنعام وخصوبة الأرض. والذى يظل حبيسا خلال فصل الجفاف، ثم فى شهر يوليو من كل سنة يتخيلون أن «دموزى» بعث من جديد وتزوج «إشتار» العروس. كناية عن عودة خصوبة الأرض والأنعام وبداية موسم زراعى جديد ولذلك سمى شهر يوليو «تموز» إشتقاقا من «دموزى».



شكل ٢١ – تمثال الإله « نابو »
ابن « مردوك »

شكل ٢٢ – تمثال للإله « أشور » عثر عليه فى مدينة دور شاروكيم
حيوان مجنح له جسم أسد ورأس إنسان

وبنوا لآلهتهم المعابد. وكانوا يقدمون لها القرابين من غنم وماشية. وأحيانا كانوا يضحون بأبنائهم تقربا للآلهة.

واختارت بعض النسوة أن يضحين بأجسادهن تقربا للآلهة. وكانت التضحية بالجسد تعنى أن يقدمنه لكل راغب متعة. وهكذا انتشرت فى معابدهم الطبقة المعروفة باسم «البغايا المقدسات».

نظرية الخلق :

تخيل **السومريون** أن السماء والأرض فى بداية أمرهما كانتا ملتصقتين. ومن الصعب تصور أن السومريين أتوا بهذا من تلقاء أنفسهم فمن ينظر إلى السماء ومابها من شمس وقمر ونجوم يدرك أنها بعيدة جدا فلابد أن هذا المعنى تناقلته الأجيال عن آية قالها نوح عليه السلام ومعناها كالآية التى وردت فى القرآن الكريم:

«أو لم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» (٣٠ - الأنبياء)

وكما سبق أن قلنا فى الجزء الأول (ص ٦٩) - أنه فى بعض الأحيان كانت بقايا الديانات السماوية - تصل إلى الكهنة فيجدون فيها ما يطعمون به أفكارهم ومن ثم تفسيراتهم الدينية.

تخيل السومريون أن السماء والأرض فى بداية أمرهما كانتا ملتصقتين يحيط بهما محيط مائى عظيم. وكان فى السماء إله مذكر هو «آنو» الذى اعتبروه الجد الأكبر للمعبودات. وفى الأرض إلهة مؤنثة هى «كى»، ونتج عن اتصال هذين الزوجين عنصر ثالث هو «إنليل» أو «ليل» رب الهواء والأنفاس والفضاء الذى تدخل بينهما وفصل السماء عن الأرض، ورفع «أنو» بسمائه إلى أعلا. وحط أمه «كى» الأرض إلى أسفل حيث اختلط بها وترتب على وجوده معها أن بدأ ظهور بقية الأرباب. وكان أكبر أبناء «إنليل» هو القمر ويسمى «ننا أو ننار أو نانور».

وكان هناك أيضا منذ القدم «إنكى» روح الماء المحيط بالسماء والأرض ابن «نمو» عنصر الأمومة فى المحيط الأزلى زوج «ننماح» السيدة العظمى أو «نينتو» أى السيدة الوالدة.

وفى **أسباب خلق البشر** كان السومريون يعتقدون بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ويخدموهم ويوفروا القرابين لمعابدهم. وتصوروا أن الأرباب عاشوا فى بداية خلقهم هائمين لا يقدرون على شيئ من أمرهم، حتى خلق إلههم الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها «لهار» وأنبت الغلال ووكل بها «أشنان» أخت «لهار» فطعموا ولكنهم لم يحسوا الشبع طعما. فاتجهوا بضراعتهم إلى المعبود الحكيم «إنكى» ووسطوا لديه أمه - روح الأمومة فى المحيط الأزلى - فقالت له: قم إذن يابنى. ولنصنع شيئا لائقا. لنصنع بشرا عبيدا للأرباب. فاستجاب لها. وقال

لها: إضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق. وشكلى أنت له أعضاءه وجوارحه. واربطى عليه صورة الآلهة. ذلك هو الإنسان. ثم قدرى له مصيره يا أماه وأرادت الأساطير أن تعلل خلق ناقصى التكوين أى التشوهات الخلقية من هذا المنطلق فقالوا إن إنكى أسرف ذات مرة فى الشراب فقبضت «ننماخ» زوجته قبضة من طين مياه العمق وأرادت أن تقلد أمه فى الخلق فخلقت خلقا مشوها. وشاء «إنكى» أن يلهو بدوره ويجرب حظه فى الخلق فقبض قبضه من الطين وشكلها. ولكنه فشل وصنع مخلوقا لا يعرف الكلام (المولود أصم أبكم) ولا أكْل الطعام (المولود بتخلف عقلى أو شلل)..!

أما نشأة الوجود عند **البابليين** فكانت كما يلى: إن أصول الأشياء كلها ترتد إلى ماء أزلى اختلط عذبه بمالحه. ومثل العذوبة فيه «آبسو» وهو مذكر. ومثلت الملوحة فيه «تيامة» وهى أنثى. ولم تكن هناك سماء ولا أرض بعد. بل كانت المياه العذبة والملحة فقط ثم نشأت أجيال الأرباب فى جوف ماء البحر جيلا بعد جيل. وتصارع الأرباب الصغار واشتد صخبهم فسلطت عليهم الزواحف والكواسر. واستعانت كذلك بإله قديم يدعى «كنجو». وعجز الأرباب عن مقاومة هذا الحلف فتخيروا من بينهم «مردوك» لقيادة الحرب ضدهما. واستعان بالسحر حتى تصيدها بشبكة وأطلق عليها ريح السموم فشل حركتها. ثم قيدها وذبحها. وفعل كذلك بحليفها «كنجو» واسترد منه ألواح القدر. ثم عاد إلى الماء الأزلى فشقه نصفين وجعل نصفه الأعلى سماء ونصفه الأسفل أرضا. وعين فى السماء حرسا ونظم ماءها وعين موضع الأرباب. وأرسى الأرض وجبالها وأنهارها وفجر العيون والينابيع. ووقع غرم العمل فى إصلاح الأرض على فريق من الآلهة. فتظاهرت وأعلنت احتجاجها أمام قصر الإله الأعظم «إنليل» واستفتى بطانته من مجمع الأرباب. واستقر رأيهم على خلق الانسان كى يحمل عبء العمل فى الأرض ويخدم المعبودات ويكد من أجل إقامة معابدها وتوفير قرابينها. وعهدوا إلى الربة الأم «ننتو» بأن تخلق الإنسان الأول. فأخذت الطين النقى الطاهر. وتفلت على الطين وعاونها «إيا» وشكلت من الطين سبعة ذكور وسبع إناث. وقدر تسعة شهور لحمل الإناث وبين دقات الطبول وقراءة التعاويذ خرج الإنسان الحى!!.

وتكاثر الناس واشتد صخبهم وضجيجهم وضاق «إنليل» فأمر «نمتار» بأن يبتليهم بالأوبئة والأوجاع ليقلل أعدادهم. وابتلاهم كذلك بالقحط وحبس المطر والمجاعة.

ولما زادت شرورهم ابتلاهم بالطوفان كما سبق أن ذكرنا فى ملحمة جلجاميش . (صفحة ١١٦ ٠الجزء الأول).

وانعكست الصراعات السياسية على مراكز الأرباب والآلهة. فإله الدولة المنتصرة يسود على غيره من الآلهة وتتوارى آلهة الدول المهزومة. وقلنا سابقا إن «مردوك» أصبح كبيرا للآلهة

فى عصر السيادة البابلية. ولما استعادت لجش حريتها وقوتها عاد لإله لجش «نين جرسو» مكانته وكذلك «نين جيزيدا» إله الشمس و «نيسابا» إلهة العلم. واستقلت أيضا دولة أوروك واستعادت الآلهة «إنانا» و «آنو» و «أوتو» مكانتهم.

وظهرت أسطورة إنكيدو وبطلها المعبود «إنكى» الذى أراد أن ينتقم من الوحش «كور» لاختطافه الربة «إرشكيمال» وأخذها إلى عالمه السفلى. فتتبعه «إنكى» فى قاربه حتى انتصر عليه وأيد انتصاره بتحكمه فى مياه الأعماق وسمى بالإله «إيسو».

ورويت أسطورة أخرى (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله. جـ١ ص ١٨):

فى الوقت الذى لم يكن الإنسان قد خلق بعد. يوم كانت مدينة نيبور لا يسكنها إلا الآلهة كان «إنليل» إله الهواء هو رب الأرباب وكانت «ننليل» عذراء المدينة. وكانت أمنية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة الآلهة ورب الأرباب.

وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها: تمشى يا ابنتى على شاطئ النهر وفى المجرى الصافى اغتسلى. فإن ذا العينين المشرقتين - إنليل العظيم الذى بيده المصائر - سيراك وسيشغف بك حبا. فاتبعت ننليل نصيحة أمها. وبينما هى تمشى على الشاطئ بعد أن اغتسلت فى المجرى الصافى رآها إنليل وفتن بجمالها وراودها عن نفسها فأبت فحملها إلى قارب فى النهر واغتصبها فحملت فى «سين» إله القمر وفزعت الآلهة لما ارتكبه «إنليل» وطردته من المدينة وألقت به فى العالم السفلى - العالم الذى لا رجعة منه.

ولعل أهل بابل قد ابتدعوا هذه القصة ليحطوا من قدر «إنليل» وينصبوا «مردوخ» إلههم كبيرا للآلهة وربا للأرباب.

وأسطورة أخرى يرويها بستانى عن «أنانا» البغى المقدسة فيقول: ذات يوم بعد أن عبرت ميلكتى السماء وعبرت الأرض - بعد أن قطعت بلاد عيلام وبلاد أشور اقتربت البغى المقدسة «أنانا» من البستان. ومن أثر تعب السفر غطت فى النوم. فرأيتها عند حافة البستان. وقبلتها وجامعتها وعدت إلى مكانى. وطلع الفجر وأشرقت الشمس فاستيقظت «أنانا» وفطنت إلى ما وقع لها.. فأخذت تتلفت فزعة وجلة وهبت لتنتقم لما نالها. فملأت جميع آبار البلاد بالدم. فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدم. لقد صار العبيد يذهبون للإحتطاب لا يشربون إلا الدم. والإماء إذا ماجئن للتزود بالماء لا يملأن قربهن إلا بالدم. لقد قالت لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد. ويختم بقوله ولكنها لم تجد الذى جامعها. وهى أيضا أسطورة تهدف إلى الحط من آلهة السومريين.

وفى قصة أخرى يسرق رب الطير «زو» ألواح القدر من أربابها فيجمعون أمرهم على الانتقام منه.

وقصة أخرى صورت «سين» رب القمر البابلى - يعشق إحدى بقراته فينقلب ثورا ليضاجعها.

و «آنو» إله السماء يطرد إبنته «لاماشتو» من السماء إلى الأرض لسوء سلوكها.

وكثرت القصص التى وضعها المهزومون للحط من قدر آلهة الدول التى انتصرت عليهم.

هذا جانب من الضلال الذى انتشر. وهو معنوى أصاب الناس فى تفكيرهم وأخلاقياتهم. إذ يرون الآلهة وهى ترتكب الخطيئة أو تنسب إليها كل النقائص. فكيف يطلب من البشر سلوك الأخلاق الحميدة؟!!

أما الجانب الآخر. فهو الجانب المادى. وما أصاب الطبقة العاملة من الشعب من إرهاق إذ تكد وتكدح لتوفر المأكل والمشرب والملبس بل وكل متع الحياة لمئات المشتغلين فى المعابد من كهنة وحراس وخدام المعابد ومقدمى القرابين والسحرة والمنجمين والعرافين ... و ... مئات بل آلاف. على الشعب الكادح أن يتولى معيشتهم المرفهة فى قصور أو بيوت فاخرة. وفضلا عن ذلك فعليه تقديم القرابين من ماشية وأغنام فى الأعياد وجميع المناسبات لتكون من نصيب الكهنة وخدام المعبد - وإلا كان التهديد بغضب الآلهة!!

فى مبدأ الأمر كان الملك هو الذى يقوم بتقديم فروض العبادة وتقديم القرابين على المذبح المعد لذلك فى دور العبادة. وكان دوره أن يكون وسيطا بين المعبود «الإله» والبشر. ولما لم يكن الملك يستطيع القيام بهذه المهام وحده فى جميع المعابد لذلك نشأت طبقة الكهنة لتسهر على القيام بالواجبات المفروضة نحو المعبود. وبعد ذلك تحولت هذه الطبقة إلى طبقات متعددة ومتباينة. واتخذوا لهم عبيدا وجنودا. وخُصصت لهم أراضى وممتلكات. وكان الملك دائما هو الكاهن الأكبر للإله الوطنى فى العاصمة. كما كان الأمير هو الكاهن الأكبر لمعبود المدينة وكان منصب الكاهن الأكبر منصبا يسيل له لعاب الأمراء. إذ هو من الشخصيات المهمة وله ميزات معنوية ومادية كبيرة. يليه فى الأهمية كاهن يسمى حارس المعبد وهو الذى يفتح المعبد صباحا بعد أن يباشر طقوسا ويتلو صلوات معينة ثم يفتح المعبد للمصلين وكان الكاهن هو الذى يتولى تتويج الملك من قبل الإله فى كل عام فى احتفال كبير يقام بهذه المناسبة.

ثم يأتى بعد ذلك طبقات من الكهنة. منهم المرتلون والبكاؤون والضاربون بالطبول. هذا بالإضافة إلى المغنين والعازفين. ولكل طبقة عملها واختصاصها فى الطقوس وممارساتها. ثم هناك غيرهم من طبقة الصناع والغسالين. ثم الكاهنات والمحظيات المقدسات. ثم المندورون والمنذورات. وكان هناك أكثرمن ٤٠ طبقة من سدنة المعبد يقومون على الخدمة فى المعابد ومباشرة الطقوس. فمنهم من يتولى شئون التطهير ومنهم من يختص بشئون الدهن والمسح المقدس ومنهم من يعنى بالسحر والعرافة والتنجيم.

ولكل فئة زى خاص. وكان لهم أيضا أنصبة ثابتة من إيرادات المعابد وما يقدم إليها من نذور أو قرابين على هيئة حبوب أو أوانى النبيذ أو ذبائح من ماشية وأغنام.

ومن الطريف أن نذكر كيف كان الكهنة يقومون باستطلاع الغيب. فقد كان ذلك يتم عن طريق دراسة الكبد أو دراسة الأوانى.

أما كبد الحيوان فلأنه كان ينظر إليه باعتباره مركز الحياة. وتبدو عليه كما تبدو على المرآة رغبات المعبود الذى تقبَّل الأضحية. وكان من الضرورى أن يكون الحيوان مبرءا من العيوب. وتقام طقوس خاصة عند تقديمه وذبحه على المذبح. ويتم ذلك فى ساعة محددة. وكان يُنظر إلى أن الأضحية كأنما أصبحت جزءا من المعبود مادام قد تقبلها. وهى فى الوقت نفسه جزء من مقدمها الذى يُسمح له بأن يأكل جزءا منها وهكذا تمتزج روح الإله بالذبيحة بروح الإنسان فيستطيع أن يعرف ما تشير به الآلهة. وعراف الكبد يسمى «بارو» وهو يتقدم نحو الإله حاملا معه موقده ومائدته ومعه خمر وخبز وبعض من الزبد والعسل والملح. ويأخذ بيد صاحب الأضحية ويستأذن المعبود فى تقديمها. ثم تنحر الذبيحة ويختص المعبود بأطيب أجزائها. ثم يفحص العراف الكبد ويلاحظ خطوطه وتشققه ويقدم نتيجة دراسته (كما يفعل قارئ الفنجان فى أيامنا هذه).

أما العرافة عن طريق الأوانى فتتم بواسطة وضع الماء على الزيت فى إناء ومشاهدة حلقات الزيت وتحركاتها فوق الماء. ويستطيع العراف عن طريقها أن يقدم رأيه فى ما قد يحدث للمريض من موت أو شفاء أو عما قد يحدث لمشروع ما من نجاح أو فشل وهكذا .

لا بعث ولا حساب !!

فى هذه المناطق من الشرق الأدنى القديم. لم يكن هناك اعتقاد ببعث أو حساب فى حياة آخرة! (د. نجيب ميخائيل إبراهيم – مصر والشرق الأدنى القديم جـ٦ ص ١٧٩). مقر الجسد القبر حتى يبلى. أما الروح فتنتقل إلى عالم سفلى هو عالم الأرواح تخلد فيه. وليس هناك إشارة واضحة إلى زيارة الروح للجسد بين حين وآخر أو حياة آخرة تعود فيها الروح إلى الجسد الذى كان لها فى الدنيا. فالجسد مصيره الأرض التى لا رجعة منها. والأرواح أيضا فى عالم لا رجعة منه. وهكذا لا ثواب ولا عقاب. فإذا كان الأمر كذلك فإن الحياة الدنيا فى رأيهم هى موطن الراحة والمتاعب. يلقى الإنسان فيها مايلقى، ولا ينتظره من بعدها شئ. لا أمل لمهضوم حق فى أن ينال تعويضا عن الظلم الذى حاق به، ولا لمعذَّب فى سبيل الحق أن ينال جزاء حسنا، ولا عقوبة لمجرم استطاع أن يضلل العدالة فى الدنيا فليس هناك حساب دقيق للحسنات أو السيئات، وليس هناك إله ترعى عينه كل شئ وتحصى كل شيئ. ولا تغفل

عن شيئ. فلا عقاب على مسيئ ولا ثواب لخيِّر لم ينل ثوابا فى حياته. إذن فكل الأعمال مردودها هنا على الأرض. فثمن الفضيلة وجزاء الرذيلة هنا على الأرض. والواقع أن عدم وجود حياة آخرة كان هو المعتقد السائد فى كل شعوب العالم القديم ماعدا مصر (انظر الجزء الأول ص ٧٦).

أما الشرائع فكانت تؤكد على ضرورة طاعة الملك. وتركز على تقديم القرابين للآلهة – وبالطبع كان الكهنة هم الذين يأخذونها.

هذا الاعتقاد الخاطئ – بعدم وجود حياة آخرة – هو الذى أشاع الظلم والفساد فى الأرض وأشاع التجبر والاستعباد. وليس للعدل ولا للرحمة مكان. والشعب المطحون لا يملك إلا نسيان بؤسه بشرب الجعة والنبيذ.

وكان لابد للسماء أن تتدخل

لتنقذ البشرية من هذه الضلالات

فكان إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم بن تارح (أو آزر) بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد (أرفخشذ) بن سام بن نوح عليه السلام.

وهذا جدول مواليد نوح إلى إبراهيم حسب ما جاء فى التوراة. وعمر كل منهم حينما وُلِدَ له ابنه وعمره الكلى.

نوح وُلِدَ له سام عند عمر ٥٠٠ سنة وعمر نوح كله ٩٥٠ سنة .

سام وُلِدَ له أرفكشاد عند عمر ١٠٠ سنة فى عام الطوفان وعمر سام ٦٠٠ سنة .

أرفكشاد وُلِدَ له شالح عند عمر ١٣٥ سنة وعمر أرفكشاد كله ٤٣٨ سنة .

شالح وُلِدَ له عابر عند عمر ٣٠ سنة وعمر شالح ٤٤٣ سنة .

عابر وُلِدَ له فالج عند عمر ٣٤ سنة وعمر عابر كله ٤٦٤ سنة .

فالج وُلِدَ له رعو عند عمر ٣٠ سنة وعمر فالج كله ٢٣٩ سنة .

رعو وُلِدَ له سروج عند عمر ٣٢ سنة وعمر رعو كله ٢٣٩ سنة .

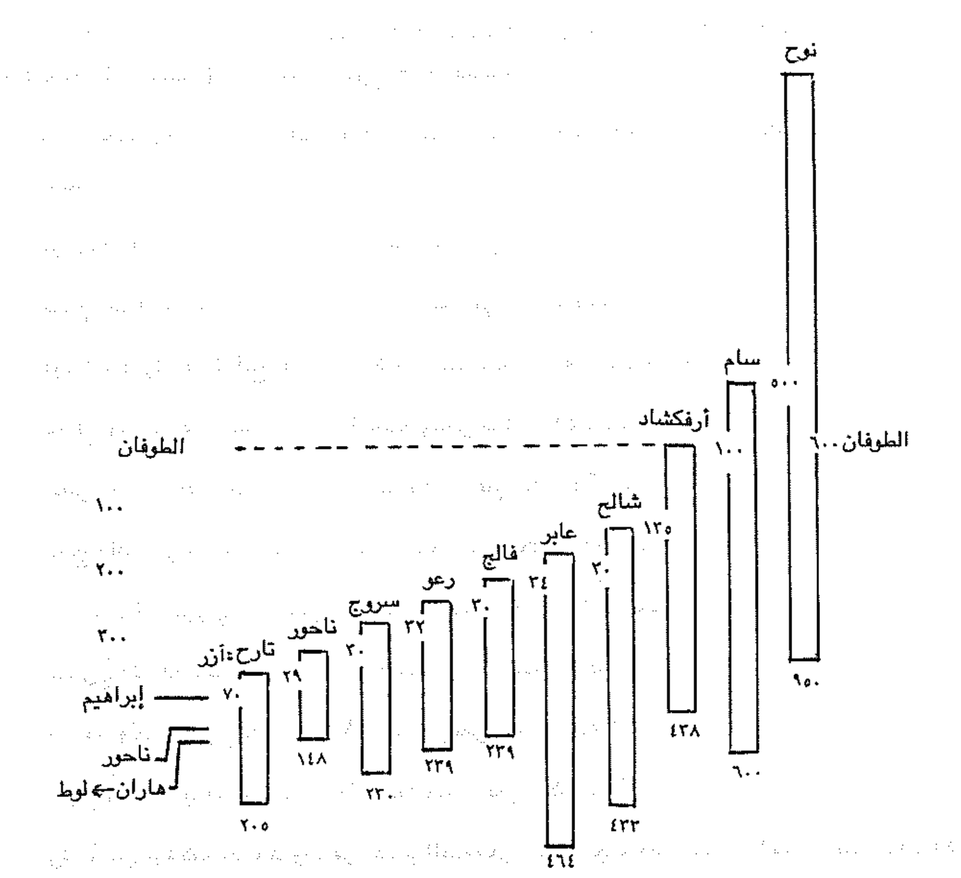
سروج وُلِدَ له ناحور عند عمر ٣٠ سنة وعمر سروج كله ٢٣٠ سنة .

ناحور وُلِدَ له تارح عند عمر ٢٩ سنة وعمر ناحور كله ١٤٨ سنة .

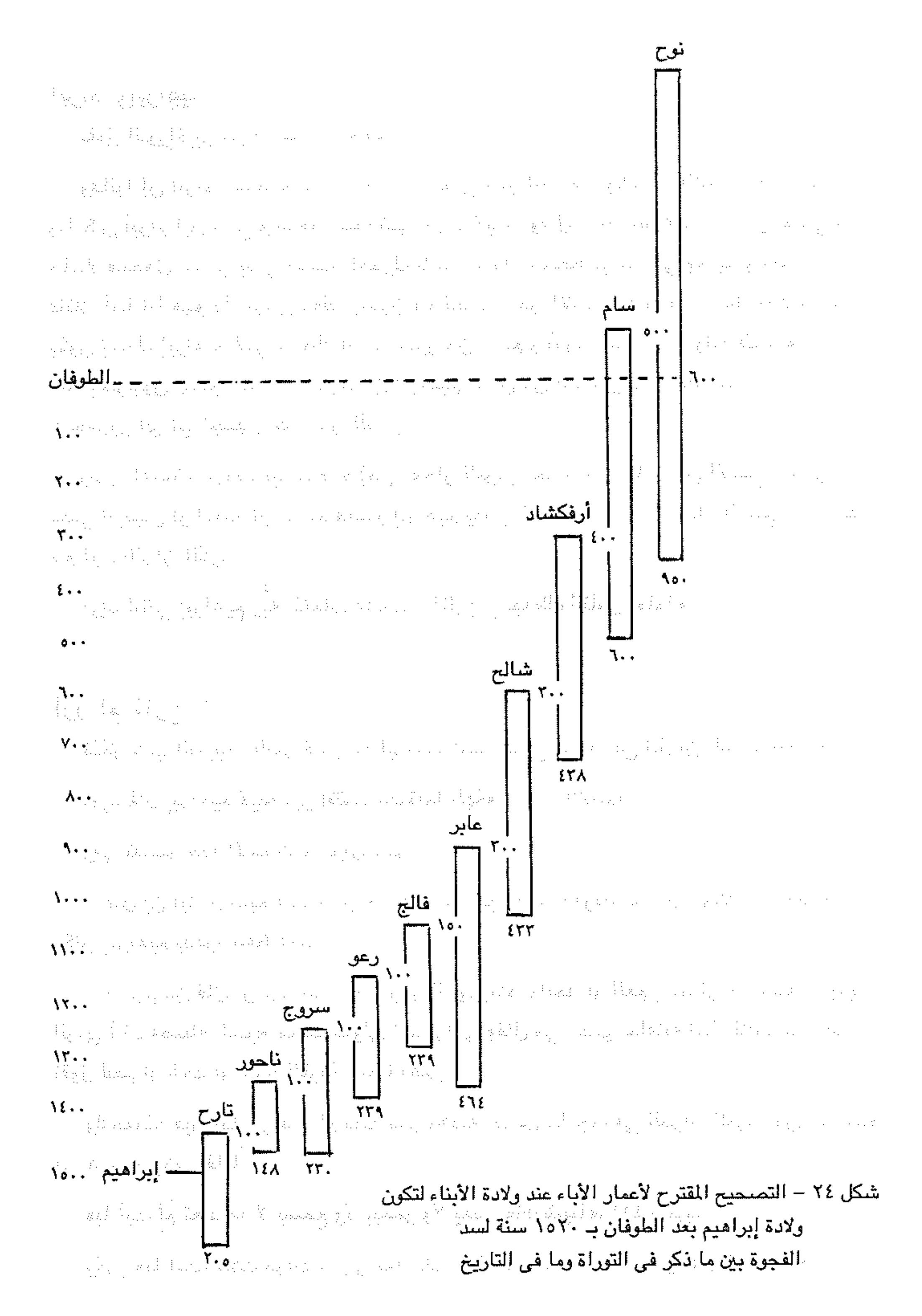
تارح وُلِدَ له أبرام عند عمر ٧٠ سنة وعمر تارح كله ٢٠٥ سنة .

ولما كان أرفكشاد قد ولد فى عام الطوفان. فإذا جمعنا أعمار الأباء عند ولادة الأبناء لوجدنا أن إبراهيم ولد بعد الطوفان بـ ٣٩٠ سنة ١٣٥ + ٣٠ + ٣٤ + ٣٠ + ٣٢ + ٣٠ + ٢٩ + ٧٠ =٣٩٠ سنة ويظهر ذلك بوضوح من شكل ٢٣.

ولكن فيما سبق رأينا أن العصور والأمم التى مرت على العراق بعد الطوفان – وهى العصر الحجرى الحديث ثم الحضارة النحاسية الحجرية ثم حضارات العبيد ثم الوركاء – ثم عصر بداية الأسرات السومرى وغيرها كل ذلك استغرق حوالى ٢٠٠٠ أو ١٥٠٠ عام على أقل تقدير وهذا يدل على أن الأعمار المذكورة فى التوراة عند ولادة الأبناء ليست دقيقة. ويحق لنا أن نفترض تصحيحاً لها حتى تكون ولادة أبرام بعد الطوفان بحوالى ١٥٠٠ سنة وهو ما يتفق مع العصور التاريخية التى مرت على العراق وشكل ٢٣ يبين الأعمار كما جاءت فى التوراة وشكل ٢٤ يبين التصحيح المقترح.



شكل ٢٣ – رسم توضيحى لشجرة النسب من نوح إلى إبراهيم عليهما السلام – حسب ما جاء فى التوراة
الرقم بجوار العامود هو عمر الأب عند ولادة الإبن
الرقم أسفل العامود هو العمر الكلى للأب



شكل ٢٤ – التصحيح المقترح لأعمار الآباء عند ولادة الأبناء لتكون ولادة إبراهيم بعد الطوفان بـ ١٥٢٠ سنة لسد الفجوة بين ما ذكر في التوراة وما في التاريخ

أبرام وإبراهيم :

تقول التوراة إن تارح سمى ابنه أبرام

وقالوا إن أبرام مشتقة من أب + رام بمعنى «أبو العلا». وجاء فى الاصحاح ١٩ تكوين: ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير. سر أمامى وكن كاملاً فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثّرك كثيراً جداً. فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهو ذا عهدى معك. وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعي اسمك بعدُ أبرام بل يكون إسمك إبراهيم لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون. ويقول علماء التوراة إن إبراهيم مكون من أب + راب + هام بمعنى أب + كثير + جمهور أى أب لجمهور كثير من الناس.

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٦٩) أن الأصح هو أن راب تعنى الرئيس أو المعلم أو الإمام فاسم إبراهيم يعنى الأب الإمام أو الأستاذ الإمام وهذا يتفق مع قول القرآن الكريم.

«وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهن. قال إنى جاعلك للناس إماماً». (١٢٤ – البقرة)

آزر أم تارح ؟

تذكر كتب التاريخ والتوراة أن أبا إبراهيم اسمه تارح. وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة». (٧٤ – الأنعام)

وفى تفسير هذا الاختلاف أقوال كثيرة .

– قيل إن أبا إبراهيم اسمه تارح ولكنه مات قبل ولادته فرباه عمه آزر وكان له بمثابة الأب وكان إبراهيم يدعوه بلفظ الأبوة.

– ومنهم من قال إن آزر اسم جده وهو الذى رباه. والجد أو العم يسميان أبا مجازا. وبهذا الرأى أخذ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وقال فى إحدى حلقاته إننا. للآن، فى القرى، نقول للعم أو للجد أو شيخ القرية «أبويا» فلان.

وللحقيقة فإن أبا إبراهيم لم يمت قبل ولادته. بدليل ما جاء فى القرآن الكريم من مناشدة إبراهيم له ليؤمن قائلاً.

«يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً». (٤٢ – مريم)

وكرر «يا أبت» ثلاث مرات أخرى بعد ذلك. ويا أبت خطاب أقرب لأن يقال للأب الفعلى.

وعندنا فى قصة نبينا عليه الصلاة والسلام خير مثال فقد كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب وهناك أكثر من حديث شريف كلها تبدأ ياعم. أشهرها يا عم لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى... الخ الحديث. ولم يقل يا أبت مع أنه قد رباه وكان له بمثابة الأب.

كما أن المأثور أن إبراهيم عليه السلام عند خروجه من أور أخذ معه والده ولم يمت والده قبل ولادة إبراهيم كما يقولون. بل مات فى حاران ودفن هناك.

وقيل إن أباه لم يمت.. وكان آزر هو والده حقاً وكان له اسمان يدعى تارح أحياناً، وأحياناً يدعى آزر. وقاسوا ذلك على أن نبينا عليه الصلاة والسلام اسمه محمَّد. واسمه أيضاً المصطفى.. وبذلك يحتمل أن اسم والد إبراهيم هو تارح. ويُسمَّى أيضاً آزر أى القوى أو المعين من المؤازرة. وقال البيضاوى إن تارح اسمه العلم وإن آزر وصف له. فإن صح ذلك يكون معناه القوى أو الناصر.

ولنا أن نتساءل: ناصر من؟ هل ناصر إبراهيم وآزره فى دعوته لقومه ليؤمنوا بالله؟ العكس هو الصحيح. إذ أنه ناصر آلهة القوم. بل وهدد ابنه بالرجم فقال.

«أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك» (٤٦ – مريم)

فأين هى المؤازرة التى تستحق أن تُسَجَّل فى القرآن الكريم؟ إن القرآن الكريم لا يذكر وصفاً إلاّ حقاً وصدقاً. وحينما قال

«يوسف أيها الصِدِّيق أفتنا...» (٤٦ – يوسف)

فقد كان يوسف عليه السلام صدِّيقاً – صادقاً فى كل أقواله. وصادقاً فى كل أفعاله وصادقاً فى نبوءاته.

وتارح لم يؤازر ابنه فى دعوته ليكون له الشرف بتسميته آزر من المؤازرة أو المناصرة!

وقال السهيلى إن لفظ آزر كلمة ذم فى لغته ومعناه أعرج، وقال آخرون ومعناه المخطئ والمخرِّف فهى كلمة زجر عن باطل. وقيل معناه يا شيخ فكأنه يقول له يا شيخ أو يا أعرج أو يامُخرِّف أتتخذ أصناماً آلهة؟ ويرى الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص٨٧) أن ذلك أمر بعيد الاحتمال أن يواجه إبراهيم عليه السلام أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر لأن والد إبراهيم لما هدده بقوله:

«أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً» (٤٦ – مريم)

لم يكن جواب إبراهيم عليه السلام، على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلاّ أن قال:

«قال سلام عليك، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًّا» (٤٧ – مريم)

ويقول الشيخ أمين الخولى إن الآية كتبت آزر ولكنها قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معانى كلمة آزر باختلاف إعرابها. فإن قرئت آزر بالضم للنداء. والمعنى قال إبراهيم لأبيه يا آزرُ وياء النداء تحذف أحياناً من الإعلام وبذلك يكون آزر هو إسم أبى إبراهيم

وإن قرئت آزر بالنصب – فهى نعت – فلا تكون آزر علماً بل صفة: وإسم أبى إبراهيم تارح وصفته آزر.

وقرئت مرة ثالثة أأزراً بالنصب مع التنوين وفى هذه القراءة تُفَسَّر كلمة أأزرًا على أنها بمعنى القوة. الهمزة الأولى للاستفهام الاستنكارى أى أأزرًا تتخذ أصناماً آلهة؟ والمعنى ألأجل القوة تتخذ أصناماً آلهة.

كقوله تعالى : **«أئفكا آلهة دون الله تريدون»** . (٨٦ – الصافات)

كقوله تعالى : **«أإله مع الله . تعالى الله عما يشركون»** . (٦٣ – النمل)

وقال فريق من المفسِّرين إن آزر اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم وكان سادناً له. والجملة فيها تقديم وتأخير وكأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه: أتتخذ آزر إلهاً. أو أتتخذ آزر أصناماً آلهة؟ وتم تقديم كلمة آزر فصارت: قال لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ (وبهذا الرأى قال مجاهد. قاله السيد المرتضى الزبيدى فى تاج العروس. وقاله أيضاً الصفائى).

وقد يقول قائل: ولماذا لم يسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة اسم أبى إبراهيم هل هو تارح أم أزر؟ وفى رأيى أن ذلك لم يحدث إذ أن المسلمين فى العصور الأولى وفى حياة الرسول لم يكونوا قد اطلعوا على ما جاء فى كتب أهل الكتاب. وبذلك أخذوا كلمة آزر على أنها إسم أبى إبراهيم ولم يكن هناك داع لسؤال الرسول عن هذا الأمر. ولكن بعد وفاة الرسول آثار مسلمة أهل الكتاب هذا الأمر. ونشط العلماء لإيجاد تفسير لهذا الخلاف وكانت اجتهاداتهم كما ذكرنا.

وآخر اجتهاد فى هذا المجال هو ما قام به الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم . جزء أول ص ٢٦٠) وخلص منه إلى أن «آزر» هى الترجمة العربية الصحيحة لاسم «تارح» العبرى. وأحيل القارئ إلى ما هو مكتوب فى الجزء الأول من هذه السلسلة فى صفحة ٤٥ عند ذكر الاختلاف فى إسم إدريس عليه السلام كما جاء فى القرآن، فى حين أن اسمه فى التوراة «أخنوخ».

ومن هذا المنطلق يرى الأستاذ رؤوف أن إبراهيم عليه السلام ولد فى أور الكلدانيين وكانت

اللغة السائدة هى البابلية. وفى هذه اللغة يمكن وضع التاء مكان الطاء كتابة ونطقاً ويكون تارح أو طارح مترادفان بمعنى الحمول أو المحملً بما يثقل ظهره.

وجاءت التوراة وكتبت الإسم كما ينطق فى لغته الأصلية البابلية. كتبته بأحرف عبرية. ثم لما ترجمت التوراة إلى العربية احتفظت بالنطق الأصلى أيضاً بأحرف عربية «تارح».

ولكن القرآن الكريم – وقد نزل بلسان عربى مبين – لا يرتضى هذه الطريقة – أى كتابة النطق الأجنبى بأحرف عربية. لذلك أرجع اللفظ لمعناه. والجذر الأصلى لـ تارح أو طارح هو طرح. ويقابله فى العربية الجذر وزَرَ بمعنى حَمَلَ ما يثقل ظهره. والوزر هو الحمل الثقيل الذى يثقل الظهر. وجاء فى القرآن الكريم.

«ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك» . (٢ – ٣ الشرح)

وفى بعض الكلمات تتبادل الهمزة والواو مثل أكَّد ووكَّد وعليه فإن وَزَرَ يمكن أن تقلب إلى أزر.

وجاء قوله تعالى على لسان موسى :

«واجعل لى وزيراً من أهلى. هارون أخى. اشدد به أزرى» . (٢٩ – ٣١ طه)

والمعنى أشدد به ظهرى. ومن الأزر جاء آزر والآية تقول:

«كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه» . (من الآية ٢٩ – الفتح)

بمعنى المؤازرة وزيادة التحمل وشد الظهير .

ويخلص الأستاذ رؤوف أبو سعدة من هذا إلى أن آزر هى ترجمة عربية لمعنى تارح التى جاءت فى التوراة والمأخوذة نطقاً عن البابلية بمعنى الحمول أو المتحمل لما يثقل ظهره.

وقد سبق عند الكلام عن اسم إدريس عليه السلام (الجزء الأول ص ٤٦) أن ذكرنا أنه يمكن كتابة اسم : مستر كاربنتر هكذا وممكن الرجوع بها إلى ترجمة المعنى فتكون السيد النجار ومدرسة البون پاستير وترجمة معناها إلى مدرسة الراعى الصالح، وكذلك تارح إذ بترجمة معنى جذرها تصبح آزر.

فلا خلاف ولا تعارض كما حاول المستشرقون تصوير الأمر – بل هو غيرة من القرآن الكريم على اللغة العربية. وبدلاً من كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية يلجأ إلى الجذر العربى المرادف له فى المعنى ويصوغ منه اسماً عربياً خالصاً يحمل إلى الأذهان نفس المعنى الذى يعطيه الإسم الأجنبى للناطقين باللغة الأجنبية.

وهو اجتهاد جديد – فريد فى نوعه .

أساطير عن مولد إبراهيم

تقول بعض المصادر إن المنجمين أخبروا الملك الذى وُلد إبراهيم فى عصره - أن غلاماً سوف يولد فى شهر كذا من سنة كذا من عهده، وأنه سوف يفارق دين القوم ويحطم أصنامهم، ومن ثَم فإن الملك أمر بقتل كل غلام يولد فى عهده فى المدة التى حددها المنجمون. غير أن أم إبراهيم أخفت حملها ثم وضعته سراً فى مغارة قريبة من المدينة. ونجا الوليد من القتل. وأخبرت زوجها أن الوليد قد مات. ورأى آخر يقول إنها أخبرته بالحقيقة. وكانت تتردد على الطفل يوماً بعد آخر. ورأته يشب بسرعة، قالوا كان يشب فى اليوم ما ينموه غيره فى شهر.

والرواية تثير الريبة فى صحتها. إذ كيف أخفت أم إبراهيم حملها أو ولادته عن أبيه. كذلك فإن تحذير المنجمين للملك من غلام يكون ضياع ملكه وهلاكه على يديه جاءت فى قصة موسى عليه السلام وتحقق الأمر بغرق فرعون فى حين أنه لم يؤثر أن الملك الذى عاصر إبراهيم عليه السلام قد هلك. ولعل الرواة أرادوا أن ينسبوا لمولد إبراهيم حدثاً خارقاً فوضعوا هذه الرواية.

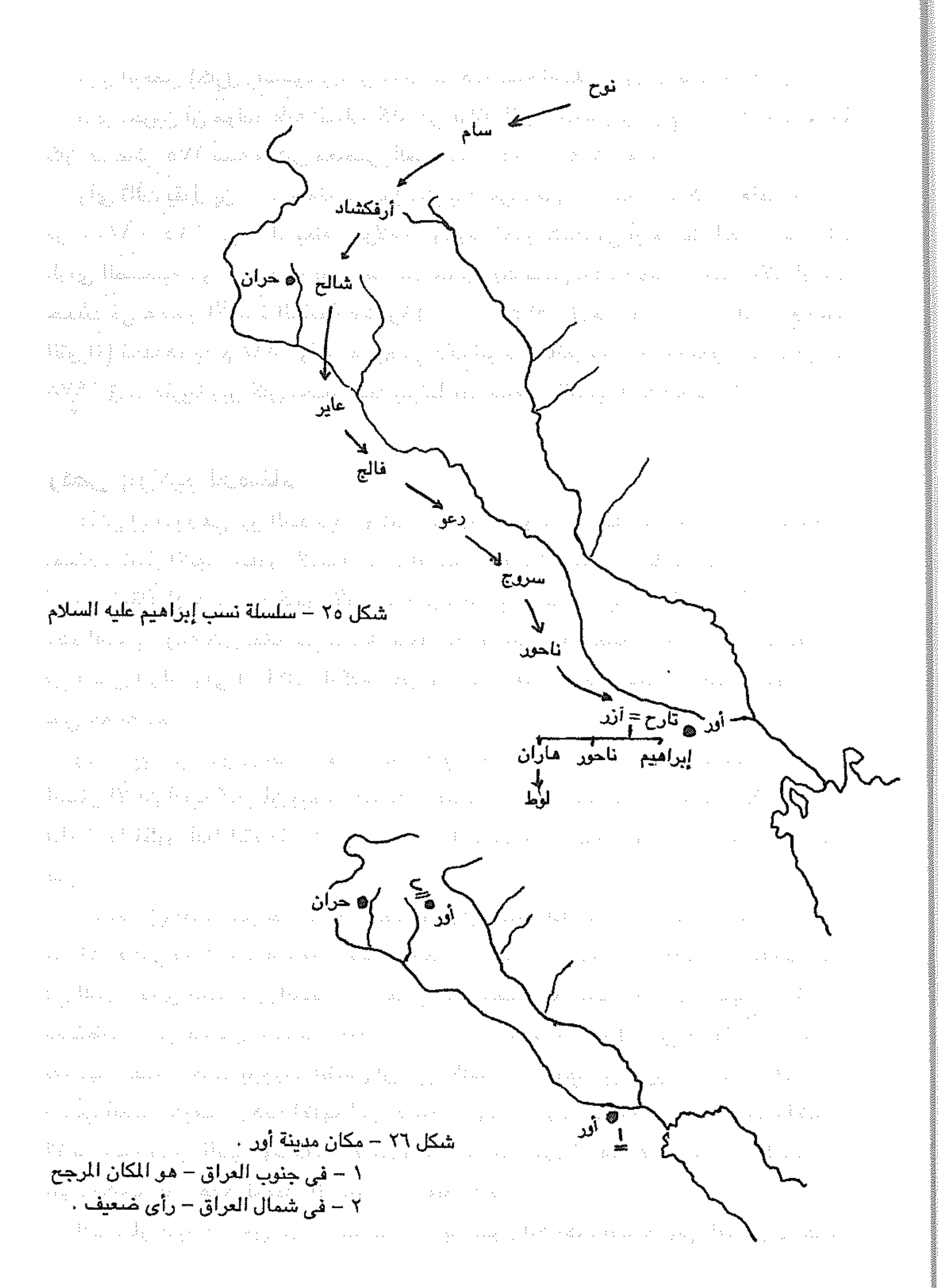
ليس من المستبعد أن يكون صحب مولد إبراهيم بعض الدلالات لما سيكون عليه شأن هذا الوليد فى المستقبل. ولكن ليس بهذه الطريقة التى ذكرت آنفاً. ويقال إن الطقوس التى كان يجريها الكهنة لإعادة تتويج الملك كل عام فى المعبد الكبير فى رعاية الآلهة. حدث بها بعض الخلل مما اعتبره الكهنة فألا سيئاً ونذيراً بحدوث شئ خطير فى المستقبل متعلقاً بآلهتهم وبالملك أيضاً!!

مكان ووقت ولادته :

أرجح الأقوال أن ولادته كانت فى مدينة «أور» ومكانها حالياً تل المقير - على الضفة الجنوبية لنهر الفرات، حوالى ١٥٠ كيلو متراً غربى البصرة (شكل ٢٥) وتسمى فى التوراة «أور الكلدانيين».

رأى آخر يضع أور فى شمال العراق إلى الشرق من مدينة حاران (شكل ٢٦). ويأخذ بهذا الرأى الدكتور محمد بيومى مهران.

والرأى الأول - القائل بأن أور فى جنوب العراق هو الأرجح إذ وجود عشرة أجيال بين نوح وإبراهيم عليهما السلام (شكل ٢٤) يجعل الإرتحال من شمال العراق إلى جنوبه. وهى مسافة تقدر بألف كيلو متر أمراً معقولاً. أما لو كانت أور فى شرق حاران بعشرة أو عشرين كيلو متر لكان معنى ذلك أن الذرية لم ترتحل وظلت فى مكان واحد وهو أمر غير مقبول.



شكل ٢٥ – سلسلة نسب إبراهيم عليه السلام

شكل ٢٦ – مكان مدينة أور .
١ – فى جنوب العراق – هو المكان المرجح
٢ – فى شمال العراق – رأى ضعيف .

يرى البعض (كارل راسموسن) أن مولد إبراهيم عليه السلام كان فى سنة ٢١٧٥ ق.م.

يرى آخرون أن مولده عليه السلام كان فى أوائل القرن العشرين ق.م. أى ٢٠٥٠ ق.م. ولما كان قد عاش ١٧٥ سنة فيكون معاصراً للفترة من ٢٠٥٠ - ١٨٧٥ ق.م.

رأى ثالث يقول إن عصره متأخر عما ذكر بما يقرب من ١٥٠ سنة. فيكون معاصراً للفترة من ١٨٠٠ - ١٦٢٥ ق.م. إذ يعتقد هؤلاء أن زيارته لمصر كانت فى أيام حكم الهكسوس. ولكن الرأى الصحيح هو أن زيارته لمصر سبقت حكم الهكسوس بمدة طويلة. وأرجح الأقوال أنها حدثت فى عصر الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٨٧٥ ق.م.). وكثير من المراجع (منها التوراة) تحددها بعام ١٨٩٨ وكان عمره فى ذلك الوقت ثمانين سنة. وعليه يكون مولده فى عام ١٩٧٨ ق.م. تقريباً وإن كان تحديد سنة بعينها أمر صعب بالنسبة لهذا الماضى البعيد.

رفض إبراهيم للأصنام :

عاش إبراهيم فى أور الكلدانيين، وكان أبوه (تارح أو آزر) نحاتاً ماهراً ذاع صيته، وكان يصنع تماثيل الآلهة. ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار إن ملك بابل أرسل فى طلبه ليصنع تمثالاً للإله مردوخ كبير الآلهة. ويقول أيضاً إن ناحور - جَدّ إبراهيم - كان أبرع من تعلَّم التنجيم. وأنه كان ينظر فى كبد شاه مذبوحة ليستطلع المستقبل (انظر ص ٣٧) ويقال أنه فى إحدى المرات رأى أن الآلهة انكفأت على وجوهها، ففزع، ولكن عاد إليه إيمانه بقدرة آلهته على حماية نفسها.

وكبر إبراهيم، ورأى أباه وهو يصنع تماثيل الآلهة فى براعة ويشكل الخشب على هيئة إنسان إلاً أن أذنيه كبيرتان ويحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش. ويقال إنه سأل أباه: لماذا تكون أذنا التمثال كبيرتين، وكان الجواب أن الأذنين الكبيرتين ترمزان إلى فهم عميق!!

وعايش إبراهيم مراحل صنع التماثيل ورأى كيف أنه أحياناً ينشق الخشب وينكسر التمثال فيلقى به والده جانباً وقد يستعمله كوقود للنار، ويصنع غيره. ولعله كان يقوم أحياناً فى الليل فيرى الجرذان والحشرات تمشى على وجوه التماثيل وتدخل أعينها وآذانها ولا تستطيع أن تردها عن نفسها. ولعله تعجب - من هذه التماثيل التى لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئاً - كيف يرجوها الناس أن تلبىِّ طلباتهم - وكيف يركعون ويسجدون لها. ولعله تعجَّب أيضاً. كيف أن هذه الآلهة التى لا تتنفس ولا تتحرك، تَهَبُ الحياة والحركة والأنفاس للناس كما يدَّعى الكهنة ومادامت عاجزة عن الحركة وعن كل هذا فكيف يعتقد الناس أنها آلهة. وكيف تغيب هذه الحقيقة البسيطة عن عقول القوم!!

لقد كان قومه - من بين ما يعبدون - يعبدون الكواكب أيضاً. وفى الليل رأى كوكب

المشترى أو الزهرة، وساءل نفسه، هل هذا هو الإله كما يدَّعى قومه؟ ولكن بعد عدة ساعات غاب الكوكب ولعله تساءل – هل كان هذا الكوكب يستطيع أن يبقى فى السماء بدون أن يغرب؟ وكان الجواب لا. إذن فحركَتُه مُقَيَّدَة مرسومة. والإله يجب أن يكون حراً يفعل ما يشاء.

وفى ليلة أخرى رأى القمر. وكان القمر فى أوج تمامه. بدراً ونوره أسطع ما يكون. وساءل نفسه أيضاً. أيكون هذا هو الإله كما يدَّعى قومه ويرمزون له ويعبدونه؟ ولكن بعد ساعات غاب القمر أيضاً، ورآه فى بعض الليالى يصير هلالاً رفيعاً جداً لا يكاد يُرى ثم يصير بدراً، ثم يصغر ويتضاءل حتى يختفى. ورأى أن هذه الدورة تتكرر بانتظام على مدى الشهور. فعلم أن حركته مرسومة له، وليس حراً إن شاء طلع وإن شاء لم يطلع. وأيقن أنه أيضاً لا يصح أن يكون إلهاً. ثم فى النهار رأى الشمس. أكبر من القمر وضوؤها أقوى ولها حرارة شديدة وفكرَّ فى أنه لو كان أحد الكواكب هو الإله لوجب أن تكون الشمس. ولكنه رأى الشمس مالت إلى المغيب. واصفر ضوؤها ثم غربت وغاب ضوؤها. وكذلك رأى أنها تشرق فى مواعيد محددة لا يمكن أن تحيد عنها. فهى إذن مسيَّرة ومجبورة على ذلك لا تملك حرية فى شروقها أو غروبها فأدرك أنها أيضاً لا يمكن أن تكون هى الإله كما يدَّعى بعض قومه.

لقد حبا الله سبحانه وتعالى إبراهيم منذ صغره بنعمة رجحان العقل والرشد وحسن تمحيص الأمور للوصول إلى حقيقتها. وكان الله عالماً لما به من كمالات. وفيه كناية عن حفظ الله له:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين» . (٥١ – الأنبياء)

وأجال بصره فى السماء يتلمَّس الهداية والرشاد. وفى لحظة مشرقة تجلت له الحقيقة ونزل عليه وحى السماء يهديه إلى الله الواحد الأحد خالق الكون والسماء والأرض والكواكب والشمس والقمر.

لا ندرى كيف كان نزول الوحى على إبراهيم عليه السلام. هل تبدَّى له جبريل يملأ السماء ثم يضمه إليه كما فعل مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أم كان صوتاً يقول له: إننى أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعبدنى كما حدث مع موسى عليه السلام. المهم أن الوحى أخبره أن الله قد اختاره نبياً لهداية قومه.

«إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» . (٣٣ – آل عمران)

وهكذا اختاره الله نبياً.

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صِدِّيقاً نبيًا» . (٤١ – مريم)

ثم أصبح رسولاً إلى قومه كما كان نوح رسولاً.

«ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم» . (من الآية ٢٦ - الحديد)

لا ندرى كم كان عمر إبراهيم عليه السلام عند اصطفائه. ولكن القاعدة العامة هى أن النبى لا يُبعث حتى يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة.

«حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» . (من الآية ١٥ - الأحقاف)

وتبعاً لهذه القاعدة يكون الأرجح أن إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ أربعين سنة حين كُلِّف بالرسالة. خلافاً لما قد يظنه البعض من أنه بعث فى سن صغيرة. ويستدلون على ذلك بقول القرآن الكريم على لسان القوم:

«قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» . (٦٠ - الأنبياء)

ويروى ابن كثير حديث جرير بن عبد الحميد عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلاَّ شاباً والرأى هو أنهم ما قالوا ذلك لصغر سنه حقيقة. بل لتصغير شأنه بدليل أنهم قالوا بعد ذلك **«يقال له إبراهيم»** وهذا إمعان فى استصغار شأنه. مع أن المعروف أن أباه كان أشهر صانع لتماثيل الآلهة فى أور. بل لقد بلغ صيته كل أنحاء العراق وكلفه ملك بابل بصنع تمثال للإله مردوك. كما أن دعوة الرجل ذى الأربعين سنة تبلغ من القلب ما لا تبلغه دعوة الشاب أو الفتى.

وهكذا تم اصطفاء إبراهيم نبياً ورسولاً ليخرج قومه من الظلمات إلى النور. وكان أن بدأ بدعوة أهل البيت. ومن الطبيعى أيضاً أن يكون أول من يدعوه هو والده. وفى ظنه أنه سيكون أول من يلبى دعوته، إذ هو الذى يصنع الأصنام بيديه وينحتها من الحجارة أو من الخشب. ويحرقها إذا انكسرت أثناء الصنع. فلابد أنه يعرف فى قرارة نفسه أنها ليست بآلهة حقيقة ولكنه يجارى القوم فى معتقداتهم - إذ هى مصدر رزقه وثرائه. ذلك كان تصور إبراهيم حينما بدأ يدعو أباه إلى الإيمان بالله وحده وتلطَّف إبراهيم فى الدعوة فقال:

«إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً».

(٤٢ - مريم)

ولكن لم يجد استجابه من أبيه .

وبدأ يدعو القوم كلهم. ويذكر لهم أن هذه الأصنام لا تسمعهم ولا تنفعهم ولا تضرهم. واتخذ أسلوب السؤال الاستنكارى حتى تكون الإجابة إقراراً منهم بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر. ولكنهم لما رأوا أن الحجة ستقوم عليهم لو أجابوا. تهرَّبوا من الإجابة بأن قالوا إنهم وجدوا آباءهم يعبدونها وهم يتبعون آباءهم فى ذلك.

«واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون». (٦٩ – ٧٤ ، الشعراء)

وهنا جابههم بالحقيقة واضحة صريحة بأنه عدو لهذه الأصنام. وكان الناس يخافون أن يغضبوا الأصنام ظنا منهم أنها تقدر على إيذائهم. ولكنه – على الملأ – أعلن عداوته لهذه الأصنام. يقصد بذلك أن يوضح لهم أنه لا يخافها فهى لن تستطيع أن توقع به أى ضرر لأنها لا حول لها ولا قوة. وأن القوة لله رب العالمين. فهو الذى خلقه. ومادام قد خلقه فقد خلقهم أيضاً وهو خالق الكون كله. وذكر لهم أن الله قد هداه إلى الطريق القويم. كما أن الله هو الذى يُطعِمُ ويسقى. وإذا مرض المرء فالله هو الذى يشفيه، يقصد أن يقول لهم إن آلهتهم لن تسبب له مرضاً. وأنها ليست هى التى تسبب الأمراض للناس وليست هى التى تُرجَى للشفاء. لأن الله هو الذى يشفى. ثم ذكر لهم حقيقة لا يختلف عليها أحد وهى الموت. فلا أحد من البشر يدَّعى أنه هو الذى يميت. ومادام الله هو الذى يميت. فهو قادر على الإحياء مرة أخرى بالبعث يوم الدين.

«قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لى إلاَّ رب العالمين. الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين». (٧٥ – ٨١ ، الشعراء)

وفى تفسير هذه الآية قالوا إن ذكر «هو» قبل بعض الأفعال يدل على تأكيد نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى. لأن فى ظاهرها مخالطة لبعض أعمال من البشر. أما الأفعال التى ليس ليد البشر دخل ولا شبهة تدخل فيها . فهى لا تحتاج لتأكيد. فالخلق والإماتة والإحياء. لا يُشَك فى أنها كلها تحدث بأمر الله وحده أما الهداية والإطعام والشرب والشفاء فقد يكون لبعض الأفراد دور فى الهداية أو تيسير الطعام أو الشراب أو تقديم الدواء لشفاء مرض من الأمراض. ولكن ما هى إلاَّ وسائل فقط لإيصال رزق الله للعبد. فالطبيب يكتب الدواء ولكن الشافى هو الله. لذلك لزم التأكيد على أن هذه الأفعال فى ظاهرها للبشر دور فيها . إلاّ أن الله من وراء ذلك هو الفاعل الحقيقى، لذلك كان التأكيد بذكر هو أى الله فى حدوث هذه الأفعال.

ولم يجد إبراهيم آذاناً صاغية. حتى من أبيه وهو الأولى أن ينصره فقال مخاطباً له:

«إنى أراك وقومك فى ضلال مبين». (٧٤ – الأنعام)

ولكنه بالرغم من ذلك تتملكه عاطفة الأبوة فيدعو له قائلاً :

واغفر لأبى إنه كان من الضالين». (٨٦ – الشعراء)

ومرة ثانية سأل قومه سؤال استنكار – عن هذه التماثيل التى يعكفون لها أى يعكفون على

عبادتها. وكان جوابهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها. فقال لهم أنهم وآباءهم على ضلال واضح إذ يعبدون تماثيل لا تضر ولا تنفع. فسألوه: هل ما تقوله حق أم هو لعب وهزل. فقرر لهم أن ربَّهم هو رب السموات والأرض وهو الذى خلقها وفطرها وأنه يشهد على ما يقول:

«إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن. وأنا على ذلكم من الشاهدين». (٥٢ - ٥٦ الأنبياء)

وأراد أن يقيم عليهم الحجة ويجعلهم يصلون بأنفسهم إلى الإقتناع بأن هذه التماثيل وما ترمز إليه من الكواكب أبعد من أن تكون آلهة ويبطل قولهم بربوبية الكواكب. ولعلمه برسوخ هذه العبادة فى نفوسهم فقد شبُّوا ورأوا آباءهم يعبدونها. فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر لهم كلاماً يوهم كونه مسانداً لهم على مذهبهم. مع أنه كان كُلِّيَّةً مطمئناً بالإيمان.

وعلى ذلك فإنه لما رأى كوكب المشترى أو الزهرة يلمع نورها فى السماء أثناء الليل، ومجاراة لهم، وعلى سبيل الفرض، قال هذا ربى أو تهكُّماً. كأنه قال هذا هو الذى تدَّعون أنه ربى. ولما غرب الكوكب قال لا أحب عبادة إله يأفل ويغيب. ولما رأى القمر. قال نفس القول. ثم لما غرب قال إن الإله لا يصح أن يظهر ويغيب هكذا ولما رأى الشمس تبزغ قال إنها أحق بالعبادة لأنها أكبر وضوؤها أقوى. ولكنها غربت أيضاً، فلا يصح أن تكون ربًّا. وهكذا وصل بهم إلى النتيجة التى أرادها - وهى أن أيًّا من هذه الكواكب لا المشترى أو الزهرة ولا القمر أو الشمس يصح أن تكون آلهة لأنها تشرق وتغيب فى مواعيد محدَّدَة. فهى مُسخَّرة وتسير فى فلك لا تحيد عنه وليس لها إرادة فى أن تبقى فى السماء كما يحلو لها. وبهذا أقام الدليل على أنها لا تملك من أمرها شيئاً. فكيف تملك أن تدبِّر شئون العباد!

«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض. وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً. قال هذا ربى. فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى. فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكوننَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر. فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين». (٧٥ - ٧٩ الأنعام)

وذكر بعضهم أن ذلك كان قبل البلوغ وقبل اصطفاء الله له ولا يلزمه اختلاج شك. وكأن حديثاً دار فى نفسه أن هذه التماثيل لا يصح أن تكون آلهة - كما سبق أن ذكرنا - وهكذا أجال إبراهيم بصره فى الكون يتلمَّس الإله الحقيقى.

«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين». ولما وصل إلى هذه النتيجة.

«قال يا قوم إنى برئ مما تشركون» .

وتجلّت له الحقيقة. ناصعة واضحة فى ذهنه فتوجه إلى الله بقلبه.

«إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» .

وهكذا أقام عليهم الحجة فى بطلان ما يعبدون.

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون. إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين»

(٢٦ - ٢٧ الزخرف)

وأعاد إبراهيم الدعوة على أبيه وألح فى ذلك إشفاقاً عليه ورغبة فى أن يؤمن بالله.

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدِّيقاً نبياً. إذ قال لأبيه: يا أبت لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً. يا أبت أنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًا. يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًا». (٤١ - ٣٥ مريم)

ولنتأمل هنا جمال اللفظ القرآنى ورقته فى قوله «يا أبت» فلو قال «يا أبى» فهى تؤدى نفس المعنى ولكن يا أبت فيها استعطاف. وأكثر رقة وعذوبة وخاصة عند تكرارها .

ولكن أباه لم يستمع له ولم يؤمن. بل زجره وهدده بالرجم وطلب منه أن يبتعد عنه سالماً سوياً قبل أن يصيبه منه عقوبة.

«قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً». (٤٦ - مريم)

وكان رد إبراهيم على هذه الجفوة والتهديد بالرجم أن أبقى على صلة الرحم والبر بالآباء مهما فعلوا ومهما قالوا:

«قال سلام عليك. سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًا». (٤٧ - مريم)

وكان ذلك من إبراهيم مطابقاً لقوله الله تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

وقد أعاد إبراهيم الاستغفار لوالده مرة ثانية .

«واغفر لأبى إنه كان من الضالين». (٨٦ - الشعراء)

ومرة ثالثة طلب له الغفران - وذلك بعد بناء البيت الحرام فقال:

«ربنا اغفر لى ولوالدىَّ». (٤١ - إبراهيم)

وقال قتادة. ذُكِرَ لنا أن رجالاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله، إن من آبائنا من كان يُحْسِنُ الجوار ويَصِلُ الأرحام ويوفى بالذمم، أفلا نستغفر لهم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم، بلى، وإنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه. وعلى هذا فقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام وذلك إقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك. إلى أن نزل قوله تعالى:

«ما كان للنبىِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاَّ عن موعدة وعدها إياه. فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. إن إبراهيم لأواه حليم». (١١٣ - ١١٤ التوبة)

فكفوا عن الاستغفار لهم .

وظل إبراهيم يدعو قومه للإيمان بالله. ويكرر عليهم الدعوة وهم متمسكون بأصنامهم. وراحوا يخوِّفونه بأن أصنامهم وآلهتهم قد تصب عليه غضبها وتعاقبه وتؤذيه بسبب تسفيهه وتحقيره لها. فكان رده عليهم أنه لا يخاف أصنامهم. فهى لن تضره بشئ إلاَّ أن يكون الله قد قدَّره عليه. والأولى أنهم هم الذين يجب أن يخافوا لأنهم قد أشركوا بالله واتبعوا ما لم يأمر به الله. ولم يكن لهذه الأصنام من قوة أو سلطان عليهم أجْبَرتْهم على عبادتها. فهم الأجدر بالخوف وليس هو لو كان عندهم ذرة من عقل أو علم.

«وحاجَّه قومه. قال أتحاجُّونى فى الله وقد هدان. ولا أخاف ما تشركون به إلاَّ أن يشاء ربى شيئاً. وسع ربى كل شئ علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لَمْ ينزل به عليكم سلطاناً. فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون».

(٨٠ - ٨١ إبراهيم)

وأعاد إبراهيم عليهم الدعوة لعبادة الله. وذكرَّهم بأن ما يعبدونه ما هى إلا تماثيل يصنعونها وأكاذيب يخلقونها. ولعلمه أنهم قد يخافون أن تضرهم الأصنام وتضيِّق عليهم فى أرزاقهم إن كفروا بها، كما كان الكُهان يخوِّفونهم، أخبرهم أن هذه التماثيل لا تملك لهم رزقاً وأن الرزق عند الله وحده، وهو الوحيد الجدير بالشكر على نعمه ورزقه. وذكَّرهم مرة أخرى بالآخرة، حين يبعث الله الخلائق ويرجعون إليه فيحاسبهم على أفعالهم.

«وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون». (١٦ - ١٧ - العنكبوت)

ولكنهم لم يسمعوا لنصحه. فرأى أنه لا يقنعهم إلاَّ المثال العملى على أن هذه التماثيل لاتملك أن تنفعهم ولا تقدر أن تضرهم بل حتى لا تملك أن تدفع عن نفسها أذى يصيبها. وكان قد أضمر فى نفسه شيئاً.

وكان عيد من أعيادهم الدينية قد اقترب، وغُصَّت المدينة بالزائرين ليشهدوا هذا العيد ويقدموا القرابين للآلهة. وقال له أبوه: يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا. ويقال إنه اضطر للخروج معهم. فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه على الأرض وقال إنى سقيم. فمروا عليه وتركوه. حتى لم يبق إلاَّ نفر قليل من ضعفائهم. فقال تالله لأكيدن أصنامكم فسمعه بعضهم.

ويقال إنه لم يخرج معهم. فمروا عليه وقالوا يا إبراهيم ألا تخرج معنا. فنظر إلى نجم فى السماء وقال إن هذا النجم لم يطلع قط إلاَّ طلع بسقم لى. وتظاهر بالمرض فتركوه وعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى:

«فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين». (٨٨ – ٩٠ الصافات)

وفى الحديث الذى رواه ابن جرير. حدثنا أبو كريب أبو أسامة حدثنى هشام عن محمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال: لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلاَّ ثلاث كذبات: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله فى سارة هى أختى.

وهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من عدة طرق. ويقول ابن كثير. ولكن هذا ليس من باب الكذب الحقيقى الذى يُذَمُّ قائله. حاشا لله وكلاَّ. وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى ودينى. وكما جاء فى الحديث الشريف: إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب. فهو (أى إبراهيم) لم يشأ أن يشهد ضلالهم. وركوعهم وسجودهم لأصنامهم. فادَّعى السقم.

وكان من تقاليد احتفالاتهم أن يخرجوا من المعبد ويركب الملك والكاهن السفينة المقدسة. وتنساب السفينة على ماء النهر ومعها سفن الرؤساء وكبراء القوم. وعامة الناس على البر يهتفون بالدعوات والابتهالات.

وانتهز إبراهيم فرصة خلو المدينة من الجميع. وخرج من داره حَذِراً يترقب، حتى وصل إلى المعبد فدخله وكان خاوياً من الناس، ورأى التماثيل وفى وسطهم كبير الآلهة مردوخ وحوله تماثيل إنانا وشمس وعشتار وأوتو وإنليل وغيرهم. وقد وُضِعَتْ أمامهم أوانى النبيذ والخمور وطعامٌ كثير من القرابين التى يقدمها الناس. فرماهم إبراهيم بنظرة ساخرة :

«فراغ إلى آلهتهم، فقال ألا تأكلون، مالكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين».

(٩١ - ٩٢ الصافات)

وتناول فأساً وراح يضرب الأصنام ويحطمها حتى جعلها قطعاً صغيرة. وكان يضرب بكل قوته. وعبرّ عنها القرآن الكريم بالضرب باليمين لأن يمين المرء فيها قوة عن اليد اليسرى. وقال بعضهم إن معنى اليمين أن الضرب كان براً بقسمه وهو اليمين إذ قال: **«تالله لأكيدن أصنامكم»**. المهم أنه كسَّر جميع الأصنام إلاَّ تمثال الإله مردوخ لأنه كان ينوى أن ينسب تكسير الأصنام للصنم الأكبر. فإن صدَّقوا ذلك كان معناه أن الآلهة الأخرى لم تستطع أن تدفع عن نفسها الأذى، وهذا عجز منها. وإن نفوا عن الصنم الأكبر أنه قادر على فعل ذلك، كان هذا دليلاً على عجزه.

وهكذا أتم إبراهيم تكسير الأصنام وبرَّ بِقَسَمه.

«وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين، فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون». (٥٧ - ٥٨ الأنبياء)

وعاد القوم إلى معبدهم، ودخل الكهنة، فهالهم ما رأوا وما حل بآلهتهم، وسألوا: من فعل هذا بآلهتنا. وأدلى النفر الذين سمعوا إبراهيم وهو يهدِّد بالكيد لأصنامهم بما سمعوه للكهنة، فأحضروا إبراهيم، وأرادوا أن يجعلوا المحاكمة علنية يشهدها كل الناس ظناً أنهم سينتصرون لآلهتهم. ويكون ذلك داعياً لمزيد من إيمان الناس بهم، وتأكيداً أيضاً لسلطانهم. ولكن فى مجادلتهم ألزمهم الحجة وأسكتهم بالبرهان وجعلهم يعترفون بأن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تنطق، وهنا استنكر منهم أن يعبدوا مالا ينطق ولا يسمع ولا يستطيع دفع الأذى عن نفسه وبالتالى فلا يقدر أن ينفع الناس أو يضرهم :

«قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين .

قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم .

قال بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رؤوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون». (٥٩ - ٦٧ الأنبياء)

وهكذا استدرجهم للإعتراف بعجز آلهتهم. وأنها لا تنفع ولا تضر. وأبدى تبرمه بقلة عقلهم لعبادتهم هذه الأصنام من دون الله.

وبدلاً من أن يؤمنوا له بعد أن وضح عجز آلهتهم وفساد العقيدة التى كانوا عليها. فإنهم تشبثوا بآلهتهم وعملوا على نصرتها. فألقى القبض على إبراهيم. وكان البعض يرى قتله والبعض يرى إحراقه. فالقتل عقاب صارم وفورى. والجزاء الفورى له وقع أليم ودوى رادع. أما من اقترحوا الإحراق فقد رأوا فيه تعذيباً بطيئاً. فهو أشد إيلاماً. وأكثر ردعاً لمن تسول له نفسه المساس بآلهتهم.

«فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه». (٢٤ – العنكبوت)

ولكن استقر رأيهم فى آخر الأمر على إحراقه.

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين». (٦٨ – الأنبياء)

محنة الإحراق :

«قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم». (٩٧ – الصافات)

وبدأ إعداد المحرقة. فحفروا حفرة عظيمة ثم بنوا حولها بنياناً مرتفعاً وملأوها بالحطب الكثير.

ومن المبالغات التى قيلت فى جمع الحطب، ما قالوه من أن المرأة كانت تمرض فتقول لئن عافتنى الآلهة لأجمعنَّ حَطَباً لإبراهيم. وكانت المرأة تَنْذُرُ لئن تحقق ما تطلب لتحتطبنَّ حَطباً وتجعله فى النار التى يحرق فيها إبراهيم احتساباً فى دينها.

وقال ابن اسحق، ظلوا يجمعون الحطب شهراً، حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار فى الحطب من كل ناحية، فاشتعلت النار حتى أن كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها. ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان. وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقاً، ووضعوه فيه مُقَيَّداً مغلولاً. فضجَّت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق وقالوا أى ربَّنا، ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم يُحرَق فى النار فأذن لنا فى نصرته. فقال الله تعالى لهم: إن استعان بشئ منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم فى ذلك. وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به. وأنا وليُّه، فخلوا بينى وبينه. فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه ملك المياه فقال إن أردت أخمدت النار فإن خزائن المياه والأمطار بيدى. وأتاه خازن الريح فقال إن شئت طَيَّرتُ النار فى الهواء فقال إبراهيم عليه السلام لا حاجة لى إليكم. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد فى السماء والأرض. ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى. قال الله عز وجل يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم.

وروى المعتمر عن أبى كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال: لا إله إلاَّ أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك. ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا. قال جبريل: فاسأل ربَّك. فقال إبراهيم عليه السلام: حسبى من سؤالى علمه بحالى. حسبى الله ونعم الوكيل. فقال الله عز وجل «يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم».

وقال السدى كان جبريل عليه السلام هو الذى ناداها بأمر الله تعالى. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها ولم يبق حينئذ نار فى الأرض إلاَّ طَفِئَتْ. قال كعب الأحبار وروى قتادة والزهرى ولما انتفع أحد فى الأرض يومئذ بنار. ولم تحرق النار شيئاً إلاَّ وثاق إبراهيم.

وهنا يروى بعض المفسرين حكايات: يخالطها بعض أو كثير من الخيال ظنًّا منهم أنها تزيد قدرة الله توكيداً عند بعض السامعين.

قال السدى. أخذت الملائكة إبراهيم وأقعدته على الأرض، فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس. فأقام إبراهيم فى النار سبعة أيام وقال المنهال بن عمرو. قال إبراهيم خليل الله ما كنت قط أنعم منى عيشاً فى الأيام التى كنت فيها فى النار.

وقال ابن اسحق وغيره: وبعث الله ملك الظل فقعد فى النار إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال لإبراهيم إن ربك يقول لك أما علمت أن النار لا تضر أحبائى، وألبسه القميص.

وأغرب ما قاله بعض المفسِّرين – وما لا يصدقه العقل – أن أمه نظرت إليه فى النار، فطلبت أن تجئ إليه على أن يدعو الله ألا يضرها شئ من حر النار. ففعل فذهبت إليه واعتنقته وقبلته. والأغرب من هذا أن بعضهم جعل هذه المرأة هى ابنة الملك. وأن إبراهيم فيما بعد زوجها من ولده مدين. وأنها أنجبت له عشرين بطناً من الأنبياء!!

ولعل من وضعوا هذه الروايات ظنوا أنها تزيد من اقتناع البسطاء بقدرة الله تعالى. ولكنها قد تؤدى إلى العكس. إذ تثير الشك فى النفوس وقد أوردناها هنا لطرافتها ولوضوح زيفها الذى لن يخفى على القارئ. فمن المعروف أن مدين هو أحد أبناء إبراهيم من قنطورة التى تزوجها بعد وفاة سارة وكان عمر إبراهيم حينئذ حوالى ١٤٧ سنة. أى بعد حادثة إحراقه بـ ١٣٠ سنة. ونضيف إليها ٢٠ سنة أخرى حتى يبلغ ابنه مبلغ الرجال ليتزوج من واحدة تكبره بـ ١٥٠ سنة! إن كانت لاتزال على قيد الحياة!!

وقال ابن اسحق: ثم أشرف الملك من صرح عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك. فرآه جالساً فى روضة. ورأى المَلَك قاعداً إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب. ونادى إبراهيم وقال له: يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك. فهل تستطيع أن تخرج منها؟ قال نعم. قال فقم فاخرج منها. فقام إبراهيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها. فلما خرج إليه قال يا إبراهيم من الرجل الذى رأيت معك قاعداً إلى جنبك؟ قال مَلَكُ الظل أرسله إلىَّ ربى ليؤنسنى فيها. فقال يا إبراهيم. إنى مُقرِّبُ إلى إلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته. إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال إبراهيم. لا يقبل الله منك شيئاً ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى، فقال يا إبراهيم لا أستطيع ترك مُلكى. ولكن سوف أذبحها له. فذبحها وقرَّبها قرباناً. ومنع العذاب عن إبراهيم. ثم إنه قال لإبراهيم: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وقيل إن إبراهيم ظل فى النار أياماً حتى خمدت. لم يصبه منها شئ غير العرق على وجهه. ولما انطفأت النار فوجئوا به يخرج من الحفرة سالماً.

«فأنجاه الله من النار. إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون». (٢٤ – العنكبوت)

«وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين». (٧٠ – الأنبياء)

«فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين». (٩٨ – ٩٩ الصافات)

واستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عزَّ وجل من حمايته من النار. وكان لوط ابن أخيه هاران قد آمن به.

«فآمن له لوط. وقال إنى مهاجر إلى ربى. إنه هو العزيز الحكيم». (٢٦ – العنكبوت)

بعد هذه المحنة. وخروجه سالماً من النار بفضل الله تعالى تأكد إبراهيم من أنه لن يؤمن له غير النفر القليل الذى آمن. فقرر أن يعتزلهم.

«واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا».

(٤٨ – مريم)

واتخذ إبراهيم زوجة هى سارة واتخذ أخوه ناحور زوجة اسمها ملكة وخرج إبراهيم مهاجراً من هذه القرية الظالم أهلها. خرج هو وزوجته سارة. وأخوه ناحور وزوجته ملكة. وأخذ معه والده تارح أو آزر. وأخذ أيضاً لوطاً ابن أخيه هاران. وكان هاران قد توفى فى أور قبل أن يبرحوها. وخرج معه كذلك النفر القليل الذين آمنوا به ذلك أنهم لم يأمنوا أن يغدر بهم بعض رجال الملك أو الكهنة. وإن كان الملك نفسه قد أعطاه الأمان.

ينكر البعض أن أبا إبراهيم قد هاجر معه اعتماداً على أن والد إبراهيم لم يكن من المؤمنين وظلَّ على كفره حتى مات.

ولكن إذا تذكرنا وقع تكسير آلهة القوم. فهذا فى نظرهم كبيرة الكبائر وكان الجزاء عليها هو القتل أو الإحراق. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نجى إبراهيم من الحرق واقتنع الملك بأن رب إبراهيم يحميه ولن نقول إنه آمن سراً. بل نقول لعله خاف إن آذى إبراهيم أن يحيق به شرٌ مَا. لذلك تركه يبرح الأرض فى سلام. فأغلب الظن أن إبراهيم لم يكن ليأمن أن يترك أباه خلفه خوفاً من انتقام بعض المتعصبين الذين لابد ساءهم أن ينجو إبراهيم من العقاب فلعلهم يُنَفِّسُون عن غضبهم بقتل والده أو إيذائه. لذلك فقد أخذه معه. ولعله أيضاً لم ييأس من لحظة ينشرح فيها قلبه للإيمان فيؤمن. وكان إبراهيم عليه السلام لا يمل من تكرار دعوته للإيمان كما كان يدعو له بالهداية.

من الملك الذى أمر باحراق إبراهيم عليه السلام؟

وردت محنة إحراق إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم. ولا ندرى السبب الذى جعل كُتَّاب التوراة لا يذكرون شيئاً عنها إطلاقاً. فكل ما جاء بها عن فترة بقائه فى أور (التوراة. إصحاح ١١ تكوين) هو:

إن تارح ولد أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه فى أرض ميلاده أور. واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين. اسم امرأة أبرام ساراى واسم امرأة ناحور ملكة. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ومات تارح فى حاران. وكانت أيام تارح ٢٠٥ سنة.

لم تذكر كتب التفسير الإسلامية شيئاً عن الملك الذى كان معاصراً لهذا الحدث. وجاء فى تفسير الألوسى:اسم الشخص الذى أشار بحرق إبراهيم. فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد قال. تلوت هذه الآية **«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم»** على عبد الله بن عمر فقال: أتدرى يا مجاهد من الذى أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلت: لا قال: رجل من فارس وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض. فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقالوا اسمه هيون. وقيل هدير. وقيل هو شخص من الأكراد. وبذلك قال ابن كثير فى تفسيره وإن قال إن اسمه هيزن. والوحيد الذى تعرض لاسم الملك هو الثعلبى فقال إن اسمه نمرود وأنه هو الذى كان يحكم المدينة فى ذلك الوقت (عرائس المجالس الثعلبى ص ٨٦) وكما سبق أن قلنا فى الجزء الأول ص ٢ أن كتب التاريخ لا يوجد بها ملك حكم العراق إسمه نمرود.

وللتذكرة بتاريخ العراق فى هذه الفترة نعود القهقرى قرنين من الزمان فنجد أن جنوب العراق كان به عصر بداية الأسرات السومرى وظهرت دويلات المدن وكان دويلة لجش أقواها

فبسطت نفوذها على باقى الدويلات ثم جاء الأموريون وسيطروا على جنوب العراق فى ما سمى بالعصر الأكدى فى الفترة ٢٣٤٠ - ٢٢٣٠ ق.م. ثم جاء الأشوريون وكان أشهر ملوكهم هو سرجون الأول (صفحة ١٧) الذى بسط نفوذه على العراق كله تقريباً. ثم كانت غارات الجوتيين من الشمال فأضعفت دولة آشور وهو ما سمح لدويلات الجنوب بالاستقلال وسُمِّى ذلك بعصر الإحياء السومرى. واستقلت دويلات الجنوب السومرية مثل لجش وأوروك. ودويلة «أور» وهى ما تهمنا حيث كانت بها محنة إحراق إبراهيم عليه السلام. وكان استقلال دولة أور ونهضتها بداية لأسرة أور الثالثة. وقد أسسها ملك إسمه **«أورنمو»** ثم تولى الحكم بعده ولده **«شولجى»** وقد حكم شولجى Shoulgi فترة طويلة بلغت ٥٠ عاماً (انظر الجدول صفحة ٦٧) وتميزت الفترة الأولى من حكمه بقيامه ببناء كثير من المنشئات الدينية وبناء معابد للآلهة. وأعاد إلى المدن السومرية والأكدية المعبودات التى كانت رُفعت منها (د. نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٥ ص ١٦٤) وتميز النصف الثانى من حكمه بكثرة الحملات الحربية فاقتطع أجزاء كبيرة من دولة عيلام فى الشرق وتزوج من إحدى بنات ملكها. واستولى على دويلات الجنوب كلها.

وقد أطمعه هذا النجاح وطول مدة حكمه. وما وصل إليه من سلطان ونفوذ فكأنما اغتر بنفسه. وذكرت نقوش كتبت فى عهده أن الإله اختاره بنفسه كاهناً أكبر للمعبودة «إنانا» وكتب هو عن نفسه فقال: أنا الملك. كنت بطلاً فى بطن أمى. أنا شولجى صاحب البأس منذ مولدى أنا أسد ثاقب البصر. ابن مارد. أنا ملك أركان الدنيا الأربعة. أنا بطل. أنا رب البلاد كلها. أنا شولجى الملك القدير. أخضعت البلاد الثائرة. وكفلت الأمان لشعبى. شولجى الذى توافر له بأس السماء والأرض ولم يكن له مثيل. شولجى الذى رعاه رب السماء. ثم ازداد اغتراراً بنفسه. فعمل على أن يؤلَّه. فبنيت له المعابد وقدمت القرابين لتماثيله عند ظهور الهلال الجديد وعند اكتمال القمر. وأدخل اسمه فى أسماء الأفراد مثل:

شولجى إيلى بمعنى شولجى إلهى.

شولجى بانى بمعنى شولجى خالقى.

هذا الملك الذى ملأه الغرور وتلبسه جنون العظمة - هو الذى كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ويمكننا أن نفهم سبب رفضه لدعوة إبراهيم. ولما كسَّر إبراهيم عليه السلام الأصنام كان هو الذى أمر بإحراقه فى النار.

تقول الكتب إن شولجى فى أخريات أيامه استولى على ذخائر أحد المعابد فى مدينة إريدو المجاورة. وهذا التصرف إن دل على شئ فإنما يدل على أنه لم يعد يخشى من انتقام هذه الآلهة. ويؤيد ما ذهبنا إليه من أنه هو الذى كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ورأى أن إبراهيم كسَّر الأصنام ولم ينله أى أذى. ومن هنا كانت جرأته فأخذ الذخائر من معبد مدينة إريدو.

هجرة إبراهيم عليه السلام :

يصور بعض الكتاب (حبيب سعد، خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٨) هجرة إبراهيم عليه السلام على أنها كانت لأسباب اقتصادية، فيقولون إن شهرة بابل قد طغت على أور فبارت تجارة أور وباتت الحياة فيها غير مستقرة ومن هنا رحل إبراهيم من أور إلى حاران. وتقول تعليقات بعض المستشرقين (أبنجدون) (دراسات تاريخية من القرآن الكريم د. بيومى مهران ١٩٩٥، جزء أول ص ١٢٧ - ١٢٨) أنه ربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنوب العراق أصابت جرائره معيشة أهل أور فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى أور. وبهذا قال أيضاً الأستاذ عباس العقاد (إبراهيم أبو الأنبياء، عباس العقاد ص ٦٢) بينما يرى آخرون أن هجرة إبراهيم عليه السلام تتصل اتصالاً وثيقاً بالأحداث التاريخية التى كانت سائدة فى جنوب بلاد الرافدين وهى مرحلة شهدت عدة تحركات بشرية (د. رشيد الناضورى، المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى ص ١٧٣).

وجميع هذه الآراء مردود عليها بأن هجرة إبراهيم عليه السلام كانت هجرة أسرة واحدة: هو وزوجته ووالده، ولوط ابن أخيه وزوجته، فهى ليست هجرة جماعية تدل على اضطراب سياسى أو سوء أحوال إقتصادية.

وهذه الأسباب التى أوردها - بالرغم من عدم موافقتنا عليها - فإنها تؤيد ما ذهبنا إليه من أن أور تقع فى جنوب العراق، إذ لو كانت فى شمال العراق قريباً من حاران، كما قالوا لشملت الظروف السياسية أو الاقتصادية المدينتين معاً ولأصبحت الهجرة من أور إلى حاران غير ذات معنى وغير مجدية.

وعلى كل حال، فإن هجرة إبراهيم عليه السلام من أور، بعد محنة إحراقه كانت لأسباب دينية، فهو نبى ورسول، ورأى أن أور لم تعد صالحة لتقبل دعوته، فرأى أن ينشر الدعوة فى غيرها وطبعاً لم يكن ذلك إلاّ بوحى من الله سبحانه وتعالى.

«وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم» (من آية ٢٦ - العنكبوت)

كان من الطبيعى بعد هذه المحنة، ونجاته من النار فى أور، أن يقصد مدينة أخرى لعل الناس هناك يتقبلون دعوته بصدر أكثر رحابة، فكان الارتحال شمالاً إذ يلى أور جنوباً صحراء الجزيرة العربية وهى جرداء قاحلة، وقال إنى مهاجر من قومى إلى ربى أى إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها - إلى أرض أدعو فيها إلى الله ولا يمنعنى أعدائى لأن الله هو مولاى وهو العزيز الحكيم.

وشكل ٢٧ يبين طرق القوافل فى المنطقة، وكان هناك طريقان يوصّلان من أور إلى حاران.

الطريق أ . يتجه من أور شمالاً ليعبر نهر الفرات ويصل إلى نهر دجلة بعد أن يمر بمدينة لجش ثم يتابع السير إلى أشور مروراً بأشتونا ثم إلى نينوى وهى ملتقى طرق هام فى شمال شرق العراق. ويتفرغ منها طرق إلى أرمنية وإلى تركيا – وغرباً إلى حاران. وطول هذا الطريق حوالى ٦٧٠ ميلاً أى ١١٠٠ كم تقريباً.

الطريق ب . يتجه من أور شمال غرب ليعبر نهر الفرات. ويصل إلى بابل مروراً بمدينة أوروك الهامة. ثم يتابع سيره على الضفة الغربية للفرات حتى يصل إلى مارى. وعند التقاء نهر البليخ بالفرات يتجه شمالاً حتى يصل إلى حاران. ويبلغ هذا الطريق ٦٣٠ ميلاً أى حوالى ١٠٠٠كم.

ولعل إبراهيم عليه السلام كان حريصاً على المرور على أكبر عدد من مدن هذه المنطقة يدعو الناس إلى عبادة الله. وشكل ٢٨ يبين مانراه طريقاً اتخذه إبراهيم عليه السلام فى مسيرته مهاجراً إلى ربه.

سبق أن ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام بُعث لما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة. ولعله أمضى خمس عشرة سنة على الأقل يدعو قومه إلى عبادة الله. فرسولنا صلى الله عليه وسلم قد أمضى ثلاث عشرة سنة فى مكة قبل أن يقرر الهجرة إلى يثرب لذلك فإن خمسة عشر عاماً هى مدة معقولة يقضيها إبراهيم عليه السلام فى الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبتقديم الأدلة والبراهين العقلية قبل أن يلجأ إلى إجراء عنيف يوقظهم من غفوتهم وهو تكسير الأصنام وكان هذا الإجراء كأنه إعلان للحرب. فكانت محنة إحراقه وخروجه سالماً من النار. وكان قد بلغ من العمر إذ ذاك ٥٥ عاماً.

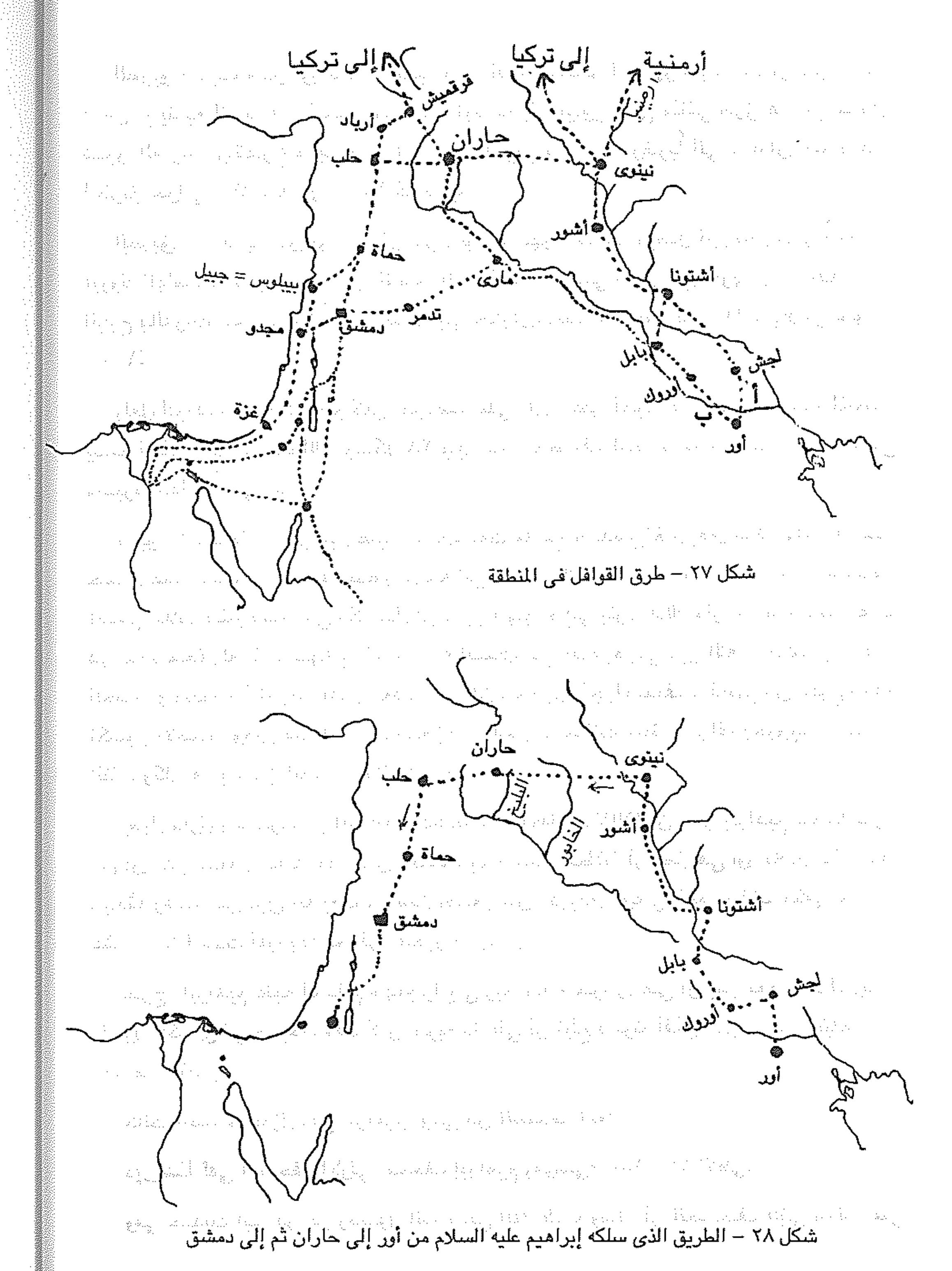
يقول كارل راسموسون (NIV . Atlas of the Bible, page 76) إن عمر إبراهيم حينما خرج من أور كان سبعين عاماً. وهو سن متأخر. إذ لا يبدو منطقياً أن يظل فى أور ثلاثين عاماً بعد مبعثه وهناك من يرى أنه بعث فى سن أصغر من الأربعين. وعلى العموم فإنه يكفى خمسة عشر عاماً لتحدث المواجهة ثم يقرر الخروج من أور.

خرج إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه. ولعله حرص على أن يمر بعواصم الدويلات والدول الكبرى فى طريقه. فقد كان حريصًا على أن تبلغ دعوته آفاق الأرض. وأن تبلغ أكبر عدد من الناس.

كانت الصحف تنزل على إبراهيم. وهى من الصحف الأولى.

«إن هذا لفى الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى» (١٨ – ١٩ الأعلى)

وفى حديث أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحف التى أنزلت على



شكل ٢٧ – طرق القوافل فى المنطقة

شكل ٢٨ – الطريق الذى سلكه إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران ثم إلى دمشق

إبراهيم عليه السلام كانت عشراً. ولابد كان فى هذه الصحف بالإضافة إلى الدعوة إلى الله – كان فيها ما يُصلح أحوال الناس فى الدنيا وتنظيم معاملاتهم فيما بينهم. والحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق. والطريق إلى تكوين أسرة صالحة بحسن معاملة الوالدين والعطف على الزوجة ورعاية الأبناء. وما من شريعة جاءت إلاَّ وفيها النهى عن السرقة وتحريم الربا والزنا والقتل وحددت عقوبة لكل جريمة كما أن الشرائع أيضاً توضح كيفية التصرف فى الميراث والتصدق على الفقراء والمساكين.

كل مكارم الأخلاق هذه كان يدعو إليها إبراهيم عليه السلام أينما حل بالإضافة إلى الدعوة لنبذ عبادة الأصنام والتوجه إلى الله وحده بالعبادة.

لا ندرى كم من القوم آمن به. ولكنهم على أى حال قد استفادوا مما جاء بتعاليمه فى إصلاح أحوالهم الدنيوية.

مر أولاً على لجش وكانت دويلة لجش كما قلنا من أكبر دويلات جنوب العراق. ثم مرّ على أوروك ثم وصل إلى بابل.

من المرجح أن بابل كان يحكمها فى ذلك الوقت الملك الشهير بقوانينه وهو «حمورابى»

وعلى كل حال فإن تحديد السنوات بالدقة فى هذه الأزمنة البعيدة يكاد يكون مستحيلاً. ويختلف المؤرخون فيما بينهم اختلافاً كبيراً. مثال ذلك فى تحديد فترة حكم الملك حمورابى فإن الدكتور عبد العزيز صالح (مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الأول ص ٥٢٧) يحدد لبدء حكمه عام ١٧٢٨ ق.م. وفى عرف أصحاب التاريخ المختصر بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٥٠ ق.م فى حين يرى الدكتور نجيب ميخائيل (مصر والشرق الأدنى القديم جزء ٦ الجدول الأخير) أنه حكم فى الفترة من ٢٠٠٣ – ١٩٦٠ أى بفارق زمنى حوالى المائتى عام!

وقس على ذلك فى تحديد تاريخ الأحداث كلها. إذ قد يبلغ الفرق بين مؤرخ وآخر من ١٠٠ – ٢٠٠ سنة. وعلى ذلك فلا بأس من أن نأخذ تاريخاً وسطاً بين ما يذكر فى كتب التاريخ المختلفة لنسترشد به فى تأريخ الأحداث التى نحن بصددها، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نضع الجدول الآتى ليبين التواريخ التقريبية للنصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام والأحداث التى كانت معاصرة فى أور وبابل ومصر.

فى بابل :

سبق أن تكلمنا ص ١٤ عن بابل ونشأتها وسبب تسميتها وكيف زادت قوتها وانضمت إليها الدويلات التى من أصل سومرى وفى النهاية اتحدت سومر وأكد (الأموريون الأكديون)

تحت تاج واحد وكونتا دولة بابل (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٣ ص ١٣١) وأصبحت دولة بابل مركز إشعاع ضخم للحضارة منذ الألف الثانى قبل الميلاد وخاصة فى عهد سادس ملوكها وهو حمورابى.

بدأ حمورابى حكمه بمجابهة خطر عيلام فى الشرق واسترد الدويلات التى كانت قد احتلتها واستولى على دويلات الجنوب كلها بما فيها لارسا الموالية لعيلام حيث أن أغلب سكانها من أصل عيلامى. وضم أشور ونينوى ودويلة مارى. وانتقل مردوك من إله مدينة إلى مركز الصدارة بين الآلهة إذ أصبح المعبود الرسمى لبابل وأضيفت إليه الصفات التى كانت للإله «إنليل» وأدخله الكهنة فى أسطورة الخلق زيادة فى تعظيمه. وكان السومريون فى ذلك الوقت شعباً يحتضر وبدأت لغتهم فى الاختفاء التدريجى. ولم يكن من الممكن أن يختفى «إنليل» مرة واحدة. فجعلوا مردوك ابناً له. وروَّجوا أسطورة مفادها أن «مردوك» بفضل شجاعته يتقدم لينقذ قدامى الآلهة حينما يتهددهم الخطر بذلك أصبح فى مركز أقوى منهم.

أتاح الاستقرار السياسى الفرصة لحمورابى لكى يجمع التشريعات التى كانت موجودة فى بابل وما حولها من المدن فجمعها فى قانون واحد وهو المشهور بقانون حمورابى وسجلها على عدة لوحات ونصب. وكان فى معبد مردوك ببابل نصب حجرى كبير من الديوريت جمع بين شكل اللوحة وشكل المسلة وكان ارتفاعه ٢٢٥ سم وعرضه من أسفل ١٩٠سم وعرضه فى أعلاه ١٦٥سم. وظهر الملك فى جزئه العلوى يتلقى السلطة والإذن بإصدار تشريعاته من رب الشمس والعدل «شمس» بتاجه ذى القرون والأشعة التى تخرج من كتفيه. ونقشت الكتابة بخط مسمارى دقيق.

كان الظن أن تشريعات حمورابى هى الأولى من نوعها فى العراق القديم ولكن تأكد وجود تشريعات سبقتها فى «أور» و «إسين» و «أشتونا» وإصلاحات «لجش». والتشريعات التى وجدت فى إيسن، أو أسين تسمى قانون «لبت عشتار» وهو خامس ملوك أسرة إيسن ويبدؤها قائلاً:

أنا لبت عشتار الراعى المتواضع للإله «أنو» أب الآلهة العظيم و «إنليل» ملك الأراضى. ملك إيسن وسومر وأكد. أقررت العدالة فى سومر وأكد طبقاً لكلمة «إنليل». وجعلت الأب يسند بنيه والأبناء يسندون أباهم. ثم تستمر الشريعة فى سرد موادها (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٦ ص ٤٩ ، ٥٨).

أما قانون حمورابى فيبدأ قائلاً :

أنا البذرة العتيدة للملكية. الملك القوى شمس بابل. الذى يجعل الضوء يندفع فوق أراضى سومر وأكد. الملك الذى أخضع أنحاء المعمورة الأربعة. أنا محبوب «إينانا». حين أرسلنى

جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحـــداث
امنمحيت الأول			١٩٧٨	٠	مولد إبراهيم عليه السلام فى أور
١٩٧٠ سنوسرت الأول (٣٤سنة)			١٩٦٨	١٠	
		١٩٦٠ شولجى (حكم ٥٢ سنة)	١٩٥٨	٢٠	
			١٩٤٨	٣٠	
			١٩٣٨	٤٠	مبعثه
١٩٣٦ أمنمحيت الثانى (٣٢ سنة)					١٥ عاماً دعوة
			١٩٢٣	٥٥	
			١٩٢٢	٥٦	محنة إحراقه
			١٩٢١	٥٧	تركه لمدينة أور
			١٩٢٠	٥٨	فى لجش
			١٩١٩	٥٩	فى أوروك
			١٩١٧	٦١	فى بابل والمحاجة
			١٩١٣	٦٥	فى أشور
	١٩١٠ حمورابى (حكم ٤٣ سنة)		١٩١١	٦٧	فى نينوى
١٩٠٤		١٩٠٨	١٩٠٨	٧٠	الوصول إلى حاران
سنوسرت الثانى (١٦سنة)			١٩٠٣	٧٥	مغادرة حاران
			١٩٠٢	٧٦	فى حلب
			١٩٠١	٧٧	فى دمشق
			١٩٠٠	٧٨	فى حبرون
			١٨٩٨	٨٠	زيارة مصر – سارة عمرها ٧٠سنة
			١٨٩٦	٨٢	فى مدينة أون
			١٨٩٥	٨٣	فى هيراكليوبوليس
			١٨٩٤	٨٤	فى بنى حسن
			١٨٩٣	٨٥	العودة من مصر
			١٨٩٢	٨٦	الزواج من هاجر

ملحوظة : أمنمحيت = أمنحتب

تابع جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحداث
سنوسرت الثاني			١٨٩١	٨٧	ولادة إسماعيل
			١٨٩٠	٨٨	أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة
			١٨٨٩	٨٩	العودة من الحجاز وافتراق لوط
١٨٨٨			١٨٨٨	٩٠	مع ملك جرار
			١٨٨٧	٩١	أسر لوط وفك أسره
			١٨٨٦	٩٢	إقامة في حبرون
				٩٣	
				٩٤	
				٩٥	
				٩٦	
	حمورابي (حكم ٤٣ سنة)			٩٧	
سنوسرت الثالث (حكم ٣٧ سنة)			١٨٨٠	٩٨	البشرى بإسحق وهلاك قوم لوط
			١٨٧٩	٩٩	ولادة إسحق
			١٨٧٨	١٠٠	إحدى زياراته لمكة – عمر إسماعيل ١٣ سنة
			١٨٧٧	١٠١	بناء البيت
				١٠٢	أمر الذبح والفداء
			١٨٧٥	١٠٣	مناسك الحج ثم العودة إلى حبرون
				١٠٤	
				١٠٥	
			١٨٧٢	١٠٦	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الأولى)
			١٨٧١	١٠٧	
١٨٥١	١٨٦٧		١٨٧٠	١٠٨	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الثانية)

«مردوك» لأقود الشعب فى طريق الحق ولأدير البلاد وضعت أسس القانون والعدالة فى لغة الأرض، مستهدفاً صالح الشعب، فى ذلك الوقت قررت: وتتوالى مواد القانون.

ويمكننا القول بأن فضل حمورابى هو فى جمع التشريعات التى كانت متناثرة فى أور ولجش وأوروك وبابل وأشتونا وعدَّل بعضها وزاد عليها. وكان ذا فطرة قانونية مرتبة. وتحت إشرافه قام الإداريون بتدوينها فى قانون واحد وأهملوا أسماء أصحاب التشريعات الأولى ونسبوها كلها إلى حمورابى.

ويجدر هنا أن نسجل ملحوظة وهى أن أولى التشريعات ظهر فى مدينة أور التى عاش فيها إبراهيم عليه السلام، كما تلتها تشريعات لجش وأسين، وهاتان البلدتان تقعان على الطريق الذى سار به إبراهيم عليه السلام حتى وصل إلى بابل، ومن هنا يمكننا أن نصل إلى إفتراض – وإن لم يقم عليه دليل – إلاَّ أن الشواهد تدل عليه – إذ أن وجود إبراهيم عليه السلام فى هذه المدن بهذا الترتيب وتوالى ظهور التشريعات فى هذه المدن بنفس الترتيب يوحى بوجود رابطة ما أو صلة بين هذه التشريعات وإبراهيم عليه السلام.

فمن المعروف أن دعوة الأنبياء تتضمن صلاح الدين والدنيا فهى تتضمن إصلاح علاقة العبد بربه بالإيمان بالله إلهًا واحداً لا شريك له، كما تتضمن إصلاح علاقة الناس بعضهم ببعض وتنظيم أمورهم الدنيوية.

وكان إبراهيم عليه السلام يدعو إلى الله، سواء فى أور أو أثناء هجـــرته إلى ربه – بما أنزل عليه من صحف كما كانت الصحف تحتوى على تعاليم تنظِّم شئون العباد وتبث بينهم مبادئ العدل فى المعاملات الدنيوية.

ولعل الناس فى أور وإن لم يؤمنوا بدعوته إلى عبادة الله وحده، إلاَّ أنهم رأوا أن ما جاء به من قواعد تنظم الأمور الدنيوية فيها خير كثير فأخذوا بها وصاغوها فيما سمِّى بتشريعات أور.

وحينما وصل إلى لجش وأسين أخذوا عنه بعض التشريعات ونسبوها إلى حكمائهم وإلى مدنهم.

وكانت إقامته ببابل لمدة أطول، ولعل معجزة نجاته من النار كانت قد سبقته مما جعلت القوم ينظرون إليه نظرة إجلال تجلَّت فى أنهم لم يحاولوا إيذاءه بل ورغبوا فى الإستفادة من حكمته مما كان له أثر فى أن تشريعات بابل كانت أشمل وأتَمّ.

وقد صاغ القانونيون هذه التشريعات والأحكام فى ٢٨٢ مادة تناولت أهم أمور القضاء وحقوق الناس ومسئوليات المجتمع وتضمنت الأحوال الشخصية من تقاليد الزواج والطلاق والمواريث والتبنى، وتضمنت كذلك جزاءات الإعتداء على النفس والمال والقصاص والتعويضات.

وفى يقينى أنه لو قَدَّر لنا أن نتوصل إلى «صحف إبراهيم» وما قد يكون قد دُون من أحاديثه لوجدنا أن جزءاً كبيراً من قانون حمورابى مأخوذٌ عن هذين المصدرين. ولكن لأن القوم لم يؤمنوا بدين إبراهيم فلابد أنهم تمسَّكوا ببعض الأحكام التى كانت سائدة فى مجتمعهم وكانت مخالفة لما جاء به إبراهيم عليه السلام لذلك جاء فى قانون حمورابى بعض المواد التى اعتبرت مثالب فى التشريع.

بعض مواد من قانون حمورابى :

سنذكر هنا بعض مواد هذا القانون الشهير (د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم . جـ ١ ص ٥٢٧).

– أيما مواطن اتهم موطناً آخر بجريمة يعاقب عليها بالتغريم ثم لم تثبت عليه دفع غرامتها وإذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالإعدام، ثم لم تثبت عليه قُتِل عوضاً عنه. وهذا يقابل ما يُعَبَّر عنه الآن بمكافحة البلاغات الكاذبة وأحكام رد الشرف.

– أيما قاض أصدر حكمه فى قضية ودوَّنه ووقَّع عليه ثم زور فيه لغرض ما وثبت ذلك عليه، أقيل من منصبه وحُرِّمت عليه مناصب القضاء. ودفع ما يوازى ١٢ مرة من قيمة الشيئ الذى زور فيه – وفى ذلك ما فيه من مكافحة الرشوة فى القضاء.

– تكافل المجتمع: بحيث إذا سُرِق من مواطن شيئ، ولم يتم التوصل إلى السارق، عوضته المدينة والحاكم عما سرق بعد أن يؤكد دعواه أمام تمثال معبوده. وإذا قُتِل مواطن ولم يتم التوصل إلى معرفة القاتل تعاونت المدينة والحاكم فى دفع دية القتيل إلى أهله.

وفى مقابل ذلك إذا ادعى شخص سرقة متاعه، ثم تبين كذبه، غُرِّم بما يوازى ضعف قيمة إدّعائه.

وحظيت مسائل الأحوال الشخصية بنصيب كبير من مواد التشريع مثل إلزام والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إليه إذا ما رفضه بعد قبوله. وفى المقابل احتفاظ والد الخطيبة بالهدايا إذا كان فسخ الخطبة من جانب الخطيب.

– إذا عاد محارب بعد أسرِه فى بلاد الأعداء ووجد زوجته قد تزوجت غيره حق له أن يستردها من الزوج الجديد حتى وإن أنجبت منه وإن كان المحارب الأسير قد ترك فى داره مايمكِّن زوجته من المعيشة وجب عليها ألا تتزوج. فإذا لم يكن لديها ما يقيم أودها فلا بأس عليها إن تزوجت.

– كذلك أباحت التشريعات للزوجة أن تسترد جاريتها التى وهبتها لزوجها لينجب منها (وكان هذا شائعاً) إذا رأت أنها تنافسها فى حب زوجها وأنها تعمل على أخذ المكانة الأولى

فى الدار. وأباحت لها أن تبيعها إن كانت غير ذى ولد. فإن كانت قد أنجبت ظلَّت فى الدار كجارية تخدم الجميع.

– وفى أحكام الطلاق أعطت المطلقة – ما لم تكن ناشزاً – حق استرداد ما تزوجت به من مال أبيها. كذلك فرض للمطلقة العاقر تعويضاً أو نفقة. وإذا كان الطلاق بسبب فعل الزوجة، حُرمت من مخصصاتها وأُلقيت فى النهر!!

– كذلك يوجد نص على أن الزوج إذا إتهم زوجته بفاحشة ولم يقدم بينة واضحة على إثمها كفاها أن تقسم على طُهرها أمام معبودها وبذلك يبرأ شرفها وتعود إلى دار زوجها.

ومن المرجِّح أن هذا التشريع مأخوذ من تعاليم سماوية أتى بها إبراهيم عليه السلام. إذ هو مطابق لنص فى الشريعة الإسلامية لقوله تعالى :

«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاَّ أنفسهم. فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين». (٦ – ٩ النور)

وبالطبع لأن القوم لم يكونوا مؤمنين بدين إبراهيم فإنهم قد استبدلوا بالشهادات – القسم أمام معبوداتهم.

– كذلك ورد فى هذه التشريعات تفصيلات عن المواريث. وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية فى ميراث أبيهم أو أمهم إلاَّ إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية.

وهذا يقابل نصَّاً فى الشريعة الإسلامية، **«من بعد وصية توصون بها أو دين»** وجاء هذا فى الآية ١٢ من سورة النساء.

– كذلك جعل للإبنة نصيباً يعادل ثلث نصيب أخيها – وإن كانت الشريعة الإسلامية قد زادته إلى النصف فى قوله تعالى:

يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين». (١١ – النساء)

إلاَّ أن تشريعات حمورابى لم تعط الميراث للإبنة ملْكاً خالصاً. بل أبقت الرقبة لإخوتها ولايحق لها أن تتصرف فى نصيبها. وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه. فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه. فإن قَصَّروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء دون أن يكون لها حق بيعه. وعلى أن تؤول الرقبة بعد وفاتها إلى إخوتها. واستُثنيت من ذلك من عملت بالكهانة العليا فى معبد مردوك رب بابل، فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء.

- كذلك تضمنت التشريعات مواد تنظِّم التبنِّى وحق المُتَبنَّى فى إنهاء تبنِّيه. وكذلك حق المُتَبنَّى فى اللحاق بوالديه إن عرفهما وعرف مكانهما. وحُرِّم على المتبنَّى الكلام بالسوء على من ربَّاه. فإن فعل قُطع لسانُه أو سلمت إحدى عينيه أو قطعت أذنه.

- كما نظمت هذه التشريعات أموراً كثيرة مثل أجور الأطباء ومراعاة حالة المريض الاقتصادية وحق المريض فى التعويض عن خطأ الطبيب ليس هذا مجال ذكرها ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى كتب التاريخ. وفقط أدرجنا بعض النماذج لبيان تشابهها مع بعض التشريعات السماوية.

وكما سبق أن قلنا إن القوم لم يؤمنوا بإبراهيم عليه السلام ولذلك فلعلَّهم لم يلتزموا بحرفية ما جاء به. وحرَّفوا بعضها تمسُّكا بأعراف لديهم وتقاليد كان لها هوى فى أنْفُسهم.

ويقول الدكتور عبد العزيز صالح إن بعض المستشرقين قد عاب ما ورد فى التشريعات البابلية من قصاص العين والسن بالسن. مع أن مبدأ القصاص جاء فى التوراة. وأشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى:

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن». (من الآية ٤٥ - المائدة)

ولكن يعيب التشريعات البابلية ما ورد فيها من قسوة شديدة فى بعض الأحكام مثل قطع ثدى المرضعة إذا عُهِدَ إليها بإرضاع طفل فمات عندها. أو قطع يد الحلاق إذا قام بإزالة قُصَّة عبد بدون موافقة سيده. أو قطع يد الطبيب إذا أهمل ونتج عن إهماله فقدان بصر أحد المرضى.

ويرى البعض أن هذه الأحكام القاسية قد أدخلت للتخويف ومنع المخالفة قبل وقوعها أكثر مما هى للتطبيق الحرفى أو لعلها كانت رد فعل لشيوع أنواع من الفساد فى المجتمع وقتئذ.

وروى أبو إدريس الخزلانى عن أبى ذر الغفارى (عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٢٠) قال: قلت يارسول الله كم كتاباً أنزل الله تعالى؟ قال مائة صحيفة وأربعة كتب. أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال فقلت يارسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال كانت أمثالاً كلها، منها :

- أيها الملك المبتلى المتسلط المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر.

- على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه

وساعة يتفكر فيها فى صنع الله. وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر. وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب وغيرهما.

– على العاقل أن لا يكون ظاعناً إلاَّ فى ثلاث: تزود لمعاده – ومؤنة لمعاشه – ولذة فى غير محرم.

– على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه. والله عن كل محظور يغنيه.

من الملك الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه :

«ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك». (٢٥٨ – البقرة)

تروى كتب التفسير الإسلامية أن هذا الملك هو «النمرود بن كنعان بن أنوش» ويزعمون أنه كان واحداً من أربعة ملوك ملكوا الأرض كلها. اثنان كافران: نمرود وبختنصر (نبوخذ نصر). واثنان مؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، ويقولون إن وصف القرآن الكريم له **«أن آتاه الله المُلك»** ولفظ الملك هكذا يعنى مُلك الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت. ويصفون النمرود بأنه أول جبار تجبَّر فى الأرض وأول ملك فى الأرض وأنه هو صاحب الصرح فى بابل وأول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل إلى غير ذلك من صفات القسوة والظلم والجبروت.

وأكبر الظن أنهم استندوا فى ذلك إلى التوراة حيث جاء فيها (الإصحاح العاشر تكوين): وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض. الذى كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة فى أرض شنعار من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى ورحوبوت عَيْرَ وكَالَحَ ورَسَنَ بين نينوى وكالح، هى المدينة الكبيرة.

ورحوبوت عير ورسن ضاحيتان من ضواحى نينوى. أما كالح فهى مدينة بناها نمرود وبقيت مسكن الملوك الأشوريين المفضل فترة من الزمن، وأطلالها اليوم موجودة على بعد ٢٠ ميلاً جنوبى نينوى ويطلق عليها اسم نمرود.

وتجمع كتب التاريخ (دراسات تاريخية من القرآن الكريم . د. بيومى مهران. جـ ٤ ص ١٥٢) على أن التاريخ البابلى لا يعرف ملكاً اسمه النمرود. فقد تولى الحكم فى العهد البابلى القديم ستة ملوك ليس من بينهم من اسمه النمرود. وكان سادسهم هو حمورابى الشهير وصحيح أنه توجد بلدة باسم نمرود على مجرى الزاب الأكبر. وأكبر الظن أن الرواة خلطوا بين الملك والمدينة، ثم جاء المؤرخون الإسلاميون فنقلوا عنهم. وإذا كان عدم وجود ملك بهذا الإسم

يقوِّض القضية من أساسها إلاَّ أنه يمكن إضافة أن ادعاء البعض بأن النمرود هذا كان أول ملك فى التاريخ. ليس صحيحاً. فقد سبقه الملك مينا (نارمر) فى مصر الذى وحد القطرين فى أول دولة عرفتها البشرية.

وأضيف دليلاً آخر. وهو أننا لو نظرنا إلى شجرة النسب المدونة فى شكل ٢٥ ص ٤٧، نجد أن جيل إبراهيم عليه السلام هو العاشر بعد نوح عليه السلام. فى حين أن النمرود إن كان ابن كوش فهو من الجيل الثالث وإن كان – ابن كنعان بن كوش فهو من الجيل الرابع. أى أن بينه وبين جيل إبراهيم عليه السلام ستة أو سبعة أجيال، فيستحيل أن يكون معاصراً له.

يبقى السؤال، من الذى حاج إبراهيم فى ربه ؟

ولعل الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى قوله تعالى :

«أن آتاه الله الملك» .

ولو استعرضنا الملوك الذين كانوا يحكمون العراق فى هذه الفترة لوجدنا أن أكثرهم كانوا ملوك دويلات: مثل دويلات الوركاء أو لارسا أو أور أو أكد. وغيرها من دويلات المدن التى كان جنوب العراق يتكون منها. فهى إمارات وليست ممالك ولا ينطبق عليها لفظ «الملك» الذى جاء فى الآية الكريمة. فإطلاق لفظ «الملك» هكذا يعنى أنه كان مُلكاً عظيماً. وكان اتحاد سومر وأكد تحت تاج واحد فى «دولة بابل» بداية مملكة كبيرة نوعاً ما. تجاورها من الشمال أشور ومن الشرق عيلام. ومن الغرب مارى.

ولو استعرضنا الملوك الذى حكموا دولة بابل لوجدناهم كالآتى :

١ – سوموابوم (حكم ١١ سنة)		٢ – سومولا إيلوم (حكم ٣٤ سنة).

٣ – صبوم (حكم ١٣ سنة)		٤ – أبل سين (١٧ سنة)

٥ – سن مبلط (١٩ سنة)		٦ – حمورابى (حكم ٤٣ سنة)

٧ – سمسو إيلونا (٣٧ سنة)		٨ – أبى إيشو (٢٧ سنة)

ونرى أن حمورابى كان أطولهم مدة فى الحكم. كما أنه كان حكيماً فى تصرفاته واستهدف الرجل منذ بداية حكمه توحيد بلاد النهرين تحت زعامته سواء بالسياسة أو بالحرب فأخضع مدن أوروك وإيسن وأور ولجش وغيرها. وكانت أعنف مقاومة له من دويلة لارسا ذات الأصل العيلامى. وتحالف مع ملوك الدول المجاورة. وكان حريصاً على أن تكون له اليد العليا فى كل تحالف وعلى أن يأخذ أكثر مما يعطى. فيطلب المساعدات العسكرية من حلفائه ويضنُّ عليهم بعسكره. حتى إذا ضعف أحدهم تحت ضغط أعدائه تقدم هو بقواته وسيطر على بلده مثلما فعل مع دويلتى مارى وأشتونا.

كذلك كان من حسن سياسته العمل على رعاية تماثيل معبودات المدن التابعة والخاضعة بعد الاستيلاء عليها حتى تكون سبيلاً لولاء مشاعر أتباعها. فكان أن رفع مكانة الربة «إنانا» فى نينوى. وكانت رعاية هذه التماثيل تعنى أيضاً رعاية من يخدمونها من كهنتها وكاهناتها وإحياء أعيادها فى معابد بابل نفسها.

وأخيراً استولى على لارسا وتقدم واستولى على أجزاء كثيرة من عيلام نفسها. ووسَّع ملكه بحيث شمل العراق كله شماله وجنوبه. وجزءاً من بادية الشام وسوريا ولبنان حتى إنه وصل كما تقول كتاباته إلى أرض الأرز وطرطوس أيضاً فكانت مملكته من العِظَم بحيث ينطبق عليها قول الله تعالى: **«أن آتاه الله الملك»**. ووصف حمورابى نفسه بأنه «إله بين الملوك». وأنه «أول الملوك وزعيمهم والخالد بينهم» وادعى البنوَّة للمعبود سين إله القمر. وأنه سليل سامولائيل والوريث الجبار للإله سين. والبذرة الأزلية للملكة شمس بابل. وعظَّمه شعبه ووضعوه بين الآلهة.

كما أنه كان يتمتع بقدر كبير من العقلانية والمنطق بدليل إشرافه على وضع مواد قانونه الشهير. ولم يلجأ إلى العنف فى مجابهة إبراهيم عليه السلام، بل لجأ إلى مابرع فيه وهو المنطق فكانت المحاجة.

أما كيف التقى الملك بإبراهيم فلعل الملك سمع بما حدث لإبراهيم فى أور ومعجزة خروجه من النار سالماً. وسمع أنه يدعو إلى دين جديد فأراد أن يستعلم بنفسه عن هذا الدين الذى يدعو إليه إبراهيم. فأرسل فى طلب إبراهيم وجرت بينهما هذه المحاجة.

ويروى المفسرون رواية أخرى. أنه كان عيد لهم، فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم أتعبدون ما تنحتون فقال الملك فمن تعبد؟ قال أعبد ربى الذى يحيى ويميت. وواضح عدم قبول هذه الرواية إذ أن تكسير الأصنام قد حدث فى أور – وحدوثه مرة أخرى فى مدينة بابل أمر مستبعد. كذلك فإن الملك وقد كُسِّرت أصنام الآلهة ماكان يكتفى بالمحاجة ولا يتخذ إجراءً عنيفاً ضد إبراهيم عليه السلام ليحفظ هيبة الآلهة ومن ثَمَّ هيبته هو نفسه.

رواية ثالثة قالوا إن الملك كان يحتكر الطعام. فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له. فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال الملك مالك لا تسجد لى؟ قال: أنا لا أسجد إلاَّ لربى فقال الملك: فمن ربك قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت إلى آخر المحاجة.

وقيل إن الملك كان يقعد يأمر الناس بالميرة (الميرة هى طعام يمتاره الإنسان أى يجلبه من بلد إلى بلد) فكلما جاء قوم يقول: من ربكم وإلهكم؟ فيقولون أنت.. فيقول: ميروهم وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار. فقال له من ربك وإلهك؟ فقال: ربى الذى يحيى ويميت. فلما سمعها الملك قال: أنا أحيى وأميت. فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذى كفر وقال: لا تميروه. فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيئ.

وهذه الروايات يصعب تصديقها. فما كان الملك ليستطيع احتكار كل طعام فى المملكة كذلك لا يعقل أن يقعد الملك طوال اليوم، وكل يوم، ليسأل كل واحد نفس السؤال، ويرى الناس وهى تسجد له، وما كان اليوم ليتسع لبضع مئات يفعلون ذلك. وهناك آلاف ينتظرون الطعام وهناك ساعات نوم وساعات أكل وساعات راحة لا يوزَّع فيها الطعام مادام مرتبطاً بوجود الملك والسجود له وهو مالا يُعقَل.

بل إن الرواية الأخيرة تمضى فتقول إن إبراهيم بعد أن مُنِع من الميرة، مرَّ على كثيب رمل ناعم كالدقيق، فقال فى نفسه: لو ملأت غرارتى من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين. ونام هو من الإعياء. فقالت امرأته، لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه. ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الدقيق الأبيض فخبزته. فلما قام وضعته بين يديه فقال: من أين هذا؟ فقالت من الدقيق الذى أتيت به. فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك (تفسير القرطبى).

وواضح اختلاق هذه القصة، فأى صبيان كانوا يلعبون فوق الغرارتين؟ وسارة كانت عاقراً. ولم يكن لإبراهيم ولد إلا بعد أن زار مصر وأهديت هاجر لسارة ثم اتخذها زوجة فولدت له إسماعيل. وبعد أن عاد إلى حبرون جاءته البشرى وولدت سارة إسحق.

بعضهم يقول إن المحاجة حدثت بعد أن كسَّر إبراهيم الأصنام فى أور (تفسير المنار) وأغلب الظن أن حالة القوم النفسية بعد تحطيم أصنامهم لا تسمح بقيام حوار أو مجادلة من أى نوع. فقد كان همهم هو القبض على الفاعل وعقابه. وكان جدال القوم فيما بينهم هو: هل يقتلونه أو يحرقونه.

رأى آخر يرى أنها كانت بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن إبراهيم قد اجتمع بالملك إلاَّ فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة (تفسير ابن كثير) وهذا أيضاً مستبعد. فالملك وقد رأى معجزة حيَّة أمامه فى أن النار لم تحرق إبراهيم ولم تمسَّه بأى أذى، تأكد من قدرة إله إبراهيم وما كان له أن يحاجَّه فى شيئ بعد ذلك. بل إن الملك كما يقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ذبح خمسة آلاف من الغنم تقرباً من إله إبراهيم.

خلاصة القول يمكننا إن نقول إن الملك الذى حاج إبراهيم هو حمورابى ملك بابل الذى مدَّ ملكه ليشمل العراق كله وسوريا حتى وصل إلى البحر المتوسط. وأن هذه المحاجة حدثت فى بابل، عاصمة مُلك حمورابى. ولعله سمع بمعجزة نجاة إبراهيم من النار فى أور، فأراد أن يستوثق بنفسه عن هذا الإله الذى يروى عنه إبراهيم ويدعو إليه.

المحاجـة :

«ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت. قال: أنا أحيى وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين». (٢٥٨ - البقرة)

هذا الملك الذى ادعى الألوهية. طلب من إبراهيم أن يبرهن على وجود الله. فقال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت. أى أن الله هو الذى خلق الخلق. فلم يدَّع مخلوق أنه خلق نفسه بنفسه. بل لابد من خالق خلقه - والذى خلقه هو الذى يميته بعد الحياة التى قدرها له ولذلك فإن الله هو الذى يحيى ويميت.

فقال الملك. أنا أحيى وأميت. قال قتادة ومحمد بن اسحق والسدى وغيرهم. وذلك أن أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل. وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ويظل حيا. فذلك إحياء وإماتة. ومع مافى هذا القول من مغالطة ومكابرة. قال إبراهيم. إن الله هو خالق هذا الوجود وسخر الكواكب وهذه الشمس يأتى بها الله من المشرق فأت بها من المغرب. فعلم الملك عجزه وبهت أى أخرس ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

وجواب الملك كان فيه مغالطة ومكابرة إذ أن الإحياء الذى ادعاه ليس فى الحقيقة إحياء من عدم. بل هو ترك لاستمرارية الحياة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى. ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده المراد بالذى يحيى ويميت الذى ينشئ الحياة بعد ممات ويزيل الحياة بالموت. ولما رأى إبراهيم عليه السلام أن الملك لم يجب الإجابة التى تدل على فهم السؤال على حقيقته أراد أن يوضح له المراد من السؤال وهو الله الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته ، وهو الذى يطلع الشمس من المشرق أى هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التى نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل، فغير نظام طلوع الشمس بأن تأتى بها من الجهة المقابلة للجهة التى جرت سنة الله تعالى بظهورها منها.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران إن الإمام النسفى قال إن هذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة. بل إن القوم - وكانوا أهل تنجيم - كانوا يعلمون أن حركة الكواكب قسرية ومنتظمة. فمادام قد ادعى الإحياء والإماتة. فليستكمل إظهار قدرته بالإتيان بالشمس من المغرب. فبهت الذى كفر لأنه أدرك عجزه.

وكما قال الإمام ابن كثير إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى، انتقال من دليل إلى أوضح منه وأن المقام الأول كان كالمقدمة للثانى وعجز الملك عن الثانى ينسحب أيضا على الأول.

وذكر الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية من القرآن الكريم . جـ٤ ص ١٥٦) أنه انطلاقاً من كل هذا، فلا محل للشبهة التى يوردها بعض الناس، وهى أنه لو كان الملك قال: إذا كان ربك هو الذى يأتى بالشمس من المشرق، فليأت بها يوما من المغرب – وأن ابراهيم لم يكن ليسأل ربه ذلك لأن فيه خراب العالم. وقد رد الدكتور بيومى مهران على ذلك بقوله إن هؤلاء لم يفهموا مراد إبراهيم وهو أن هذا النظام فى سير الشمس لابد له من فاعل حكيم. وفهم أنه من غير المعقول أن يطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سنته.

وأزيد فأقول: إن قدرة الله ليس لها حدود. ولو كان الملك قد طلب ذلك، وسأل ابراهيم ربه فى ذلك، وشاءت إرادة الله أن يجيب إبراهيم سؤله. لما كان أمام قدرة الله من حائل فى أن تأتى الشمس من المغرب لساعة أو بضع ساعة ولا يحدث خراب للعالم كما ادعوا. فالمعجزة هى خرق لنواميس الكون يأتى بها ليؤيد بها رسوله ويدلل بها على صدق رسالته. ولكن السؤال هل كان إبراهيم عليه السلام مرسلاً أساساً لهذا الملك حتى تجرى له معجزة كهذه. والجواب طبعا بالنفى لأن المحاجة إنما جاءت حدثا عارضاً حينما مر إبراهيم عليه السلام بمدينة بابل. ومن المؤكد أن الملك طلب من إبراهيم عليه السلام أن يقرأ عليه شيئا من الصحف التى كانت تنزل عليه من ربه. ومن المؤكد أن كان بها شئ عن مصير الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها . قوم نوح فأغرقوا وقوم هود أهلكوا بريح صرصر عاتية. ولعل أكثر ما أثر فى نفسه كانت قصة قوم صالح. إذ تحدوا نبيهم بأن يخرج لهم من الصخرة ناقة. وهم كانوا ينحتون الجبال بيوتا ويعلمون تمام العلم أن لا حياة البتة داخل الصخر. وظنوا أن طلبا كهذا سيُعجز صالحا. فلما أجيب طلبهم كفر البعض بهذه المعجزة وزادوا بأن عقروا الناقة فكان هلاكهم.

واستوعب حمورابى هذه القصة جيدا. وأدرك من نجاة إبراهيم عليه السلام من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب من إبراهيم أن يأتى ربه بالشمس من المغرب وأتى بها – لوجب عليه الإيمان وإلا نزل به عذاب عظيم. أدرك هذا كله وعلم فى نفسه أنه سيتمسك بما يدعيه من ألوهية أو بنوة للآلهة وأدرك أنه لن يؤمن لإبراهيم. فآثر ألا يطلب منه أن يأتى ربه بالشمس من المغرب. وذلك يحاكي ما قيل إن الحواريين فعلوه لما تحدوا عيسى عليه السلام بأن ينزل عليهم مائدة من السماء فوُعدوا بإجابة طلبهم بشرط العذاب إذا لم يؤمنوا.

«قال الله إنى منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين». (١١٥ – المائدة)

فقد أخرج ابن جرير وغيره عن الحسن ومجاهد أن القوم لما قيل لهم ذلك قالوا: لا حاجة لنا بها. فلم تنزل.

وقال غيرهم إن المائدة نزلت وكان عذاب من كفروا أن مسخوا قردة وخنازير.

وفى رأينا أن الملك قد أدرك من نجاة إبراهيم من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب هذا الطلب من إبراهيم ولم يؤمن لنزل به عذاب عظيم. لذلك آثر ألا يطلب ذلك.

وانتهت المحاجة. وعلم الملك أن إدعاءه الألوهية إدعاء كاذب. وأنه بشر كباقى الناس لذلك لم يتعرض لإبراهيم عليه السلام بأذى.

سر الحياة والموت :

لما انتهت المحاجة بين الملك وإبراهيم عليه السلام. ترك إبراهيم بابل وسار شمالا. وعبر دجلة ومر بأشتونا فى طريقه إلى أشور ونينوى. وطوال الطريق كان يفكر فى موقف هذا الملك. كيف يدعى أنه يحيى ويميت وهل ترك أحد الأسيرين حيا هو إحياء؟ بالطبع لا. الإحياء الحقيقى هو أن يموت شيئ ثم يعود إلى الحياة مرة ثانية. وهذا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. وهو مؤمن بهذا أشد الإيمان. ولكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى ذلك مشاهدة ليكون له عين اليقين كما كان له علم اليقين :

«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى. قال فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا. ثم ادعهن يأتينك سعيا. واعلم أن الله عزيز حكيم». (٢٦٠ – البقرة)

كان إبراهيم عليه السلام مؤمنا بقدرة الله تعالى. فهو خالق هذا الكون من العدم. هو الذى يقول للشيئ كن فيكون. فكان إبراهيم يريد أن يطلّع على بعض أسرار تلك القدرة الإلهية ويراها رأى العين – لهذا سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

يقول الأستاذ الباقورى أنه أراد بسؤاله هذا أن يزيد إيمانه ويضاعف يقينه. فأعطاه الله تبارك وتعالى مثالا من المحسوسات تتضح به كيفية إحياء الموتى.

ويقول صاحب الظلال: إنه التشوق إلى ملامسة سر الصنعة الإلهية ليس طلبا للبرهان أو لتقوية الإيمان. إنما هو أمر الشوق الروحى إلى ملامسة السر الإلهى فى أثناء وقوعه العملى.

وقد اختلف المفسرون فى السبب المباشر لتوجيه إبراهيم عليه السلام هذا السؤال لربه سبحانه وتعالى فقالوا عدة أقوال:

بعضهم قال إن إبراهيم عليه السلام مر على دابة ميتة قد توزعتها دواب البر والبحر. فقال رب أرنى كيف تحيى الموتى.

وقال ابن زيد: مر إبراهيم بحوت ميت. نصفه فى البر ونصفه فى البحر. فما كان فى البحر فدواب البحر تأكله. وما كان فى البر فدواب البر تأكله. فقال له إبليس الخبيث: متى يجمع الله

هذه الأجزاء من بطون هؤلاء؟ فقال: رب أرنى كيف تحيى الموتى. لم يكتف بإيمان الغيب بل أراد رؤية العين. وقال الحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير والربيع: سأل ليزداد يقينا على يقينه.

وقال محمد بن اسحق بن بسار: إن إبراهيم لما احتج على الملك وقال ربى الذى يحيى ويميت وقال الملك أنا أحيى وأميت. ثم قتل رجلا وأطلق رجلا وقال أمتُّ هذا وأحييتُ هذا، قال له إبراهيم فإن الله يحيى بأن يرد الروح إلى جسد ميت، فقال له الملك: هل عاينت هذا الذى تقوله؟ ولم يكن يقدر أن يقول نعم رأيته. وهكذا سأل ربه رب أرنى كيف تحيى الموتى حتى إذا كان احتجاج فإنه يكون مخبرا عن مشاهدة وعيان أيضا.

وفريق آخر ذهب إلى أن طلب إبراهيم هذا كان عند البشارة التى أتته بأن الله قد اتخذه خليلاً.

«واتخذ الله إبراهيم خليلاً». (١٢٥ - النساء)

فسأل ربه أن يريه علامة على ذلك. ليطمئن قلبه بأن الله قد اصطفاه خليلا.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى. لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، استأذن ملك الموت ربه أن يأتى إبراهيم فبشرة بذلك فأتاه، فقال: جئتك أبشرك بأن الله اتخذك خليلا. فحمد الله عز وجل وقال ما علامة ذلك، قال: أن يجيب الله دعاءك، وتحيى الموتى بسؤالك، ثم انطلق وذهب. فقال إبراهيم: رب أرنى كيف تحيى الموتى. قال أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى بعلمى بأنك تجيبنى إذا دعوتك وتعطينى إذا سألتك أنك اتخذتنى خليلا.

ويقول أبو جعفر: وأولى الأقوال عندى أن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض فى قلبه. ذلك أن إبراهيم لما رأى الحوت الذى بعضه فى البر وبعضه فى البحر قد تعاوده دواب البحر وطير الهواء. ألقى الشيطان فى نفسه فقال متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء. فسأل إبراهيم ربه حينئذ أن يريه كيف يحيى الموتى ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر الشيطان بعد ذلك أن يلقى فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك. فقال له ربه: أو لم تؤمن؟ يقول: أو لم تصدق يا إبراهيم بأنى على ذلك قادر، قال بلى يارب ولكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقى فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت (تفسير الطبرى).

ذكر الطبرى فى تفسيره حديثاً شريفاً، ورد فى صحيح البخارى أيضاً بسنده عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد، عن أبى هريرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بالشك من إبراهيم. إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبى. وكذا رواه مسلم فى صحيحه.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران: إن تفسير الحديث بشك إبراهيم فى قدرة الله على إحياء الموتى تفسير خاطئ. وقال بعضهم ليس المراد هنا بالشك فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وإنما شك فى أنه هل يجيبه الله تعالى إلى ما سأل. ولكن قوما - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفهموا الآية الفهم الصحيح. وقالوا شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه. وهذا نفى للشك عن إبراهيم. إذ مادام أحد لا يتصور أن يشك النبى صلى الله عليه وسلم. فمن باب أولى أن لا يتصور أن إبراهيم عليه السلام قد شك. ويقول صاحب تفسير المنار. ومعنى الحديث: أننا نقطع بعدم شك إبراهيم. فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينا. غيبا. وهو لا يعرف كيفيتها. ويود لو يعرفها.. وذلك لأن طلب المزيد من العلم والتشوق إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان وكان طلب ابراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه، من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه النفس من معرفة خفايا أسرار الربوبية.

ويقول الألوسى فى تفسيره: إن السؤال لم يكن عن شك ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط بها علما. فاليقين بالإحياء موجود ولكن كيفية الإحياء هى ما أراد مشاهدته. ونظير ذلك أن يقول القائل كيف يحكم زيد فى الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته. ولو كان سائلا عن ثبوت ذلك لقال أيحكم زيد فى الناس؟

ولقد استجاب. الله لهذا التشوق والتطلع فى قلب ابراهيم. ومنحه التجربة الذاتية المباشرة.

«قال فخذ أربعة من الطير، فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم». (٢٦٠ - البقرة)

والمروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن الطيور الأربعة هى الغرنوق والطاووس والديك والحمامة وعن مجاهد بدل الغرنوق الغراب وفى رواية بدل الحمامة بطة وفى رواية نسر.

وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان فى المعاش والسكن ولسهولة ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وهكذا أمر الله ابراهيم أن يختار أربعة من الطير «فصرهن إليك». قرئت بضم الصاد بمعنى قطعهن قطعا. وقرئت بكسر الصاد بمعنى الإمالة والضم. أى يقربهن منه ويميلهن إليه حتى يتأكد من شكلها ومميزاتها التى لا يخطئ معها معرفتها فيما بعد. وذبحها وقطع أجسادها. وفرق أجسادها على الجبال المحيطة وقال بعضهم أربعة جبال وقال آخرون سبعة. ثم دعاها فتجمعت أجزاء كل طير بعضها مع بعض وارتدت إليها الحياة وعادت إليه سعيا.

ويقول الإمام الرازى فى تفسيره إن إبراهيم قطع أجزاءها وذبحها ونتف ريشها. وقطعها جزءا جزءا وخلط دماءها ولحومها وأمسك برؤوسها فى يديه ثم جعل على كل جبل جزءا. ثم صاح بها «تعالين بإذن الله» فأخذ كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها وانضم كل رأس إلى جثته وصار الكل أحياء بإذن الله تعالى.

قال أبو مسلم فى تفسير «فصُرهن إليك» بمعنى الإمالة والتمرين على الإجابة ثم اجعل على كل جبل طيرا واحدا حال حياته. ثم ادع الجميع يأتينك سعيا. وذلك مثال محسوس عن عود الأرواح إلى الأجساد. وهذا النوع من الجواب قريب من جواب موسى إذ طلب رؤية الله تعالى فرأى ما صار إليه الجبل لما تجلى ربه للجبل فجعله دكا.

ولكن جمهور المفسرين يذهبون إلى تفسير صُرهُنَّ بمعنى الذبح والتقطيع ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا. وليس على كل جبل منهن طيرا واحدا حيا. بل جزءا من كل طير وهذا لا يتأتى إلا بعد ذبحهن وتقطيعهن.

وذكر الألوسى (روح المعانى الجزء الثالث ص ٣١) أنَّ للصوفية رأياً آخر فى هذا الأمر وأنها من باب الإشارة:

وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى. أى موتى القلوب بداء الجهل. قال أو لم تؤمن أى ألم تعلم ذلك علما يقينا. قال بلى أعلم ذلك. ليطمئن قلبى الذى هو عرشك.

قال فخذ أربعة من الطير إشارة إلى طيور الباطن التى فى قفص الجسم وهى **أربعة** من أطيار الغيب: **العقل والقلب والنفس والروح** فصرهن إليك أى ضمهن إليك أى ضمهن وأذبحهن. فاذبح طير **العقل** بسكين المحبة على باب الملكوت. واذبح طير **القلب** بسكين الشوق على باب الجبروت. واذبح طير **النفس** بسكين العشق فى ميادين الفردانية. واذبح طير **الروح** بسكين العجز فى تيه عزة أسرار الربانية.

ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا. فاجعل **العقل** على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفا بها ليدركنى بعد فنائه فىَّ. واجعل **القلب** على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسى فيتيه فى بيداء التفكر منعوتاً بصرف نور المحبة. واجعل **النفس** على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتى عليها فلا تنازعنى فى العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية. واجعل **الروح** على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس لتكون منبسطة فى السكر مطمئنة فى الصحو عاشقة فى الانبساط راسخة فى التجليات.

ثم ادعهن: ونادهن بصوت سر العشق. يأتينك سعيا: إلى محض العبودية بجمال الأحدية.

واعلم أن الله عزيز. يعزك بعرفانك هذه المعانى وإطلاعك على صفاته القديمة. حكيم فى ظهوره بغرائب التجلى لأسرار باطنك.

ويقولون أيضا: أشار سبحانه بالأربعة من الطير إلى القوى الأربعة التى تمنع العبد عن مقام العيان وشهود الحياة الحقيقية. ووقع فى أثر أنها كانت طاووسا وديكا وغرابا وحمامة. والطاووس إشارة إلى العجب، والديك إلى الشهوة. والغراب إلى الحرص. والحمامة لحب الدنيا لإلفها الوكر والبرج. وفى أثر بدل الحمامة بطة إشارة إلى الشره الغالب. وفى أثر آخر بدل الحمامة نسر إشارة الى طول الأمل.

فصرهن إليك: أى ضمّهن وأملهنّ إليك بضبطها ومنعها عن الخروج إلى طلب لذاتها والنزوع إلى مألوفاتها. أما ذبحها ونتف ريشها وخلط لحومها ودمائها وحفظ رؤوسها عنده أى يمنعها عن أفعالها ويزيل هيآتها عن النفس ويقمع دواعيها وطبائعها وعادتها بالرياضة ويُبقى أصولها فيها. وأن يجعل على كل جبل من الجبال التى بحضرته وهى العناصر الأربعة التى هى أركان البدن جزءا منهن. وكأنه أمر بقمعها وإماتتها حتى لا يبقى إلاّ أصولها المركوزة فى الوجود والمواد المعَدَّة فى طبائع العناصر التى هى فيه.

وفى رواية أن الجبال كانت سبعة إشارة إلى الأعضاء السبعة التى هى أجزاء البدن. وفى رواية أخرى أنها كانت عشرة وعليها ربما تكون إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة.

ثم ادعهن إشارة إلى أنه إذا كانت هاتيك الصفات حية بحياتها كانت غير منقادة وحشيه ممتنعة عن قبول الأمر. فإذا قتلت كانت حية بالحياة الحقيقية الموهوبة بعد الفناء والمحو. وهى حياة العبد وعند ذلك تكون مطيعة منقادة متى دُعِيَتْ أَتَت سعيا وامتثلت طوعاً وذلك هو الفوز العظيم.

تذكر التوراه (اصحاح ١٥ تكوين) شيئا مشابها لذلك ولكن بطريقة أخرى: وقال له (أى لإبراهيم) أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين. ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال: أيها السيد الرب. بماذا أعلم أنى أرثها؟ فقال له. فخذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها.

ولم توضِّح ما مغزى هذه القصة ولا دلالتها!!

فى حاران :

بعد بابل مر إبراهيم عليه السلام بأشتونا وتركها فى إتجاه أشور. ولعل القوم بعد ما

تركها صاغوا ما كان قد أشار به من أحكام يصلح بها دنياهم. صاغوها فى «تشريعات أشتونا».

وظل إبراهيم سائرا فى طريقه مهاجرا إلى ربه يدعو من يلاقيه إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك أشور إلى نينوى ثم اتجه غربا حتى وصل إلى موطن أجداده «حاران».

كان معه فى مسيرته زوجته سارة، ووالده، ولوط ابن أخيه وزوجته، وكان معه عدد من العبيد يخدمونهم ويرعون الماشية. فقد كان له غنم وماشية كثيرة.

وكما سبق أن قلنا (صفحة ٦) إن حاران هى عاصمة دويلة فدان أرام، إحدى الدويلات الأرامية على جزء الفرات العلوى الموجود بسوريا وكان القوم يعبدون القمر باسم الإله «سين» وبنوا له معبدا كبيرا على ربوة عالية (زقورة) كما هى عادتهم.

وكان إبراهيم يدعو الناس إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام، وآمن به عدد كبير من الناس، وكان لايزال يطمع فى أن يؤمن أبوه وظل يلحّ على أبيه كى يؤمن:

«يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويًّا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا». (٤٣ – ٤٥ مريم)

وكما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين». (٥٦ – القصص)

فقد كان الله عالما أن أبا إبراهيم لن يكون من المهتدين، وبقى أبو إبراهيم على عبادة الأصنام، ومات على الكفر ودفن فى حاران، لطالما كا يتمنى إبراهيم أن يؤمن أبوه قبل موته!

وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لوالده بعد أن مات ويطلب له الرحمة. فهذا كل ما يمكنه أن يفعل، فالأمر متروك كله لله.

«إلاَّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ». (من آية ٤ – الممتحنة)

ولعل الله بعد ذلك أوحى لإبراهيم أن لا يستغفر له لأنه مات على الكفر، وأشار القرآن الكريم لذلك فى قوله تعالى:

«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاَّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم». (١١٤ – التوبة)

وبقى إبراهيم عليه السلام فى حاران يدعو إلى الله، وكان قد بلغ من العمر سبعين سنه أو أكثر قليلا.

كان يشعر فى قرارة نفسه أن هناك أحداثا جساما تنتظره. ولكنه لا يدرى عنها شيئا. لقد أسلم وجهه لله. بل لقد أسلم أمره كله لله.

«إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

لقد خرج مهاجرا إلى الله. فلينتظر ما تأمر به السماء.

وأوحى إليه أن اخرج من حاران. فخرج منها . وكان عمره يقترب من الخامسة والسبعين. وكان ذلك حوالى عام ١٩٠٣ ق.م.

واتجه إبراهيم عليه السلام غربا وعبر نهر الفرات ونزل فى منطقة بشمال الشام وضرب بها خيامه، وكثر غنمه. وكان البدو يجيئون من الصحراء وقد أصابهم القحط والجوع فيغمرهم بفضله. ويأمر بحلب البقر والغنم التى معه ليسقيهم. وكان يفعل ذلك كل يوم وكان البدو يفدون ويسألون: هل حلب إبراهيم غنمه؟ ليصيبوا بعضا من لبنها . فسمى المكان «حلب» (شكل ٢٧ .٢٨ ص ٦٤) ولكرمه سُمّى إبراهيم عليه السلام **أبا الضيفان.**

وتقول بعض الروايات أنه كانت له بقرة شهباء. وكان يقال حلب الشهباء. ومن هنا جاء وصف مدينة حلب بالشهباء.

ويذكر الأستاذ عبد الحميد جودة السحار قصة عن شيخ جاء يتوكأ على عصا . فهرع إبراهيم إليه وقاده إلى خيمته وسقاه وأطعمه. ودعاه بعد ذلك إلى عبادة الله وحده. ولكن الشيخ كان من عبدة الأصنام، فأخرج صنمه من متاعه وسجد له. فقال له إبراهيم: لا يُسْجَدُ فى خيمتى إلا لله وحده وطرده فى جوف الليل. وأطرق إبراهيم وأحس أنه يوحى إليه. وإذا بالوحى يسأله: ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم؟ فقال طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام، وسجد لغير الله، وأبى أن يؤمن بالله. فقيل له: حمله ربك يا إبراهيم مائة سنه وهو يعبد غيره ويأبى أن يحمده، وأنت لم تحتمله ساعة. وما ضرك بشئ ولا أساء إليك. فراح إبراهيم يبحث عن الرجل فى ظلمة الليل حتى وجده يتوكأ على عصاه والرياح والبرد يعصفان به. فعاد به إلى خيمته وأكرمه.

فى دمشق :

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره. وفى كل مكان نزل به كان يدعو الناس إلى عبادة الله وحده. حتى وصل إلى دمشق. وكان من بين من آمنوا به رجل إسمه أليعازر. ظل ملازماً لإبراهيم. ولمس إبراهيم عليه السلام صدق إيمانه وإخلاصه وأمانته. فجعله مشرفا على عبيده وغنمه وعرف باسم أليعازر الدمشقى (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله - الجزء الأول ص ٢٥٦)

وكان فى دمشق معبد للإله «بعل» وأخته «عنت» وكان المعبد مزيجا من معابد البابليين ومعابد المصريين وكانت به تماثيل «لشماس» و«عشتار» و«سين» وتماثيل لآلهة المصريين. فقد كانت الشام فى ذلك الوقت على علاقة طيبة ووطيدة بمصر.

كانت مصر فى ذلك الوقت فى أوائل حكم الأسرة الثانية عشرة التى أسسها أمنمحيت (= أمنحتب) الأول وأعاد النظام إلى البلاد بعد الفوضى التى سادتها فى أواخر حكم الأسرة الحادية عشرة. وأقام تحصينات على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لتأمين قوافل التجارة وبذلك ازداد التبادل التجارى مع الشام وفلسطين. وكانت المدن المصرية تستقبل وفودا منهم للتجارة. وكانت اللغة المصرية معروفة لأهل الشام. وكان التجار المصريون يترددون على نواحى لبنان والشام. وازدادت العلاقات بين مصر والشام فى عهد خلفه سنوسرت الأول وتلاه من بعده أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى وتمتعت مصر طوال حكم هذين الملكين بالرخاء والرفاهية على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها. كل ذلك جذب إليها المهاجرين الأسيويين. وزاد عددهم فى عهد سنوسرت الثانى - فكانوا يفدون على أقاليم مصر الشرقية والدلتا للتجارة فى الكحل والروائح العطرية التى كان المصريون يستعملونها بكثرة.

كذلك كان التجار المصريون يترددون على نواحى لبنان والشام وفلسطين. وقد عثر فى هذه النواحى على أوانى وجعارين نقشت بأسماء أفراد مصريين. كما عثر على تماثيل لمعبودات مصرية فى مدن الشام. وهكذا كان هناك نوع من العلاقات الحميمة بين البلدين.

ولاشك أن إبراهيم عليه السلام سمع وقتئذ عن مصر وما يقال عن رقى حضارتها. وعرف أيضا أنهم هناك يعبدون آلهة غير الله ويصنعون لها تماثيل ضخمة ومعابد كبيرة. ولعله أضمر فى نفسه أن يزور هذه البلاد علَّ الله يجعل هدايتهم على يديه. ولكنه ما كان ليفعل ذلك من تلقاء نفسه إلاَّ أن يتلقى وحيا من الله بذلك.

تُجمع الكتب على أن أتباع إبراهيم آنذاك كانوا كثيرين ويُعدُّون بالآلاف. كذلك كانت ثروته من الغنم والعبيد عظيمة. ولكنه مع ذلك آثر فى أثناء هجراته أن يتخذ طريق الجبال حتى لا يحدث اشتباك مع أهالى البلاد التى يمر بها. وإن كان المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» قد ذهب إلى أن إبراهيم قد استولى على دمشق وأصبح «ملك دمشق»!!

ويقول نقولا الدمشقى إن إبرامس (إبراهيم) حكم فى دمشق. ولكن الشك يكتنف هذه الأقوال فقد كان مثل هذا الأمر جديرا بأن يذكر فى القرآن الكريم أو أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إشارة تدل على حدوث ذلك.

كذلك فإن التوراة لم تذكر هذا الأمر. بل إنها لم تذكر أنه مر على دمشق بل تذكر أنه خرج من حاران إلى شكيم مباشرة. إلاَّ أن طريق القوافل القادمة من حاران إلى أرض كنعان كان

لابد أن يمر على حلب ومن بعدها دمشق. ولو كان إبراهيم عليه السلام قد ملَكَ دمشق فعلا لكان حرياً أن يفرض عبادة الله الواحد الأحد بها. ثم يحاول مد نطاق هذه العبادة علي ما حولها من مدن. ويصبح من غير المفهوم لماذا ترك القوم يعبدون الأصنام.

ومن الذين يقولون بأن إبراهيم عليه السلام قد استولى على دمشق، الأستاذ عبد الحميد جودة السحار (محمد رسول الله. جزء أول ص ٢٨٠) إذ يقول: إن الكهنة وقد أفزعتهم دعوته للتوحيد ونبذ عبادة الأصنام، ألَّبوا عليه الناس ليخرجوه من أرضهم، فاضطر إبراهيم وأعوانه إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم. وكان أعوان إبراهيم وأتباعه كثيرين. فانتصروا ودانت لهم دمشق كلها بقصورها وكنوزها. ولكنه ككل نبي، زهد في ذلك وعاد إلى خيامه. ولكن الاستاذ السحار لم يذكر لماذا وهو الذى كسَّر الأصنام سرا في أور لماذا لم يعمد إبراهيم عليه السلام لمحو عبادة الأصنام من دمشق وقد أصبح سيدها والمتصرف في أمرها!!

لذلك فإنه من المرجح أنه كانت هناك مناوشات بينه وبينه رجال الدين والقوم المدافعين عن أصنامهم. وتمكن إبراهيم من صدِّها لوفرة عبيدة وأتباعه ولكن ليس لدرجة استيلائه على دمشق.

أقام إبراهيم عليه السلام ردحا من الزمان فى خيامه فى ضواحى دمشق يدعو الناس إلى عبادة الله واستجاب له عدد كبير من الناس. وكثر أتباعه. ولكن لاحاران ولا دمشق كانت له هدفا. لذلك تركهما وتابع سيره إلى أرض كنعان. وهى الأرض التى أمره الله بالتوجه إليها.

اتجه إبراهيم عليه السلام جنوبا واتخذ طريق القوافل المار فى شرق الأردن إلى **راموث جلعاد** (كارل راسموسن. ن . أ . ف. أطلس الكتاب المقدس ص ٧٧) ثم إلى **وادى نهر حبوق** (أو نهر يبوق) ويسمى حاليا وادى الزرقا. إلى مدينة **سكّوت** ثم عَبَر نهر الأردن وسار غربا حتى وصل إلى **وادى فاريا**. وهو وادى فسيح غير عميق. بين جبل إيبال وجبل جرزيم. وكان أول ما قابله هو **بلوطة مورة** – وهى من ضواحى شكيم. وفى بلوطة مورة بنى إبراهيم مذبحا للرب ثم توجه إلى **شكيم** نفسها.

وتقع شكيم فى منتصف المسافة تقريبا بين الطرف الشمالى للبحر الميت وبحيرة طبرية – وإلى الشرق قليلا من منتصف المسافة من نهر الأردن إلى البحر المتوسط. وهى مدينة هامة على طريق القوافل من أرض كنعان إلى دمشق فشمال سوريا والفرات. ومكانها حاليا تل البلاطة – إلى الشرق مباشرة لمدينة نابلس الحالية.

تقول التوراة (إصحاح ١٢ تكوين) :

وقال الرب لأبرام. اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك

فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظِّم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران، فأخذ أبرام سارای امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكها في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام في الأرض وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض. فبنى مذبحاً للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وبين بيت إيل من المغرب وعای من المشرق بنى هناك مذبحاً للرب. ودعا باسم الرب. ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

وهكذا بنى إبراهيم عليه السلام مذبحاً فى شكيم ثم اتجه جنوباً حتى وصل إلى **بيت إيل** ومعناها بيت الله. والمدينة القديمة كانت تقع ١١ كم شمال القدس الحالية (ولعلها الآن إحدى ضواحيها).

وتقع عاى إلى الشرق من بيت إيل على بعد ١٥ كيلو متراً. ونزل إبراهيم ونصب خيامه بين عاى فى الشرق وبيت إيل فى الغرب.

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره جنوباً حتى وصل إلى مدينة **حبرون** وهى مدينة الخليل الحالية وتقع على بعد ٣٠ كم جنوب غرب القدس. كانت حبرون على طريق القوافل المارة من العراق والشام إلى مصر والحجاز. والتقى إبراهيم عليه السلام بالصابئين. وصحح لهم عقيدتهم التى كانت انحرفت بعض الشيئ عن الدين القويم والملة الحنيفية التى جاء بها إدريس عليه السلام.

الصابئون :

جاء ذكر الصابئة فى القرآن الكريم ثلاث مرات :

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (٦٢- البقرة)

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليه ولا هم يحزنون». (٦٩ – المائدة)

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد». (١٧ – الحج)

وعن أصلهم توجد عدة آراء :

جبل إيبال
جبل جرزيم
نابلس الحالية
بلوطة مورة
شكيم
تل البلاطة
وادى فاريا
صيد
دمشق
صور
عكا
بحيرة طبرية
البحر المتوسط
راموث جلعاد
سكوت
وادى الزرقا
بلوطة مورة
شكيم
نهر يبوق
عاى
بيت إيل
أشدود
عسقلون
غزة
حبرون
البحر الميت
طريق القوافل شرق الأردن
رفح
بئر السبع
إلى مصر

شكل ٢٩ – من دمشق إلى حبرون

ففى شذرات الذهب لعبد الحى بن أحمد بن العماد الحنبلى فى ترجمة أبى اسحق الصابئى ما نصه: الصابئى نسبة إلى صابئ بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وكان على الحنيفية الأولى، وقيل الصابئ ابن ماوى، وقيل إن ملة إدريس عليه السلام هى الصابئة وهى توحيد الله تعالى والطهارة والصوم، فقد كانوا يصومون ثلاثين يوماً متفرقة فى السنة، وكانوا يتشددون فى الطهارة، فكاوا يتحرجون من ملامسة غير الصابئين ويتطهرون إذا لمسوا غريباً فى أثناء عباداتهم، وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجاتهم الدائمة إلى التطهر بالماء لذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى السابحين، فإن ملامسة الغريب فى أثناء العبادة توجب عليهم الاغتسال والسبح فى الماء.

ويقال إنهم آل بيت إدريس عليه السلام، ظلوا على الحنيفية، ولما طال الأمد بعد رفع إدريس ودخلت الوثنية فى الديانة المصرية القديمة كما سبق أن ذكرنا (الجزء الأول ص ٦٩) رحل الصابئون عن مصر، وانتشروا على قلتهم فى الشام والعراق، وبعضهم رحل إلى الحجاز وكانوا يكتمون كتابهم المقدس وسموه «كنزة» وكانوا يباشرون شعائرهم الدينية فى الخفاء.

ويقول الإمام أبو حنيفة (تفسير الألوسى – روح المعانى – الجزء الأول ص ٢٧٩): إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظمون النجوم ويُصلّون إلى الكعبة، واسم الصابئة من صبأ أى خرج أو من صبا بمعنى مال، لخروجهم عن الدين الحق وميلهم إلى الباطل.

وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أنهم كانوا يقولون، إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأمره وأحكامه إلى متوسط روحانى لا جسمانى، ومدار مذهبهم التعصب للروحانيات، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بذاتها فزعوا إلى هياكلها وهى السبع كواكب السيارة وبعض الثوابت، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية، وأنه لابد من مخلوق وسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله عز وجل، دعاها بأسمائها فكانت، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلاً بوساطة مخلوق وسط بين النور والتراب، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله.

وملخص رأى العالم الفقيه سيف الدين الآمدى (الأديان فى القرآن، الدكتور محمود بن الشريف . ص ١٦٢– وهو الإمام أبو الحسن على بن محمد المكنًى بأبى على بن سالم التغلبى) عن ملة الصابئة، كما يلى:

– الكواكب الفلكية هى هياكل روحانية تعمل كرابطة وواسطة بين الإنسان والإله المعبود – وهذه الكواكب هى المدبِّرة لكل ما فى الكون.

– بما أن الكواكب تغيب عن الرؤية فى أوقات بسبب دورانها فى أفلاكها . فيلزم وجود نُصُب أو أصنام على صورتها لتكون حاضرة أمام الأعين فى كل الأوقات.

– ثم تأتى نظرية «الحلولية» لتربط الجميع. فالإله واحد فى ذاته. وهو الذى خلق الكواكب. وجعلها مدبِّرة لما فى العالم. والإله يَحُل فى الكواكب السبعة. ومن ثَمَّ يَحُل فى النُصُب والشخوص التى ترمز لها من غير تعدد فى ذاته.

كما أنهم يعتقدون أن الكون كونان، وأن الخلق خلقان، فالكون الظاهر غير الكون الباطن. ولكل مخلوق فى عالم الشهادة صور محجوبة فى عالم الغيب. كما أنهم يؤمنون باليوم الآخر. ويؤمنون بالحساب والعقاب، وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور، وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلمة، فيلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ثم ينقلون منه إلى عالم النور.

وقد صحَّح إبراهيم عليه السلام عقيدتهم وردهم إلى الحنيفية الخالصة فنبذوا عبادة الكواكب أو أى رموز وعادوا إلى الطريق القويم. فاتبعوا تعاليم إبراهيم عليه السلام وإن ظلوا يُسمَّون بالصابئة.

أقام إبراهيم عليه السلام فى حبرون عدة سنوات. وكثر عبيده وأتباعه. وكثر ماله وكثرت أغنامه. وبعد مدة قرر زيارة مصر.

فى مصر :

كانت مصر فى عام ٢١٠٠ ق.م. تمر بتغيرات كبيرة عقب سقوط الدولة القديمة فقد كانت مصر منقسمة إلى مملكتين : (شكل ٣٠)

١ – **الجزء الشمالى** يشمل الدلتا وجزءاً من الوجه القبلى حتى أبيدوس. ويحكم فيه ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة. وعاصمتهم **هيراكليوپوليس** (إهناسية) بدلاً من منف.

٢ – **الجزء الجنوبى** ويشمل باقى الوجه القبلى حتى جزيرة فيلة قرب الشلال الأول. ويحكم فيه ملوك الإسرة الحادية عشرة وعاصمتهم **طيبة**.

وكانت فترة عدم استقرار اجتماعى. وكما قالوا عنها فى كتاباتهم: إن الأغنياء كانوا يعملون فى الحرف، والفقراء صاروا أسياداً، ومقابر الملوك نهبت، وحدثت مجاعات والخراب فى كل مكان.

ثم تولى الحكم **أمنحتب الأول** عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريباً وبحكمه بدأت **الأسرة الثانية عشرة.** وحاول توحيد البلاد والحد من أطماع أمراء الأقاليم وحدد لكل أمير منطقة. فاختفت المنازعات بينهم وبدأ عصر من الاستقرار. ثم تمكن من هزيمة حكام هيراكليوپوليس وأعاد توحيد الشمال والجنوب وبدأ عصر الدولة الوسطى الذى شهدت فيه مصر كثيراً من الاستقرار. ورأى أن بلدة طيبة تقع فى جنوب مصر وتبعد عن شمالها. فتركها وبنى عاصمة جديدة سماها «أتت

غزة
منف
أتت تاوى
هيراكليوبوليس
هرموبوليس
المملكة الشمالية
القصير
قفط
أبيدوس
الكرنك
طيبة
المملكة الجنوبية
أسوان
الشلال الأول

شكل ٣٠ – انقسام مصر إلى مملكتين عقب سقوط الدولة القديمة

تاوى» أى القابضة على الوجهين البحرى والقبلى - ٣٠ كيلو متر جنوب منف ومكانها حالياً قرية اللشت مركز العياط .

تولى بعده **سنوسرت الأول** (عام ١٩٧٠ ق . م . تقريبا) . واستكمل ما بدأ فى عهد والده من حماية مصر من الليبيين فى الغرب. ووطد نفوذ مصر فى الجنوب فى بلاد كوش وراء الشلال الثانى. وجابت رسله فلسطين وسوريا بانتظام. وشيد لنفسه هرماً فى أتت تاوى وبنى معبداً للإله «رع» فى مدينة أون «عين شمس» لم يبق منه سوى مسلة بالقرب من المطرية لاتزال شاخصة فى مكانها .

جاء بعده **أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى**، ودام حكمهما ٤٨ عاماً (١٩٣٦ - ١٨٨٨ ق.م.) وتميز بالرخاء والرفاهية - الأمر الذى جذب المهاجرين الأسويين فوفدوا إلى مصر فى أعداد كبيرة.

اتخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة «آمون» إلهاً خاصاً لهم. ثم أصبح إلهاً رئيسياً مركز عبادته مدينة عين شمس وتسمّى باسم «آمون رع».

فى هذه الفترة - كانت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر.

زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر :

خرج إبراهيم عليه السلام من حبرون. ومر على آبار فى الطريق هى المساة بئر السبع. ثم اتبع طريق القوافل المتجه إلى مصر (شكل ٣١). وصل إلى «أتت تاوى» إذ كانت هى العاصمة فى ذلك الوقت وبها الفرعون، ولعله كان سنوسرت الثانى. وكما سيجئ فيما بعد فإن الملك أيقن أنه أمام رجل يحميه ربه لذلك آثر ألا يؤذيه بشئ وأعطاه هبات كثيرة وسمح له بالتجول أينما شاء. فوصل إلى وسط الوجه القبلى تقريباً عند مدينة بنى حسن.

زمن الزيارة :

اختلف المؤرخون فى الزمن الذى حدثت فيه هذه الزيارة. فيرى فريق منهم (الأستاذ عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله . جزء ١ ص ٢٩٥). أن الزيارة تمت فى الوقت الذى كان ملوك الهكسوس يحكمون مصر . وأن ملكهم فى ذلك الوقت كان اسمه سنان بن الأشل بن عبيد.

ومن المؤكد أن يوسف عليه السلام جاء إلى مصر وبيع إلى أحد وزراء مصر فى عهد الهكسوس وتقول كتب التفسير الإسلامية (تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٠٦) إن الملك يومئذ كان اسمه الريان بن الوليد العمليقى. وهو اسم أسيوى يدل على حكم الهكسوس. ولما

البحر المتوسط

حبرون

غزة

بئر سبع

أون

منف

أتت تاوى

هيراكليوپوليس

بنى حسن

هرموپوليس

البحر الأحمر

شكل ٣١ - إبراهيم عليه السلام فى مصر

.... خط السير

كان يوسف عليه السلام قد جاء إلى مصر فى السنة العشرين أو الثلاثين من حكم الهكسوس الذى دام ما يقرب من ١٥٠ سنة. فإنه يتعين أن يكون حكمهم بدأ بعد زيارة سيدنا إبراهيم لمصر بمدة طويلة. والوقت المرجح لهذه الزيارة هو عام ١٨٩٨ ق.م. فى حين أن حكم الهكسوس لمصر بدأ فى عام ١٧٨٠ ق.م، أى بعد زيارة إبراهيم لمصر بما يقرب من ١٢٠ عاماً.

وعلى ذلك فزمن الزيارة كان فى عصر الأسرة الثانية وخاصة وقت ازدهارها فى عهد أمنمحيت الثانى وسنوسرت الثانى وسنوسرت الثالث. ومن الصعب تحديد الوقت بالدقة ولكن المرجح هو فى عهد سنوسرت الثانى (انظر الجدول ص ٦٧).

وقد وجد نقش على جدران إحدى مقابر بنى حسن مركز قرقاص تمثل وفداً جاء فى السنة السادسة من حكم سنوسرت الثانى وكان الوفد يتألف من سبعة وثلاثين شخصاً من البدو بين رجال ونساء وأطفال ارتدوا ملابس صوفية مزركشة. وترك الرجال لحاهم وجلبوا معهم الحمير التى حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بنى حسن (شكل ٣٢).

يتخذ علماء التاريخ من هذا النقش دليلاً على رخاء مصر ورفاهيتها. الأمر الذى جذب إليها المهاجرين الآسيويين الذين كانوا غالباً ما يقيمون فى الأقاليم الواقعة شرق الدلتا. ولو كان هذا النقش موجوداً فى مقبرة فى الدلتا أو فى الجزء الشمالى من الوجه القبلى لكان هذا التفسير معقولاً. ولكن وجوده فى بنى حسن. قرب ملوى يوحى بأن سبب الزيارة شيئ آخر غير التجارة. كما أن قدوم وفد للتجارة ليس له هذة الأهمية البالغة بحيث يستحق تسجيلها وإلا لوجدنا عشرات ومئات من هذه النقوش على عدد من المقابر فقد كانت وفود التجار الأسيويين تفد على مصر طوال حكم الأسرة الحادية عشرة (٦٥ سنة) والأسرة الثانية عشرة (٢١٥ سنة) واستمر بعد ذلك حتى كان استيلاء الهكسوس على مصر فى العصر المتوسط الثانى فى عام ١٧٨٠ ق.م تقريباً.

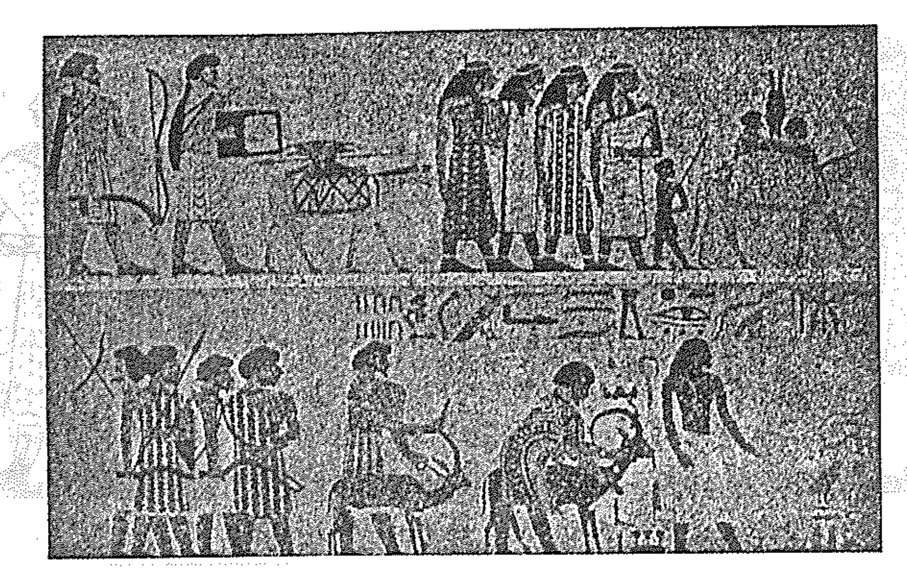
كذلك كان الأسيويون يقومون أحياناً ببعض الغارات للحصول على الحبوب للغذاء حينما يصيب القحط بلادهم. وكان المصريون يصدون هذه الغزوات. وقد يسجلونها لو كانت غزوة كبيرة لتخليد انتصارهم. وكانوا حينئذ يصورون الأسيويين مقيدين أو يسجدون للفرعون. بعكس النقش المشار إليه فى مقبرة بنى حسن الذى صوّر الأسيويين مرفوعى الرأس ومعهم رماحهم. وشكل ٣٣ يبين جزءاً من الرسم وبه أربعة رجال فى أيديهم رماح. بعدهم حمار يحمل طفلين ثم أربع نساء ثم حارسين بالقوس والنبال. وكان الوفد كله يتكون من ٣٧ شخصاً. كما أن توغل الوفد إلى وسط الصعيد يوحى بأنها لم تكن مجرد زيارة عابرة للتجارة. كذلك فإن الكتابة الموجودة بجوار النقش تقول: ويتقدم الجماعة رئيسها. حاكم البلاد الأجنبية «إبشاى» ويحمل لقب «حق» أى الأمير (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى

القديم جـ ٣ ص ٧٢). ومن المسلم به أن إبراهيم عليه السلام كان رئيس الجماعة التى كانت معه عند زيارة مصر. كما أنه كان من القوة فى حبرون وبئر سبع حتى أن ملك جرار هادنه. والبعض كما سبق أن ذكرنا يقول بأنه قد ملك دمشق. لذلك فإن وصف «حاكم البلاد الأجنبية» ينطبق عليه.

و «حاكم البلاد الأجنبية» لا يمكن أن يأتى فى وفد للتجارة - كما أنه لو كان وفداً جاء لأسباب سياسية. لتوقيع معاهدة مثلاً لكان الواجب أن يُسجَّل ذلك - كما كان يسجَّل - على جدران أحد المعابد. وتُذكر اسم الدولة التى يمثلها. كما حدث عندما عقد رمسيس الثانى معاهدة عدم الاعتداء مع الحيثيين.

من هذا يمكننا أن نفترض - بغير مغالاة - أن هذا النقش قد يكون يمثل زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر. وشكل ٣٤ مأخوذ عن أحد المراجع الألمانية ومكتوب تحته أن زمن زيارة الوفد ترجع إلى عصر إبراهيم، ولو دققنا النظر إلى ملابس النسوة الأربع فى شكل ٣٣ - ٣٤ لوجدنا أن زى ثلاث منهن متشابه ويغطى الكتف اليسرى فى حين يترك الكتف اليمنى عارية. وكانت هذه عادة النساء الأسيويات. أما زى الرابعة فهو يغطى الكتفين كعادة المصريات (شكل ٣٥) وعليه يمكن افتراض أن النسوة الأربعة كن: سارة وزوجة لوط، وزوجة أليعازر. أما الرابعة ذات الزى المصرى فهى هاجر.

وفى النهاية يمكننا أن نضع التصور الآتى: إن فرعون مصر لما رأى من قدرة رب إبراهيم ورعايته لسارة زوجته (التى سنذكرها فيما بعد) فإنه أيقن أنه رجل له كرامات. فكان أن أعطى سارة هدية هى هاجر المصرية. وكذلك أعطى إبراهيم عطايا كثيرة من الغنم والهدايا. ويبدو أن إبراهيم عليه السلام قابل كهنة «أون» و «منف» و «هيراكليوبوليس» وناقشهم ودعاهم إلى الإيمان بالله وحده أو لعله أطلعهم على البديهية من أن الإله لابد أن يكون واحداً ولابد لجلاله وعظمته أن يكون غيباً لا يرى. بالطبع كانت هذه المبادئ تتعارض مع ديانة البلاد فاستحال أن تسجل الزيارة على جدران أحد المعابد. أما سبب تسجيل الزيارة على جدران مقبرة حاكم الإقليم فإنه يمكن افتراض أن صاحب المقبرة أراد أن يُسجل حسن معاملته لهذا الرجل المبارك - الذى يحميه إلهه من كل سوء - حتى يكون ذلك شفيعاً له فى الحياة الآخرة بحيث يوضع ذلك فى ميزان حسناته. وقد سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول ص ٧٦. ما يقوله الميت يوم الحساب لتبرئة ساحته أمام قضاة الآخرة: يارب الحقيقتين هأنذا أجئ إليك أجلب الحقيقة. وأطرد الإثم. إنى لم أقترف إثماً ضد البشر. ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة. ولعله أراد أن يضيف. ليس قولاً فقط. بل تسجيلاً بالصورة: وقد أكرمت هذا الرجل المبارك من ربه. ولم أسبب له أى أذى. وإذا تركنا العنان للخيال قليلاً يمكننا القول بأن الرجل قد آمن سراً بإبراهيم عليه السلام وأراد بتسجيل هذه الزيارة فى مقبرته أن يكون معه فى الآخرة ليشفع له.



شكل ٣٢ – نقش موجود على جدار مقبرة أحد أمراء بنى حسن يمثل وفداً أسيوياً قدم لزيارة مصر



شكل ٣٣ – رسم توضيحى لجزء من النقش فى شكل ٦٨ ويلاحظ فى ملابس النسوة الأربع إختلاف زى إحداهن عن الثلاث الأخريات من حيث تغطية الأكتاف



Agyptische Wandmalerei in dem Grab des Chnumhotep bei Beni-Hassan, einen Zug von Semiten darstellend. Die Malerei stammt aus der Zeit Abrahams.

شكل ٣٤ – جزء من النقش منقول عن مرجع ألمانى .
الكتابة أسفل الرسم تقول إن زيارة الوفد ترجع إلى عهد أبراهام



شكل ٣٥ – أجزاء من رسوم مختلفة تبين أن زى المصريات كان يغطى الكتفين .

سبب زيارة إبراهيم لمصر :

كما اختلف المؤرخون فى وقت الزيارة – كذلك اختلفوا فى سببها بعضهم قال (الدكتور ما يرف ف.ب. ماير – عن دكتور بيومى مهران . دراسات تاريخية من القرآن الكريم جزء ١ ص ١٣٥) إن قحطاً ومجاعة أصابت أرض كنعان فهاجر إبراهيم إلى مصر حيث الخصب والنماء. وبذلك أيضاً تقول التوراة (اصحاح ١٢ تكوين): «وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر». ولكن القحط كان حريا أن يدفع بجموع كبيرة تصل إلى موجات أو هجرات استيطانية. ولم يكن الحال كذلك. فضلاً عن أن باقى أتباع إبراهيم عليه السلام من مواشى وعبيد وكانوا عدة آلاف بقوا فى حبرون – أى أن مقومات المعيشة كانت لاتزال متوافرة فى أرض كنعان وهذا ينفى أن يكون سبب الزيارة هو قحط أو جوع فى الأرض.

الرأى الثانى قد يكون أن وجود حبرون على طريق القوافل بين الشام ومصر وتوثق العلاقات بين مصر والشام جعل إبراهيم عليه السلام يسمع عن مصر وعظمتها، وضخامة مبانيها، ورقى حضارتها، ولمس ضلال عقيدتهم الدينية وعبادتهم للأصنام. ولعله أضمر فى نفسه زيارة مصر علّه يستطيع هداية قومها. ويقول يوسف بن متى المؤرخ اليهودى: اعتزم إبراهيم زيارة مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها فى أمر الله. وفى نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله – أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها. والإفتراض الأول مرفوض رفضاً قاطعاً. فما من دين هو خير من دين الله.

«ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا».

(١٢٥ – النساء)

ويتبنى الأستاذ عبد الحميد جودة السحار رأياً ثالثاً (محمد رسول الله والذين معه. جزء أول – ص ٣٠٨). إذ يقول إن الكنعانيين رأوا رجال إبراهيم وعبيده الكثيرين يشاركونهم مراعيهم وأرضهم. ثم بدأ إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام. فحنق الكنعانيون على إبراهيم. وكانت العلاقات بين مصر والشام وفلسطين علاقات حميمة تصل إلى حد أن تكون هذه المناطق فى حماية ملك مصر. فأرسل الكنعانيون، وفداً إلى ملك مصر يستنصرونه ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب هؤلاء الوافدين الذين شاركوهم أرضهم وسفهوا آلهتهم. وقال بأن ملك مصر أرسل حملة أغارت على خيام إبراهيم وأسرت بعض أتباعه. وأسروا فيمن أسروا – سارة زوجته وحملوها معهم إلى مصر. كان إبراهيم فى ذلك الوقت غائباً عن خيامه فلما عاد وعلم بما حدث امتطى هو ولوط وأليعازر الدمشقى وبعض المؤمنين رواحلهم وتوجهوا صوب مصر لتخليص سارة.

وهذا الرأى لم يقل به أحد غيره. ولعله رأى بهذا التصور لما حدث أن يتخلص من الجدل

الذى ثار حوله مقولة إبراهيم عن سارة إنها أخته وليست زوجته فجعلها تقع أسيرة فى يد ملك مصر. ولا نظن أن ذلك حدث حقيقة. فإن أتباع إبراهيم كانوا من الكثرة ومن القوة – بدليل ما قالوه من أنه قد استولى على دمشق – وما كانوا لينهزموا أمام حملة صغيرة أرسلها الفرعون لتأديب المغيرين.

والرأى الصحيح أن زيارة إبراهيم عليه السلام كانت بتدبير من الله سبحانه وتعالى لإعادة غرس فكر التوحيد فى أرض مصر. وكان إدريس عليه السلام قد أتى به ولكنه اندثر بمضى السنين. وأيضاً ليعود بهاجر المصرية ويتزوجها فيما بعد لتلد له إسماعيل ابنه البكر وأبو العرب.

قول إبراهيم عليه السلام عن سارة إنها أخته !

فى زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر نقطة شائكة، ثار حولها جدل كبير وكثير. ووصلت الخلافات فى الرأى إلى حد عنيف. هذه النقطة هى ما نسب إليه من قوله عن سارة زوجته إنها أخته.

ولنبدأ بما ذكرته التوراة فى هذا الشأن (إصحاح ١٢ – تكوين) :

وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هُناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونى ويستبقونك. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك. فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى إمرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذى صنعت بى. لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية من القرآن الكريم جزء ١ ص ١٣٦) ويعلم الله وتشهد ملائكته أن نفسى تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التى يلصقها كاتب سفر التكوين بأبى الأنبياء. فتلك فعلة لا يقبلها على نفسه ولا يرتضيها لعرضه أحط الناس، فضلاً عن أن يكون ذلك نبى الله وخليله العظيم. ومع ذلك فإذا رجعنا إلى نصوص التوراة نفسها لعلمنا أن إبراهيم قد جاء إلى كنعان وهو فى الخامسة والسبعين من عمره وأن سارة كانت فى الخامسة والستين (تكوين ١٢ ، ١٧) وأنهما أقاما فى أرض كنعان

ماشاء الله لهما أن يقيما. ثم هاجر إلى مصر فهل كانت سارة وقد جاوزت الخامسة والستين من عمرها بسنين عدداً تفتن الرجال. فضلاً عن أن يكون فيها لملوك مصر المترفين إرباً، ثم أليست هي نفسها قد وصفت في إصحاح آخر - بعد أن بُشرت بإسحق. بأنها قد صكت وجهها وضحكت وقالت: أيحدث هذا مع عجوز عقيم انقطعت عنها عادة النساء وبعلها شيخ كبير. وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى:

« وأمرأته قائمة، فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشئ عجيب». (٧١ - ٧٢ هود)

أضف إلى ذلك أن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصباً. ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أقسى العقوبات.

ويستمر الدكتور بيومي مهران قائلاً: ومن عجب أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد تابعوا التوراة في مزاعمها. فيروون القصة - كما جاءت في التوراة ويفسرون قول إبراهيم عن سارة إنها أخته بأنها كانت أخته في الإسلام لأنه ليس على وجه الأرض غيرهما مؤمن.

ويوافق على القول عديد من كبار المفسّرين مع أن قوله تعالى :

«فأمن له لوط». (من الآية - ٢٦ - العنكبوت)

وقوله : **«قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إذا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله»** (من الآية ٤ . المتحنة)

فهاتان الآيتان تشيران إلى أنه كان هناك مؤمنون آخرون. وهذا ما دعا الإمام ابن كثير إلى الاستدراك بقوله: إن إبراهيم إنما كان يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك. مع أن لوطاً كان معه زوجته. وأضيف أيضاً أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ليجئ إلى مصر إلا ومعه عدد من أتباعه وعبيده. يرأسهم أليعازر الدمشقي ولابد أن بعضهم كانت معه زوجته - ولابد أن هؤلاء كلهم كانوا مؤمنين. إذ ما كان إبراهيم عليه السلام ليقبل أن يكون من أتباعه من يعبد غير الله.

بهذا كله ينتفي أي سند لما قالوه كتبرير لهذه المقولة من أنه كان يقصد إنها أخته في الإسلام، أو أنهما كانا الزوجين الوحيدين المسلمين آنذاك.

وقد سبق أن ذكرنا أن الأستاذ عبد الحميد جودة السحار تخلص من هذا الموقف بأن ذكر أن الحملة التي أرسلها فرعون مصر لما استنجد به الكنعانيون أسرت سارة وعادت بها إلى مصر. ولما رأوا جمالها حملوها إلى قصر الملك وهو مأخوذ بجمالها ليبسط إليها يده فقُبضت يده قبضة شديدة وكرر المحاولة مرتين وفي كل مرة كانت يده تُقْبض. فنزلت به رهبة شديدة،

واستشار الكهنة. فقالوا إن هذا من غضب الآلهة إذ هممت بامرأة رجل غريب. وسأل عن زوجها. وكان إبراهيم ومرافقوه قد وصلوا مصر ودخلوا على الفرعون وعرَّفه إبراهيم بنفسه وأنه رسول يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وأكرم فرعون ضيوفه. وأخبر إبراهيم أن الله صان زوجته فلم يقربها وأعطاه أنعاماً كثيرة وعبيداً. ووهب لسارة هاجر المصرية لتكون جارية لها.

وكان أعنف جدل أثير حول هذه النقطة هو ما حدث عندما نشر الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابة «قصص الأنبياء». والأستاذ عبد الوهاب النجار كان عضواً في هيئة التدريس بالأزهر الشريف وكان مكلفا بالقاء دروس في قصص الأنبياء على طلبة قسم الوعظ في السنة الدراسية ١٩٣٠ - ١٩٣١. وكان رأية الذي دونه في كتابه أنه استبعد ما قصته التوراة في هذا الشأن. وقال «وأحذِّر كل مؤمن أن يُصدِّق ما جاء بها من ذلك فإنها توهم أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها ليكون له خير من ذلك - وخوفا من أن يقتلوه. وأنا أعيذ إبراهيم من هذا النقص الشائن وأقول إن سارة لما كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر».

وتألفت لجنة من بعض علماء الأزهر الشريف بأمر من فضيلة شيخ كلية أصول الدين للنظر في ماجاء بالكتاب من آراء. ووجهوا نقدا عنيفا لاستبعاده حدوث القصة كلية بناء على ورودها في التوراة وعلى سن سارة وقتها. وكان ملخص رد اللجنة كالآتي: بالنسبة لمسألة السن - وعلى تسليم أن سنها كانت آن ذاك سبعين: لا وجه للاستبعاد لأن مثل هذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التي كانت في تلك الأيام تعتبر سن شباب لا سن شيخوخة.

كما عابوا عليه عدم ذكر الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في هذا الموضوع. وذكروا هذه الأحاديث كالآتي :

حديث عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله: قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك إمرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام. فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيرك وغيري. فلما دخل أرضه. رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك إمرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتي بها. فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة. فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضه شديدة. فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت. فعاد فقبضت أشد وتكرر ذلك منه مرتين. فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك. ففعلت

فـأُطلقت يده، ودعـا الذى جـاء بـهـا فـقـال له: إنك إنمـا أتيـتنى بشـيطان ولم تأتنى بإنسـان. فأخرجها من أرضى واعطها هاجر. قال. فأقبلت تمشى لما رآها إبراهيم عليه السلام قال لها مـهيم. فقالت خيرا. كف الله يد الفاجر وأخدم خادما. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بنى ماء السماء.

وقالت اللجنة إن هذا الحديث أخرجه البـخارى فى أحـاديث الأنبيـاء من طريقين مرفـوعا وموقوفا. وقال الحافظ ابن حجر: إن ابن سيرين كان غالبا لا يصرح برفع كثير فى حديثه. وأخرجه أيضا مرفوعا من طريقين فى كتاب النكاح وأخرجه أيضا من طريق فى كتاب البيع. وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا. وأخرجه أحمد بسياق مخصوص. وذكره الحافظ ابن كثير عن ابن حاتم عن سفيان عن على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

وذكرت اللجنة حديثا ثانيا وهو حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة، وهو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحدا بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم وأنه حـينمـا يأتون إبراهيم عليه السـلام يطلبـون منه ذلك يقول: لست هـناكم. أنى كـذبت ثلاث كذبات: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لامرأته أخبريه أنى أخوك.

أخرج هذا الحديث البخارى من عدة طرق. فى تفسـير سورة البقرة عن أنس وفى تفسير سورة الإسراء عن أبى هريرة. وأخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وحذيفة. ورواه أحمد عن أنس من طريقين وعن ابن عباس من طريقين وأخرجه ابن خزيمة عن أنس. وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود. والطبرانى من حديث عبادة بن الصامت. وأخرجه الترمذى عن أبى هريرة. ثم إن الحديث روى مطولاومـختـصرا. فى بعـضـهـا نسب إلى إبراهيم قـوله: كذبت ثلاث كـذبات وفى بعضها يبين الكذبات الثلاث كما ذكر آنفا.

وردَّ الأستـاذ عبد الوهاب النجـار بأنه يعلم بهـذه الأحـاديث وأنها من الأحـاديث التى صح إسنادها ولكنه يأخذ بقول العلماء (صاحب الفتح . جزء ٨ ص ٤٣١) «الأحاديث إذا كانت فى مسائل عملية يكفى فى الأخذ بها بعد صحتها إفادتها الظن . أما إذا كانت فى العقائد فلا يكفى فيها إلا ما يفيد القطع: متنا وسندا».

وقـال: وقد نص العلماء على أن الحديث إذا كـانت روايته أحـاداً وفيـه نسـبـة المعـاصى أو الكذب إلى الأنبياء يُرَدُّ.

وقـولهم: مـا نقل عن الأنبيـاء مما يشـعر بكذب أو مـعـصـيـة. فـمـا كـان مـعـقـولاً بطريق الآحاد فمردود. وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن وما كان منقولاً بطريق الآحاد – سواء بلغ حد الشهرة أم لا – فمردود. لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء.

وفى النهاية قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: والأحاديث ترمى إبراهيم عليه السلام بالكذب وهى أحاديث آحاد فتركتها وصرفت النظر عنها إذ افترضت أنها منقولة نقل تواتر.

وكذلك قال سيادته فى كتابه: وعلى فرض صحة هذه القصة «أى قول إبراهيم إنها أختى.. فإنهما كانا أخوين حقيقة. وكان زواج الأخت جائزاً إذ ذاك، فلا داعى إلى التأويل بأنها أخته فى الإسلام.

وجاء فى رد اللجنة بأن المشهور بأنها ابنة عمه هاران. ورفضوا ما رواه السهيلى عن العدسى أنها كانت إبنة أخيه هاران أى أخت لوط – وقالوا: ومن ادعى أن ذلك كان مشروعاً فى وقت ما كما هو منقول عن بعض فرق اليهود. فإن الأنبياء لا تفعل ذلك.

وفى رده على هذا قال إن آدم كان يزوج أبناءه من بناته. فالأصل هو الإباحة إلى أن يأتى الشارع بالمنع.

وفى رأينا أنه لا يجوز الاستشهاد بأبناء آدم – إذ أن ذلك كان ضرورة حتمية. إذ لم يكن فى الأرض غيره وبنوه. وحتى فى هذا لم تكن إباحة كاملة، فقد كان لا يسمح بزواج الأخ من أخته التى ولدت معه فى بطن واحد.

ولا بأس – قبل أن نختم هذا الموضوع الشائك من أن نتعرض لسبب قول إبراهيم عن سارة إنها أخته. فقطعاً ليس السبب كما قالت التوراة: ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

بعض المفسرين قالوا إن السياسة وقتذاك كانت هى أن القوم لا يتعرضون لغير ذات البعل وإنما كانوا يتعرضون لذات البعل ويأخذونها قهراً. وأن إبراهيم عليه السلام لما علم ذلك من طبائع القوم وسلوكهم أراد أن يتجنب مضايقاتهم له ولسارة. ولعل المصريين وقتئذ كانوا يغلظون العقوبة على من يعتدى على العذراء أو غير المتزوجة فأراد أن يتجنب احتمال أى مضايقة له فقال ما قال. ولكن الملك لما وصف له جمالها لم يلتزم بهذه القاعدة. أو لعله أرادها زوجة له فكان ما كان. وينقض هذا الرأى سلوك الملك إذ هو قد لام إبراهيم لأنه لم يخبره أن سارة هى زوجته وليست أخته فذلك يعنى أنه لو علم أن لها زوجاً لما تعرض لها. وهو العكس تماماً لما يفترضون.

وفى النهاية لا بأس من تسجيل رأينا فى موضوع قول إبراهيم عن سارة إنها أخته. وهو يلقى الضوء على نقاط لم تطرح للبحث من قبل وتؤدى إلى نتيجة مقبولة بإذن الله.

لو نظرنا إلى الأمور نظرة متأنية لوجدنا عدة مثالب على هذه المقولة.

أولاً هذه المقولة ذكرت فى التوراة فى ثلاثة مواضع:

١ – فى الإصحاح ١٢ تكوين وملخصة أن أبرام (إبراهيم) قال لساراى امرأته. قولى إنك أختى. ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

٢ – فى الإصحاح ٢٠ تكوين: وانتقل إبراهيم وتغرب فى أرض جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة.

٣ – فى الإصحاح ٢٦ تكوين: عند ذكر قصة إسحق إذ تقول: فأقام إسحق فى جرار وسأله أهل المكان عن امراته. فقال هى أختى، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلونى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر.

فالمقولة نفسها تقال فى ثلاثة مواضع. مع اختلاف بسيط: فى المرة الأولى أخذت سارة إلى قصر فرعون ومد يده إليها فقبضت قبضة شديدة كما سبق أن ذكرنا. وفى المرة الثانية. أخذ ملك جرار سارة وتقول التوراة: فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة من بعل. ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال يا سيد ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضاً قالت هو أخى. بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا فقال له الله فى الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطىء إلىَّ. لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى فيصلِّى لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

وفى المرة الثالثة لم تؤخذ رفقة زوجة إسحق إلى أبيمالك وتقول التوراة: وحدث إذ طالت له (لإسحق) الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر فإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته. فدعا أبيمالك إسحق وقال له إنما هى امرأتك. فكيف قلت هى أختى. فقال له إسحق – لأنى قلت لعلى أموت بسببها. فقال أبيمالك ما هذا الذى صنعت بنا. لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً. فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذى يمسُّ هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت.

فتكرر القصة ثلاث مرات هكذا يلقى الشك على القصة برمتها.

ثانياً: لو تمعنا فى الكذبات الثلاث المنسوبة لإبراهيم عليه السلام فى الحديثين السابق ذكرهما. نجدها كالآتى.

١ – قوله إنى سقيم.

مأخوذ من سورة الصافات – الآيات ٨٨ – ٩٠.

«فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين».

٢ – قوله بل فعله كبيرهم هذا.

مأخود من سورة الأنبياء الآيتين ٦٢، ٦٣.

«قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون».

٣ – أما الثالثة – قوله عن سارة زوجته إنها أخته. فهي مأخودة عن التوراة الإصحاح ١٢ تكوين.

ويبدو نشازاً أن يكون في حديث واحد ثلاث مقولات: اثنتان مأخوذتان عن القرآن الكريم والثالثة مأخوذة عن التوراة. ويمكننا حينئذ أن نثير السؤال التالي: متى قيل هذا الحديثان؟ في مكة أم في المدينة؟ وبما أن سورتي الصافات والأنبياء من السور المكية فيحتمل أن الحديثين قيلا بمكة أو بالمدينة.

ولعل أحد المسلمين سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عند تفسيره للآيتين السابقتين عند نزولهما بمكة عما إذا كان قول إبراهيم عليه السلام يعتبر كذباً فقال الرسول الحديثين المشار إليهما.

ومن المعروف أن مكة كان بها نفر قليل على الملة الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام – مثل ورقة بن نوفل. وكان بمكة أيضاً نفر قليل من العرب استهوتهم النصرانية في بعض رحلاتهم إلى الشام فاعتنقوها. وأفراد من العبيد الروم أتوا بهم من الشام وظلوا على نصرانيتهم.

وكان المشركون يتقولون إن الآيات التي يتلوها النبي صلى عليه وسلم إنما يعلمها له رجل كان بين أظهرهم يعلم أخبار أهل الكتاب. قيل كان بياعاً يبيع عند الصفا – وقالوا ربما كان النبي يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وقال محمد بن اسحق بن يسار. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة – غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي – فقال المشركون يتعلم منه. وقال عبدالله بن مسلم. كان لنا غلامان روميان يقرآن كتباً لهما. فكان النبي صلى الله وسلم يمر بهما ليسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما. وعبرّ القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى:

«ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر» . (١٠٣ – النحل)

ونفى القرآن الكريم هذا الإتهام بقوله تعالى:

«لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» . (تكملة الآية ١٠٣ – النحل)

وسورة النحل أيضاً من السور المكية.

ومن غير المعقول – بعد هذه الآية الكريمة النافية لتلقيه أى علم عن أهل الكتاب – أن

يتضمن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قولا لم يأت إلاً فى التوراة وإلاً كان ذلك مؤيداً لما يقوله المشركون ومتعارضاً مع نص القرآن الكريم. وسيقول المشركون حينئذاك: ألم نقل لكم إنه يتلقى عن أهل الكتاب؟ ها هو حديثه يتضمن كلاماً منسوباً إلى إبراهيم عليه السلام لم يأت إلاً فى التوراة!!

وإن كان الحديثان قد قيلا فى المدينة المنورة. فلعل أحد المسلمين بالمدينة قد أثار هذا التساؤل فكان الحديث الشريف.

وكانت المدينة تغص باليهود والأحبار. وعندهم التوراة. وبعضهم أسلم وحسن إسلامه وبعضهم دخل الإسلام وهو يضمر الشر وينوى الكيد له. وكانوا يقصدون فتنة المسلمين بما يقصونه عليهم من توراتهم. لذلك نهى الرسول المسلمين عن الإستماع إليهم. أو الأخذ بأقوالهم. فقال الحديث الشريف:

«إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

ولا يعقل بعد هذا أن يقول الرسول حديثاً يتضمن قولاً مأخوذاً عن التوراة. إذ قد يقول بعض المسلمين وقتئذ: كيف ينهانا رسول الله عن تصديق أو تكذيب ما جاء به أهل الكتاب وهو قد ضَمَّنَ حديثاً له شيئاً مما جاء فى توراتهم – أليس فى هذا تصديق لهم؟

قال الإمام أحمد. حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم قال. فغضب وقال: أتتهوكون فيها يا بن الخطاب.والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه. أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلاً أن يتبعنى. إسناد صحيح. ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخطب الناس فقال فى خطبته: أيها الناس. إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصاراً. ولقد جئتكم بها بيضاء نقية. فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون. ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً.

من هذا ترى أن الحديثين لو كانا قد قيلا فى مكة فإنه يمتنع عليهما أن يتضمنا شيئا من أقوال أهل الكتاب تمشياً مع الآية ١٠٣ من سورة النحل وإن كانا قيلا فى المدينة المنورة فقد أوضحنا آنفاً أنه يتعين ألاً يتضمنا شيئاً من التوراة.

والذى أراه أن الحديثين الشريفين قد تضمنا قولين فقط لإبراهيم عليه السلام: قوله إنى سقيم. وقوله بل فعله كبيرهم هذا. وهما مأخوذان عن القرآن الكريم. ثم لما نشطت حركة وضع

الأحاديث كان من السهل إضافة القول الثالث إنها أختى - ولعل الرواة قد فاتت عليهم هذه الإضافة فنسبوا الحديثين بأكملهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

فالحديثان صحيحان، ولعلهما كانا «ما كذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلاَّ ثنتين: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا» ثم جاء واضعو الحديث ومن المؤكد أنهم كانوا من مسلمة أهل الكتاب. فزادوا الثالثة من توراتهم. فتوهم السامعون أن الحديثين صحيحان فى جملتهما مع أنهما صحيحان بالنسبة لثلثيهما، أما الثلث الأخير فهو موضوع.

بعد زيارة مصر:

وتنتهى زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر. بعد أن قضى بها عدة أعوام. عرف الفرعون فيها مكانة إبراهيم عند ربه فسمح له بالتجول فى مصر أينما شاء. فقابل الكهنة فى كل من منف وهيراكليوپوليس وشرح لهم عقيدة التوحيد. فاستمعوا إليها. ولعلهم أدركوا صدقها وإن لم يؤمنوا بدين إبراهيم الحنيف. وزار الصعيد حتى وصل إلى بنى حسن وقد سبق أن رجحنا أن الرسم الموجود فى مقبرة بنى حسن يمثل وفد إبراهيم عليه السلام.

وتبدأ رحلة العودة. فيعود بزوجته سارة ومعها هاجر التى أهديت لها. ومعه لوط وزوجته وأبناؤه. وأليعازر الدمشقى والرجال والعبيد الذين أتوا معه وزاد عليها هدايا فرعون من أغنام وعبيد. وتعبر القافلة صحراء مصر الشرقية ثم سيناء فى نفس الطريق الذى سلكته عند القدوم إلى مصر. وتقول التوراة (إصحاح ١٣ تكوين):

وصعد أبرام من مصر وامرأته وكل ما كان له ولوط معه. وكان أبرام غنياً جداً فى المواشى والفضة والذهب وسار رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل إلى المكان الذى كانت خيمته فيه فى البداء - بين «بيت إيل» و «عاى» (انظر شكل ٢٩) إلى مكان المذبح الذى عمله هناك أولاً. ودعا هناك أبرام باسم الرب.

وكان إبراهيم دائم التنقل بين حبرون ومكان المذبح قرب بيت إيل ولعل هذا كان لعدم كفاية المراعى لمواشيه فكان دائم التنقل من مكان إلى مكان وكان يتجنب الاحتكاك بالكنعانيين الذين لم يكونوا يحملون له مشاعر ودية.

بعد زيارة مصر تقع أحداث كثيرة فى حياة إبراهيم عليه السلام:

زواجه بهاجر - ولادة إسماعيل - مسيرته للحجاز - بناء البيت الحرام - مسيرة لوط إلى سدوم - مجيء الملائكة لإبراهيم بالبشرى وبهلاك قوم لوط - ولادة إسحق - زواج إسماعيل - تشريع الختان - زواج إسحق وغير ذلك من الأحداث. وكل كتب قصص الأنبياء ذكرت هذه الأحداث منفصلة. كل حدث قائم بذاته واختلفت الكتب فى ترتيب ذكرها. إذ ما دامت أحداثاً

منفصلة فلا يهم مجى ذكر هذا قبل ذاك أو بعده. أما كتاب الثعلبى المسمى بعرائس المجالس فقد اتخذ طريقة الأبواب المستقلة. فذكر مثلاً: باب فى مولد إسماعيل وإسحق، وباب عن قصة زمزم، ثم باباً عن بناء الكعبة، ثم باباً عن الذبيح، ثم باباً عن الذى حاج إبراهيم فى ربه، ثم باباً عن وفاة سارة وهاجر وهكذا.

ولما كان الخط الذى يسير عليه هذا الكتاب هو التوثيق التاريخى للأحداث. فكان لابد من دراسة التسلسل التاريخى للأحداث وذكرها مرتبة حسب وقوعها. ولم يكن ذلك بالأمر الهين فى قصة إبراهيم عليه السلام نظراً لتشعب الأحداث ووقوع بعضها فى وقت واحد فى عدد من الأماكن ولذلك سيجد القارئ أننا ننتقل من مكة إلى حبرون عدة مرات فنذكر حدثاً عن إسماعيل فى مكة ثم نتبعه بحديث عن إسحق فى حبرون، ثم نعود إلى مكة ثانية وهكذا ليكتمل التصور الحقيقى لما حدث بدلاً من ذكرها كأحداث منفصلة لا رابط بينها.

زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر:

مرت السنون الطوال منذ خروج إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران إلى حلب ودمشق ثم إلى أرض كنعان - ولم يرزق إبراهيم عليه السلام بولد وكانت سارة زوجته قد بلغت السبعين ولم تلد، كان يدعو ربه:

«رب هب لى من الصالحين». (١٠٠ - الصافات)

وأوحى إليه الله أنه سيكون له ابن وأن هذا الإبن سيكون حليماً

«فبشرناه بغلام حليم». (١٠١ - الصافات)

ولكن كيف يكون له ولد، وهذه امرأته قد جاوزت السبعين عاماً ولم تلد له الولد الذى يرجوه، وتقول التوراة:

صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام، أنا ترس لك، أجرك كثير جداً، فقال أبرام أيها السيد، ماذا تعطينى وأنا ماض عقيماً ومالك بيتى هو أليعازر الدمشقى وارث لى، إنك لم تعطنى نسلاً، فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك، ثم أخرجه إلى خارج وقال: انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها، وقال له هكذا يكون نسلك، فآمن بالرب فحسبه له براً. (إصحاح ١٥ تكوين).

ورأت سارة مدى تشوق زوجها للولد، فأهدت إليه جاريتها هاجر ليتخذها زوجة لتنجب له الولد الذى يتمناه، وكان هذا التصرف شائعاً فى ذلك الوقت، وكانت السيدة تعتبر الولد كأنه ابنها هى، لأنه ابن جاريتها التى هى ملك لها، أو التى كانت ملكاً لها، لأنها منذ أن تهبها

لزوجها تصبح حرة. ولكنها تستطيع فى أى وقت أن تستردها لتعود جارية لها كما كانت. وكان ينظم ذلك قانون حمورابى - الشهير. الذى كانت أغلب دول المنطقة تطبقه فى معاملاتها المدنية وتقضى المواد ١٤٥ - ١٤٧ المنظمة لهذا التصرف بالآتى: «للزوجة أن تسترد جاريتها التى وهبتها لزوجها لينجب منها إذا رأت أنها تنافسها فى حب زوجها وأنها تعمل على أخذ المكانة الأولى فى الدار. ويمكنها أن تبيعها إذا كانت غير ذى ولد. فإن كانت قد أنجبت ظلت فى الدار كجارية تخدم الجميع. حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها».

ويمكننا أن تشبه هذا الوضع بما يحدث فى الدول الغربية فى وقتنا الحالى ويسمى بـ «تأجير الأرحام» للتلقيح الصناعى. ذلك أنه إذا كان رجل يحب زوجته وهى عاقر فإنه يتفق مع امرأة شابة لينجب منها - برضاء من زوجته - بلقاء طبيعى أو تلقيح صناعى بوضع النطفة مباشرة فى رحم المرأة الشابة - وبعد الولادة يؤخذ الولد وينسب إلى الزوجين وهو ابن للأب فعلاً وابن للزوجة تبنيا. وتعطى المرأة الشابة أجرها وتمضى لحال سبيلها.

وهكذا وهبت سارة جاريتها هاجر لإبراهيم عليه السلام ليتخذها زوجة ولينجب منها الولد الذى يتمناه. وكانت سارة - فى ظل قانون حمورابى تستطيع أن تسترد هاجر فى أى وقت بعد الولادة. وكانت مواد قانون حمورابى فى هذا الشأن بها ظلم واضح - إذ أن من ذاقت طعم الحرية يكون ألمها أشد إذا أعيدت إلى الرق ثانية - كما أنها إذا أصبحت أثيرة لدى الرجل واستردتها زوجته وباعتها فإن ذلك يكون ظلماً للرجل نفسه إذ يباعد بينه وبين من أصبحت أثيرة عنده. لا لشىء إلاً لغيرة الزوجة منها. وإن كانت قد أنجبت. واستردتها سيدتها السابقة بقيت فى المنزل تخدم الجميع كجارية. إن المرأة المحبة لزوجها تخدمه بكل جوارحها وتبذل كل ما فى وسعها لراحته. وفرق بين هذا وخدمة مفروضة على جارية لسيدها. كذلك تتفانى المرأة فى خدمة ابنها بعاطفة الأمومة وحنانها. وشتان بين خدمة يغلفها حنان الأمومة وخدمة يحكمها قانون العبودية. وكم هو قاس على مشاعر الإبن وهو يرى أمه تخدم الجميع كجارية!! لذلك لا نشك فى أنه قد نزل تشريع من السماء على إبراهيم عليه السلام يرفع هذه المظالم جميعها. ويحد من سطوة السيدة على جاريتها السابقة ويحثها على حسن معاملتها ويمنع استرقاقها مرة ثانية.

وتقول التوارة - الإصحاح ١٦ تكوين

وأما ساراى امرأة إبراهيم فلم تلد له وكان لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراى لأبرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ادخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراى. فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها. من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له. فدخل على هاجر فحبلت. ولما

رأت أنها حبلت صَغُرت مولاتها فى عينيها. فقالت ساراى لأبرام ظلمى عليك أنا دفعت جاريتى إلى حضنك، يقضى الرب بينى وبينك. فقال أبرام لساراى هو ذا جاريتك فى يدك. افعلى ما يحسن فى عينيك. فأذلتها ساراى. فهربت من وجهها. فوجدت ملاك الرب على عين ماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراى. من أين أتيت وإلى أين تذهبين. قالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى. فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يدها، وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعَدُّ من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع مذلتك وإنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل ربى. فولدت لأبرام هاجر ابناً. ودعا أبرام ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل. وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام.

من الطبائع البشرية التى جُبِلت النساء عليها أنهن يحببن أن تكون الواحدة منهن مستأثرة بحب زوجها كله لا تشاركها فيه أخرى. والغيرة تفعل فى النفس الأعاجيب. فما إن حملت هاجر حتى استبدت الغيرة بسارة فبدأت تسىء معاملة هاجر واتهمتها بأنها تتكبر عليها. والمؤكد أن هذه كلها أوهام ضخَّمتها الغيرة. فأنى لجارية مثل هاجر - فى أرض غربة - بعيدة عن أهلها أو أى أحد من عشيرتها - أن تتكبر على سيدتها؟! ولعل إبراهيم عليه السلام قد تفهَّم دوافع سارة الحقيقة وأراد أن يُهَدِّئ من ثوراتها فقال لها تجاوزا هذه جاريتك. افعلى بها ما يحسن فى عينيك. ولكن سارة استمرت فى مضايقة هاجر وإساءة معاملتها حتى اضطرتها إلى الفرار. لولا أن الله أوحى إليها أن تعود وتصبر على أذى سارة لما فى علم الله من أمر آخر يعلى من شأنها أكثر كثيراً عن مجرد إبعادها عن سارة.

رحلة الحجاز:

كان إبراهيم عليه السلام - خلال رحلته الطويلة منذ خروجه من أور إلى بابل ثم حاران فدمشق ثم زيارته لمصر والعودة منها - كان يدعو إلى عبادة الله وحده. وكان يقيم مذبحاً صغيراً للرب ليتعبد فيه من آمنوا به. وكانت هذه المذبح دائماً فى مكان بعيد فوق قمم الجبال.. فما كان الكهنة فى هذه البلاد ليسمحوا به بغير ذلك. وكان يشاهد ضخامة معابد الأقوام. فهو يتذكر معبد مردوك فى أور. ناهيك عن المعبد الكبير فى بابل. وبوابة عشتار الضخمة. ثم معابد بعل فى دمشق. ومعابد مصر ومسلاتها. فى أون ومنف. والأهرام ومعابدها. وما بنى فى فلسطين من معابد لتحاكى معابد مصر. وكانت توضع بها تماثيل لآلهة المصريين بجانب الآلهة المحلية تعبيراً عن امتداد نفوذ مصر إلى هذه المناطق. ورأى كيف يفتن الناس بضخامة هذه المعابد وتؤثر فى نفوسهم.

وهفت نفسه لإقامة بيت كبير لله. وأدرك استحالة أن يقيم مثل هذا البيت فى أى من البلاد التى مر بها. ولعل هذه الخاطر ظل يؤرقه. فهو يريد بيتاً كبيراً لله - يطوف به الناس وليس به تماثيل ولا أصنام. بل توحيد خالص لله.

ولعل أحد أسباب اصطفاء الرسل أن يتفق هوى نفوسهم مع ما يدبره الله من أمر فى قابل الأيام.

وهذا ما كان من أمر نبينا عليه الصلاة والسلام.

«قد نرى تقلب وجهك فى السماء. فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيثما كنتم فولوا وجوكم شطره». (١٤٤ - البقرة)

وكان هذا أيضاً أمر إبراهيم عليه السلام. فقد كان دائم التفكير فى بناء بيت الله. وكانت الأحداث التالية هى تدبير الله تعالى لبناء بيته الحرام فى مكة المكرمة. فكانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز. فليست المسألة كما صورتها التوراة مجرد إبعاد هاجر وابنها عن سارة إذ لو كان الأمر كذلك لكان قد أرسلها إلى أرض آبائه وأجداده فى حاران فى شمال العراق. أو كما اقترح البعض - كان يرسلها إلى أرض آبائها فى مصر. ولكن ما كان هذان الحلان ليرضيا نبى الله. ففى مصر كانت عبادة الأصنام قائمة وراسخة. وما كان ليرضى أن تعود هاجر إلى هذا الضلال بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان بالله. ولو كان معها إسماعيل فما كان ليرضى إبراهيم عليه السلام أن يشب ابنه وسط هذه الضلالات. أما فى شمال العراق فى حاران فقد كانت الفئة المؤمنة قليلة العدد وما كان ليأمن على ولده. ولا على هاجر من فتنة تودى بإيمانها.

كذلك فإن كاتبى التوراة يقولون بأن الهدف كان إبعاد هاجر عن سارة. وهم فى هذا يناقضون أنفسهم - إذ لما هربت هاجر كان يكفى أن يقودها ملاك الرب إلى مكان يؤويها وجوار قوم يحمونها هى وابنها بعد أن تلده. ولكن ملاك الرب قال لها: ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يدها. إشارة إلى أن هناك تدبيراً آخر للرب. وقال لها تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وبشرها بأن وليدها سيكون إنساناً وحشياً ولعل فى ذلك إشارة إلى أنه سيشب فى بيئة موحشة. بلد غير ذى زرع ولا سكان - أو أنه فى قابل الأيام سيكون أول من يستأنس الخيل الوحشية. وهذا ما فعله إسماعيل.

فالأمر كله تدبير من الله. وهو اللطيف فى تدبيره. يمهِّد له بسنن طبيعية حتى ليبدو للناظر أن الأحداث هى التى أدت إلى هذا. والحقيقة أن الله هو المدبر. الفعال لما يريد.

وهكذا كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى. ويأخذ

معه هاجر وابنه إسماعيل. ويكون ذلك مصادفا لهوى فى نفس سارة التى ترغب فى إبعاد ضرتها - ويصادف هوى فى نفس هاجر إذ تستريح من مضايقات سارة لها. ثم لتتم مشيئته الله ويكون الأمر ببناء البيت الحرام فى مكة المكرمة وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يتمناه. ويكون لإسماعيل شرف المشاركة فى بنائه.

ولادة إسماعيل:

عادت هاجر من فرارها. وتحملت من سارة ما تحملت - حتى تم حملها ووضعت ولداً. وسمته وسماه إبراهيم أيضاً - إسماعيل. وإسماعيل تعريب لكلمة يشمعيل العبرية. وهى مكونة من يشمع أى يسمع + إيل أى الله والعبرية كثيراً ما تستعمل المضارع وتقصد اسم الفاعل فيكون يسمع الله بمعنى سميع هو الله. أو الله سميع. وجاء فى التوراة وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.

كذلك لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا:

«رب هب لى من الصالحين». (١٠٠ - الصافات)

فسمع الله دعاءه. والله سميع الدعاء

«فبشرناه بغلام حليم». (١٠١ - الصفات)

وكنتيجة لأن الله سمع دعاءه كانت البشرى بالغلام الحليم الذى هو إسماعيل.

كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل (التوراة: إصحاح ١٦ تكوين). ومر عام تحملت فيه هاجر من مضايقات سارة الكثير. ولمس إبراهيم عليه السلام مدى صبرها وتحملها. وتكتمها الأمر حتى لا تنقص من فرحته بالولد. وكان إبراهيم عليه السلام دائم التفكير فى كيفية التصرف فى هذا الأمر. ووصل إلى نتيجة وهى استحالة المعايشة بينهما. ولعله فكر فى إسكان هاجر ووليدها فى بلدة أخرى بعيداً عن سارة. ولكن أى بلدة؟ وبلغت به الحيرة مبلغاً عظيماً - وفوض الأمر إلى الله. وانتظر ما تأمر به السماء. وما هى إلا أيام قليلة وجاءه الإذن بأن يأخذ هاجر ووليدها إسماعيل إلى مكة - فى الحجاز.

وبدأ إبراهيم عليه السلام يعد العدة والزاد لهذا السفر من مطعم ومشرب. وراحلتين أو أكثر.

وصادف هذا القرار هوى فى نفس سارة. لأن هاجر وابنها سيكونان فى مكان بعيد. بل بعيد جداً.

وسارت القافلة الصغيرة من حبرون - وانحدرت إلى جنوب شرق حتى وصلت إلى طريق القوافل فى شرق الأردن. وسارت فيه جنوباً حتى إيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة ثم اتخذ طريق القوافل الموصل إلى اليمن - وبموازاة الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وعلى مبعدة ١٠٠٠ كيلو متر تقريباً من إيلة تقع منطقة جرداء (شكل ٣٦). تسمى «برية فاران». ولاشك أن الله هيأ لهذه القافلة الصغيرة غمامة تحميهم من حر الشمس - كما كان الغمام يظلل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. ومن المرجح أن الغمامة كانت أيضاً تقودهم إلى المكان الذى أراده الله. أو أن المكان المقصود تبدى له فى رؤيا. فرآه مكاناً منخفضاً بين جبلين. أو بكة بين مرتفعات تحوطها. فى الأرض المسماة برية فاران. فى وادى غير ذى ذرع. يطل عليه جبل قبيس. حيث لا ماء ولا شجر. هنا توقفت الغمامة. فعلم إبراهيم عليه السلام أن هذا هو المكان المقصود. أو لعله رأى المكان مطابقاً للصورة التى تبدت له فى الرؤيا.

أنزل خليل الله هاجر وإسماعيل من على الراحة. وراح يصنع لهما عريشاً فوق ربوة قريبة ثم وضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاة فيها ماء. وذهب منطلقاً فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى. فلم يرد. فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فاطمأن قلب هاجر وقالت: فإذا لا يضيعنا. وعادت إلى العريش.

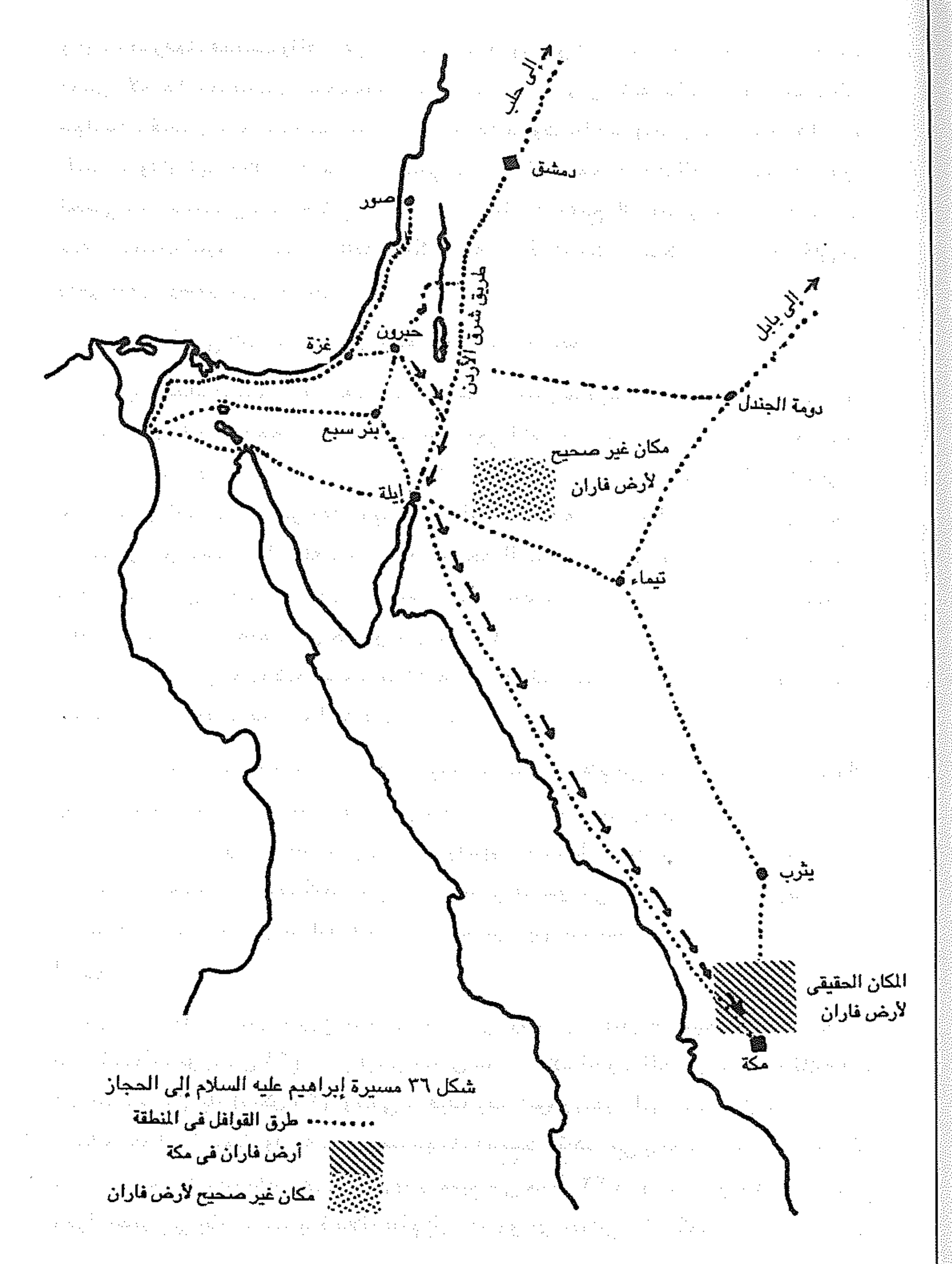
وانطلق إبراهيم عليه السلام عائداً إلى حبرون وتوقف هنيهة على الجبل المطل على الوادى. وألقى نظرة أخيرة على هاجر وفلذة كبده إسماعيل وتوجه إلى الله بالدعاء.

«ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيوا الصلاة. فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون». (٣٧ - إبراهيم)

تصور التوراة الموقف على أنه مجرد إبعاد أو طرد هاجر وابنها - وعلى أن إبراهيم عليه السلام أعطاهما الزاد وصرفهما أى طردهما ولم يذهب معهما - فتاها فى البرية حول بئر سبع. وينكرون على إبراهيم عليه السلام ذهابه إلى الحجاز. وفى هذا التصور نجد تخبطاً فى التواريخ وتعارضا واضحاً مما يشى بأن هذه الفقرات من التوراة قد نالها تحريف لتطابق هوى فى نفوس كاتبيها - ولنر أولاً ما قالوه فى هذا (إصحاح ٢١ تكوين):

وصنع إبراهيم وليمة كبيرة يوم فطام إسحق. ورأت سارة ابن هاجر المصرية التى ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم. اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق، فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه إسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك.

فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها



شكل ٣٦ مسيرة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز

والولد وصرفها. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس، لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الرب هاجر من السماء، وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن فى البرية. وكان ينمو رامى قوس، وسكن فى برية فاران.

هذا ما جاء فى التوراة. ولنا على هذه الرواية عدة ملاحظات:

١ - يوم فطام إسحق - أى بعد ولادته بعامين - وقبل سطرين من هذه الفقرة نجد.. وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق ابناً. وفى الإصحاح ١٦: كان أبرام ابن ٨٦ سنة لما ولد إسماعيل. أى أنه عند ولادة إسحق كان إسماعيل عمره ١٤ عاماً. ويوم فطامه كان ١٦ عاماً. بعض الكتاب اعترض وقال كيف يمزح ابن الـ ١٦ عاماً مع فطيم عمره عامين. ويمكننا أن نتجاوز عن ذلك ونقول لعله كان يمزح مع أحد الفتيان من سنه. ولكن مالا يمكن التجاوز عنه هو قولهم: إن ملاك الرب قال لها قومى احملى الغلام!! فهل ابن ١٦ عاماً مما تحمله أمه؟ والحقيقة أن خروج هاجر من حبرون كان وإسماعيل لا يزال رضيعاً حتى يقال لها: قومى احملى الغلام، أى قبل ولادة إسحق بـ ١٤ عاماً. فلم تكن سارة حتى قد بشرت بأنها ستلد إسحق. فمقولة. اطرد هذه الجارية لأن ابنها لا يرث مع ابنى - محض اختلاق.

٢ - لا تذكر التوراة شيئاً عن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز. وتنكر عليه ذلك. رغبة منهم فى عدم إيجاد صلة بين العرب وإبراهيم عليه السلام. ويدّعى المستشرق الإنجليزى «سير وليم موير» أن هذه القرابة بين العرب واليهود ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال. ذلك أن اليهود كانت لهم جاليات كبيرة فى جزيرة العرب فرغبوا فى إيجاد قرابة بينهم وبين العرب توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة العربية.

من هذا المنطلق يدّعى المؤرخ چيروم واللاهوتى يوسبيوس (تاريخ اليهود فى بلاد العرب. إسرائيل ولفنسون. ص ٣٦) - أن أرض فاران بلد من بلاد العرب تقع على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من إيلة (شكل ٣٦). وحتى لو قبلنا بهذا الموقع ونعود إلى قولهم إن إبراهيم عليه السلام أعطاهما خبزاً وقربة ماء. وصرفهما. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع!! لبرزت لنا مشكلة جديدة. إن المسافة بين حبرون وبئر سبع هى حوال ٣٢ كيلو متر. ثم هناك ١٤٠ كيلو متراً لنصل إلى إيلة ثم مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق أى حوالى ١٢٠ كيلو متر أخرى - أى

المسافة كلها من حبرون إلى برية فاران شرق خليج العقبة هى حوالى ٣٠٠ كيلو متر. فهل تستطيع هاجر ومعها وليدها على كتفها قطع هذه المسافة - فى هذه الصحراء الموحشة - وحدهما؟ ولو كان إبراهيم عليه السلام - كما يقولون - قد صرفهما. فإنه بعد مسيرة بضعة كيلو مترات لابد سيصيبها التعب وتعود أدراجها إلى حبرون وهو مالم تكن سارة لتسمح به. فلابد أن إبراهيم عليه السلام قد رافقهما بنفسه وعلى راحلته إلى برية فاران فى الحجاز لتكون أبعد ما يمكن عن سارة.

وقد جاء فى الترجمة السامرية للتوراة التى صدرت فى عام ١٨٥١ ميلادية أن «إسماعيل قد سكن برية فاران فى الحجاز» (محمد بيومى مهران. إسرائيل. ص ٢٠) وذلك أيضاً مذكور فى الترجمة اليونانية للتوراة (محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم. جزء ١ بلاد العرب ص ١٤٧).

وفى الإصحاح ٢٥ جاء أن أبناء إسماعيل كانوا يسكنون: من حويلة إلى شور حينما تجىء نحو أشور (أى العراق). وحويلة هى خولان. وهى قبيلة يمنية تسكن اليمن. والجزيرة العربية تقع بين اليمن والعراق. وتقع مكة فى منتصف المسافة تقريباً.

من هذا نرى أنهم يحاولون قطع الصلة بين العرب وإسماعيل. فيدَّعُون أن إسماعيل وهاجر قد تاها فى برية بئر سبع وانتهت قصتهم. بل وفى نظرهم انتهت حياتهم عند هذا الحد!!

٣ - يحاول كاتبو التوراة التقليل من قدر هاجر وذلك بتكرار وصفهم لها بالجارية!!

وهى - وإن كانت قد أهديت لسارة كجارية لها - إلاَّ أنها فى حقيقتها أميرة من أميرات إحدى مقاطعات مصر هزم الفرعون قومها وسباها. وقال الطبرى إن عمرو بن العاص لما فتح مصر أخبرهم بوصية النبى صلى الله عليه وسلم بهم. فقالوا: هذا نسب لا يحفظ حقه إلاّ نبى لأنه نسب بعيد. وقالوا له: إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا. ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب انتصروا فيها فقتلوا الملك وسبوها. ومن هنا تسيرت إلى أبيكم إبراهيم.

ولعل مما يؤيد هذا القول أن الفرعون أهداها هى بالذات - لسارة لأن وجودها فى بلاطه كان يشكل حافزاً لقومها للثورة على الفرعون لتخليص مليكتهم منه. لذلك رأى إبعادها كلية عن البلاد بإهدائها إلى هؤلاء الأسيويين ليرحلوا بها بعيداً عن مصر. فهى ليست جارية بالمعنى الصحيح بل أميرة تم أسرها ولها من شرف المحتد وعراقة الأصل. ما جعلها تعامل الفرعون بعد أسرها - بأنفة وكبرياء. وحماها هذا مما كان يطمع فيه الملوك من الجوارى. ولعل الملك كان راغباً فى الخلاص منها لهذا السبب أيضاً فأهداها لسارة. ثم كان لها الشرف أن تصبح زوجة لنبى الله إبراهيم عليه السلام وأُمّاً لإسماعيل عليه السلام وأُمّاً للعرب أجمعين.

ومما يزيد هاجر شرفاً إلى ذلك ماجاء فى التوراة من أن ملاك الرب قد ظهر لها على عين الماء فى البرية وأمرها بالرجوع وبشرها بإسماعيل وقال لها تكثيراً نسلك فلا يعد من الكثرة. وكما جاء فى التوراة، ظهر لها مرة ثانية لما تركها إبراهيم عليه السلام فى مكة وفرغ الماء من القربة وقال لها قومى احملى الغلام وشدى بيدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفجرٌ لها بئر الماء (زمزم). فى حين أن الرسل الذين بشروا بإسحق كانوا مرسلين أساساً إلى إبراهيم عليه السلام وإنما وجهوا حديثهم عرضاً إلى سارة لما استنكرت أن تلد وهى عجوز عقيم!

نحن لا نعقد مناظرة بين هاجر وسارة فكلتاهما كانت زوجة لنبى الله إبراهيم عليه السلام ويكفى ذلك كلاً منهما فخراً وشرفاً.

٤ – شطح الخيال بالبعض فرووا أن سارة فى قرارها الغاضب بطرد هاجر ووليدها – أقسمت لتقطعن من هاجر ثلاثة أعضاء ومن ثم فقد أمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها (أى تجرى لها عملية الختان) فتبر بقسمها. وقالوا: وبهذا تكون هاجر أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنيها. وهذا القول ليس من الحقيقة فى كثير أو قليل. فالمصريات كن يلبسن «الحلقان» فى آذانهن قبل ذلك بمئات السنين وحلى الملكات منذ قرون كثيرة بها الأقراط. كما أن عادة الختان عادة مصرية قديمة من عصر ما قبل الأسرات. ولعلها من تعاليم إدريس عليه السلام.

نعود ثانية إلى هاجر وقد جلست فى العريش تتقى حر الشمس ولترضع وليدها، كانت الجبال تطل عليها من كل مكان. جبل قبيس. والصفا. والمروة. ونفذ التمر والماء. وعطشت هى وابنها. وجعلت تتلفت. لعل أحداً قادم ومعه ماء. ولكن لا أحد يأتى أو يمر فى هذا الوادى القفر. ارتقت جبل الصفا ونظرت على مدى بصرها علّها ترى ماء. فلم تر شيئاً. ونزلت من علِّها مهرولة نحو جبل المروة واعتلته ومدّت بصرها. فما رأت ماء. وهرولت مرة أخرى إلى الصفا. وكررت هذا السعى سبع مرات. ولما لم تجد الماء وأيقنت بالهلاك. اتجهت إلى الله بقلبها وعاد إليها إيمانها بما قالته لإبراهيم عندما تركها: فإذا لا يضيعنا. وعادت إلى وليدها وبينما هى تقترب منه. رأت الماء يتفجر من موضع كعبه على الأرض ثم تفجر الماء غزيراً فارتوت وسقت وليدها. وزاد تفجر الماء فقالت لها زُمِّى زُمِّى يا مباركة. فسميت منذ ذلك الحين بئر زمزم.

وإذا بملَك عند زمزم يقول لها: لا تخافى الضيعة. فإن هذا بيت الله الحرام. يبنيه هذا الغلام وأبوه. وإن الله لا يضيع أهله.

وقيل إن الملك هو الذى ضرب الأرض بجناحه فتفجر الماء فجعلت تحوِّضه بيدها وتغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. وقال ابن عباس. قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

المهم أنها شربت وارتوت – وارتوى وليدها.

وجاءت جماعة من جرهم فى طريق أسفل مكة. ورأوا طائراً يحوم فى الجو. وعجبوا فالطائر لا يدور إلاَّ على ماء، وعهدهم بهذا الوادى ولا ماء فيه. فعرجوا على الوادى ووجدوا هاجر وابنها وبئر الماء. فاستأذنوا منها للإقامة معها بجوار البئر فأذنت لهم. وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها.

كذلك كات غلامان من العماليق يرعيان إبلاً للقبيلة هناك. وعطشا ورأوا الطير يحوم حول الوادى فتتبعاه حتى رأوا عين الماء وهاجر ووليدها وسألوها عمن حفر البئر. فقالت سقيا لله. فاستأذنوا منها فى الإقامة بجوار البئر. فأذنت لهم. فأخبروا القبيلة. وجاء العماليق أيضاً برجالهم ونسائهم وأطفالهم وغنمهم وإبلهم.

وإذا بالوادى الذى كان غير ذى زرع وليس به حياة ولا أحد. إذا به يعمر وينبض بالحياة. وفتح الله عليه بركات السماء والأرض.

وهكذا تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام. التى جاءت فى الآية ٣٧ من سورة إبراهيم:

«فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم».

فقد مالت قلوب قبيلة جرهم والعماليق إلى هاجر ووليدها. وجعلوا من أنفسهم أهلاً وحماة لهما.

«وارزقهم من الثمرات».

فبفضل الماء الذى تفجر من زمزم اخضرت الأرض ونبت النخيل والأشجار وارتوت الإبل والأغنام وتكاثرت وكثرت الثمرات.

«لعلهم يشكرون».

فشكروا الله على هذه النعم.

وسبق أن ذكرنا ص ٢١ وشكل ١٦ – أن جرهم هو أخو فالج بن شالح بن عابر بن أرفكشاد. الجد الثالث لإبراهيم عليه السلام. والعماليق من نسل لود بن سام. فهم من نسل نوح عليه السلام. ولاختلاطهم أثناء تجوالهم فى الجزيرة العربية شابت عقيدتهم بعض مظاهر الوثنية ولكنها لم تكن وثنية صارخة متأصلة كما هى وثنية بابل أو دمشق. كانوا يؤمنون بالله

ويقسمون به ولكن كانوا ينسبون إليه من تماثيلهم وأصنامهم بنين وبنات، يتخذونهم زلفى وقربى إلى الله.

ولعلهم إذ نزلوا بجوار بالماء الذى تفجرّ ببركة الوليد وأمه. وعلموا أن هاجر زوجة لنبى من أنبياء الله. وأنها على ديانة الحنيفية التى جاء بها إبراهيم. لعلهم تشوقوا لمعرفة المزيد عن هذا النبى وهذه الديانة. مما جعلهم تربة خصبة. عند قدوم إبراهيم عليه السلام وبناء البيت الحرام لأن يتحولوا جميعاً إلى الدين الحنيف.

إفتراق لوط عليه السلام:

عاد إبراهيم عليه السلام من الحجاز.

وكما سبق أن ذكرنا أن لوطا هو ابن هاران، وأن هاران مات فى سن مبكرة فكفل إبراهيم لوطا. وتبناه. فكان لوط ملازما له فى مسيرته من أور إلى حاران إلى دمشق. ورافقه فى زيارته لمصر. وكان له عبيد وأغنام منفصلة عن ثروة إبراهيم.

بالطبع لم يذهب لوط مع إبراهيم عندما أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة. بل بقى فى حبرون وبعد عودة الخليل من مكة ظلا معا فى حبرون لمدة عام أو أقل قليلا.

وفى صبيحة أحد الأيام انطلق لوط إلى إبراهيم وقال له: لقد أُرسلت إلى أهل سدوم. فأمره إبراهيم بأن يمتثل لأمر ربه.

«وإن لوطا لمن المرسلين». (١٣٣ - الصافات)

وراح لوط يجمع أهل بيته ورجاله وعبيده وإماءه وأغنامه وأنعامه وكل ماله. وخرج إلى سدوم. وتقع سدوم عند الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٣٧).

الغريب أن كاتبى التوراة يصورون ذهاب لوط إلى سدوم على أنه كان مخاصمة منه مع إبراهيم عليه السلام. فتقول فى الإصحاح ١٣: ولوط السائر مع أبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا. إذ كانت أملاكهما كثيرة. فلم يقدرا أن يسكنا معا. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط. فقال أبرام للوط لاتكن مخاصمة بينى وبينك، وبين رعاتى ورعاتك. لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك اعتزل عنى. إن ذهبتَ شمالا. فأنا يمينا. وإن يمينا فأنا شمالا. فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة. كجنة الرب كأرض مصر. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا. فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن فى أرض كنعان. ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشرار وخطاة لدى الرب جدا.

شكل ٣٧ – ذهاب لوط إلى سدوم
وإبراهيم إلى جرار

وهذا التصور لافتراق لوط عن إبراهيم عليهما السلام غير صحيح. فلم تكن هناك مخاصمة ما. بل كانا ارتحال لوط بناء عن أمر من الله تعالى واختياره رسولا إلى أهل سدوم.

إبراهيم وملك جرار:

لما ارتحل لوط. بقى إبراهيم عليه السلام فى حبرون بعض الوقت. ولكنه بعد مدة انتقل إلى الجنوب يدعو إلى دين الله. وتنقل فى الصحراء جنوبى فلسطين وإلى الشمال من سيناء. وتسمى أجزاء منها برية قادش والجزء شرقى مصر يسمى برية شور (شكل ٣٧). وكان أتباعه مشغولين بتربية الغنم والماشية. وكان هذا يعنى تنقله من مكان إلى مكان حسب توافر المراعى التى كانت تنمو عند سقوط المطر. وكانوا يحفرون الآبار للحصول على المياه فى فصل توقف الأمطار. وحفر الآبار عملية شاقة. فكان العرف أن من يحفر بئرا يكون مالكا لهذا البئر ولا تقربه القبائل الأخرى. ولما كان أتباع إبراهيم يتركون المكان الذى به البئر الذى حفروه إلى مكان آخر كان أقوام آخرون ينزلون على هذه الآبار ويدَّعون ملكيتهم لها. لذلك كانت هناك مشاحنات دائمة حول الآبار.

ووصل إبراهيم عليه السلام فى تجواله إلى مدينة جرار. وهى مدينة حصينة تقع حوالى ثلاثة عشر كيلو مترا شرقى غزة. وكان ملوكها يُسمون أنفسهم «أبيمالك» وسكن إبراهيم فى الصحراء خارج أسوار المدينة وتقول التوراة (إصحاح ٢٠ تكوين):

ووصل إبراهيم وتغرَّب فى جرار. وقال إبراهيم عن سارة إمرأته هى أختى. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة ببعل. ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال يا سيد أأمة بارة تقتل؟ ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى. بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا. فقال الله له فى الحلم، أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطىء إلى، لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رُدَّ امرأة الرجل فإنه نبى فيصلى لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك.

فبكر أبيمالك فى الغد ودعا إبراهيم وقال له. ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة؟ أعمالا لا تعمل عملت بى. فقال إبراهيم إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البته. فيقتلوننى لأجل امرأتى وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى. غير أنها ليست ابنة أمى. فصارت لى زوجة، وقلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إلى. فى كل مكان نأتى إليه قولى عنى هو أخى. فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة إمرأته وقال أبيمالك: هو ذا أرضى. اسكن فى ما حسن فى عينيك. وقال لسارة: إنى قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة.

فصلى إبراهيم إلى الله. فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة إمرأة إبراهيم.

وهذه القصة. بتكررها من قبل فى مصر (ص ١٠٤). تثير الشك فى صحتها، كما أن سارة فى ذلك الوقت كانت قد بلغت ٧٩ عاما. وعلى العموم فإن كل الكتاب يرفضون هذه القصة برمتها ويرون أنها محض إختلاق.

بئر السبع: وحدث فى ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كَلَّما إبراهيم قائلين: الله معك فى كل ما أنت صانع. فالآن احلف لى بالله ههنا أنك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى. كالمعروف الذى صنعت إليك تصنع إلى. فقال إبراهيم أنا أحلف.

وعاتب إبراهيم أبيمالك بسبب بئر ماء اغتصبها عبيده. فقال أبيمالك. لم أعلم من فعل هذا الأمر ولا أنا سمعت سوى اليوم. فأخذ إبراهيم غنما وبقرا وأعطى أبيمالك فقطعا كلاهما ميثاقا. وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها. فقال أبيمالك لإبراهيم : ما هى هذه السبع نعاج التى أقمتها وحدها؟ فقال إنك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع. فقطعا ميثاقا فى بئر سبع ورجع أبيمالك وفيكول رئيس جيشه إلى جرار. وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع. ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى.

وقد أورد الثعلبى (عرائس المجالس. ص ٩٦) رواية أخرى فى تسمية مدينة بئر السبع – ذلك أن إبراهيم كان قد حفر هذه البئر بعد خروجه من مصر. وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا. وكانت غنمه تردها. فأقام إبراهيم بهذه البلدة مدة. ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها. واتجه شمالا حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة. فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين. فندم أهل البلدة جميعا على ما صنعوا. وقالوا: أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا. فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال: ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه. قالوا إن الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك منه قد نضب وذهب. فأعطاهم سبع عنزات من غنمه وقال اذهبوا بها معكم، فإنكم إن أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منه ولاتقربنها امرأة حائض. فخرجوا بالأعنز. فلما وقفت على البئر ظهر الماء. فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال. حتى أتتها امرأة طامث فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى هو عليه اليوم!!

لوط عليه السلام

لايمكن ذكر قصة لوط منفصلة عن قصة إبراهيم عليهما السلام لأن أحداث القصتين، متداخل بعض مع بعضها، وقد سبق ذكر بعض منها، ولوط عليه السلام هو ابن أخى إبراهيم كفله إبراهيم وتبناه. ولما بعث إبراهيم عليه السلام كان لوط أول المؤمنين:

«فآمن له لوط». (٢٦ - العنكبوت)

ولما خرج إبراهيم عليه السلام من أور بعد محنة إحراقه كان معه لوط.

«ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين». (٧١ - الأنبياء)

ورافق لوط إبراهيم - عليه السلام - فى رحلته من أور إلى حاران، ثم إلى حبرون - فى أرض كنعان، أى فلسطين، وهى أرض بارك الله فيها، بعث فيها عدد كبير من الأنبياء، وإليها أسرى برسولنا صلى الله عليه وسلم ومنها عرج به إلى السماء وفيها المسجد الأقصى ثالث المساجد التى يشد إليها الرحال.

ثم إن لوطا رافق إبراهيم فى رحلته إلى مصر وعاد منها معه، وكان له عبيد وأغنام منفصلة عن ثروة إبراهيم.

وسبق أن ذكرنا أن الله اختاره رسولا إلى أهل سدوم.

«وإن لوطا لمن المرسلين». (١٢٣ - الصافات)

ولما أخبر إبراهيم بذلك حثه على الامتثال لما أمر الله به، فسار لوط بأهله وجميع ماله من غنم وإبل وبقر وعبيد - إلى سدوم، عند الطرف الجنوبى للبحر الميت، وقد سبق أن نفينا ما قاله كاتبو التوراة من أن ذهاب لوط إلى سدوم كان نتيجة مخاصمة بينه وبين إبراهيم (ص ١٢٠).

أقام لوط فى مدينة سدوم يدعو أهلها إلى عبادة الله وأن ينتهوا عما كانوا يقترفونه من فحش فى مجالسهم واعتدائهم على الغرباء.

وسبق أن ذكرنا ص ٦٦ أن العراق كان يحكمه فى ذلك الوقت حمورابى ورجحنا أنه هو الذى حاج إبراهيم فى ربه، ولعله هو الذى تسميه التوراة أمرافل لأن حمورابى تكتب أحيانا أمورابى وأمورافى أو إمرافيل، وسبق أن ذكرنا (ص ٧٥) أن حمورابى مد ملكه حتى شمل سوريا ووصل نفوذه إلى ساحل البحر المتوسط غربا وفرض على ملوك الدويلات وأمراء المدن دفع الجزية له، ومن هذه المدن التى كانت تدفع الجزية خمس مدن تسمى مدن السهل الخمسة إذ أنها تقع فى السهل الذى يشكل نصف دائرة حول الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٣٨). إذ فى غرب البحر الميت توجد جبال الخليل وفى شرق السهل يوجد جبل الضباب، وهذه المدن

الخمس هى:

١ – سدوم Sodom وكان ملكها يسمى بارع.

٢ – عمورة Gomorrah وملكها اسمه برشاع.

٣ – أدمة Adamah وملكها يسمى شآن.

٤ – صبوئيم Zeboiim وملكها شمئيير.

٥ – صوغر أو بالع Bela.

واستمر الحال كذلك عدة سنوات. يدفعون الجزية كل عام لمدة اثنى عشر عاما ثم تحالف هؤلاء الخمسة على العصيان وعدم دفع الجزية.

فقرر حمورابى محاربتهم لإخضاعهم وأيده فى ذلك ثلاث دول مجاورة هم عيلام وجوييم وألاسار. ونظموا جيشا تحت قيادة حمورابى هاجم به البلاد المتمردة فكانوا أربعة وهم:

١ – أمرافيل (حمورابى) ملك شنعار (بابل).

٢ – كدر لعومر ملك عيلام.

٣ – تدعال ملك جوييم.

٤ – أريوك ملك آلاسار.

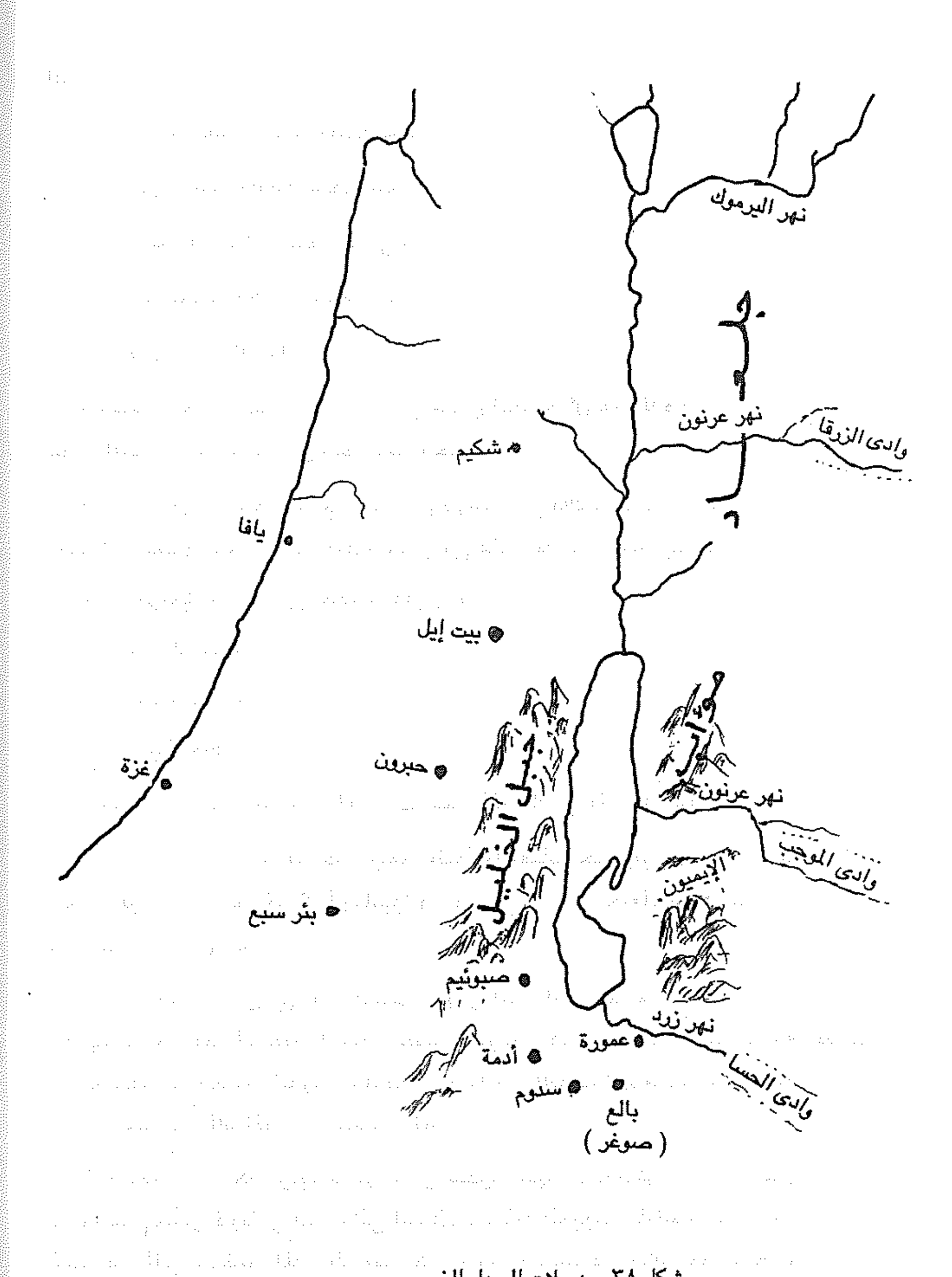
ويمكننا أن نصف تطورات الأحداث وسير المعركة فى المراحل التالية (شكل ٣٩):

١ – انسابت جيوش الملوك الأربعة المتحالفة بقيادة حمورابى عبر طريق شرق الأردن فى اتجاه الجنوب وهزموا قبائل الرفائيين والزوزيت فى أرض جلعاد ثم هزموا الإيميين فى مؤاب والحويين فى جبل سعير.

٢ – لم يشأ حمورابى أن يهاجم جيوش المدن الخمسة من الشرق. إذ كانوا يتوقعون مهاجمتهم من هذه الناحية وأقاموا تحصيناتهم على هذا الأساس. فقام بحركة التفاف واسعة ليهاجمهم من الجنوب الغربى فانحرف غربا إلى النقب. إلى قادش برنيع وهزم أبيمالك. ثم ضرب الأموريين الساكنين فى حَصُون تامار.

٣ – وقعت المعركة الرئيسية فى وادى سدوم وانهزمت جيوش المدن الخمس المتمردة وهرب ملك سدوم وعمورة وباقى الملوك إلى الجبال. وأخذت الجيوش المتالحفة جميع أهل سدوم أسرى لأنها هى التى حرضت المدن الخمس على التمرد وتزعمتهم. وكان لوط عليه السلام من ضمن الأسرى لأنه كان يسكن فى سدوم.

٤ – مضوا بأسراهم عائدين متخذين طريقا بحذاء الشاطىء الشرقى للبحر الميت ونهر



شكل ٣٨ – دويلات السهل الخمس

الأردن. ثم فى اتجاه دمشق.

٥ – أتى بعض الفارين من سدوم وأخبروا إبراهيم عليه السلام بما حدث من أسر لوط.

تقول التوراة (إصحاح ١٤ تكوين): فلما سمع إبراهيم بأسر لوط ابن أخيه جر غلمانه المتمرنين وعددهم ثلاثمائه وثمانية عشر وتبعهم إلى دان. وهجم علهم ليلا هو وعبيده وتبعهم إلى حوبة التى قبل دمشق واسترجع كل الأملاك. واسترجع لوطا وأملاكه.

ويصعب تصديق أن ٣١٨ من المحاربين مهما كان مرانهم أن يغلبوا الجيوش المتحالفة الأربعة والأرجح أن من هربوا من جيوش المدن المهزومة قد انضموا إلى إبراهيم ورجاله فبلغلوا عدة آلاف.

٦ – وسار إبراهيم عليه السلام يقودهم حتى وصل إلى دان وحوبة. والأرجح أيضا أن حمورابى وهو على سابق معرفة بإبراهيم – منذ محاجته له فى بابل – ويقينه بأنه رجل مبارك من الرب بدليل نجاته من النار فى أور – لم يشأ أن يحاربه أو تهيب محاربته. فأجاب مطلب إبراهيم وهو الإفراج عن لوط وخاصة بعد أن علم أنه أيضا نبى. ورد عليه جميع أملاكه. وإكراما لإبراهيم ولوط أطلق سراح كل أهل سدوم ورد أملاكهم.

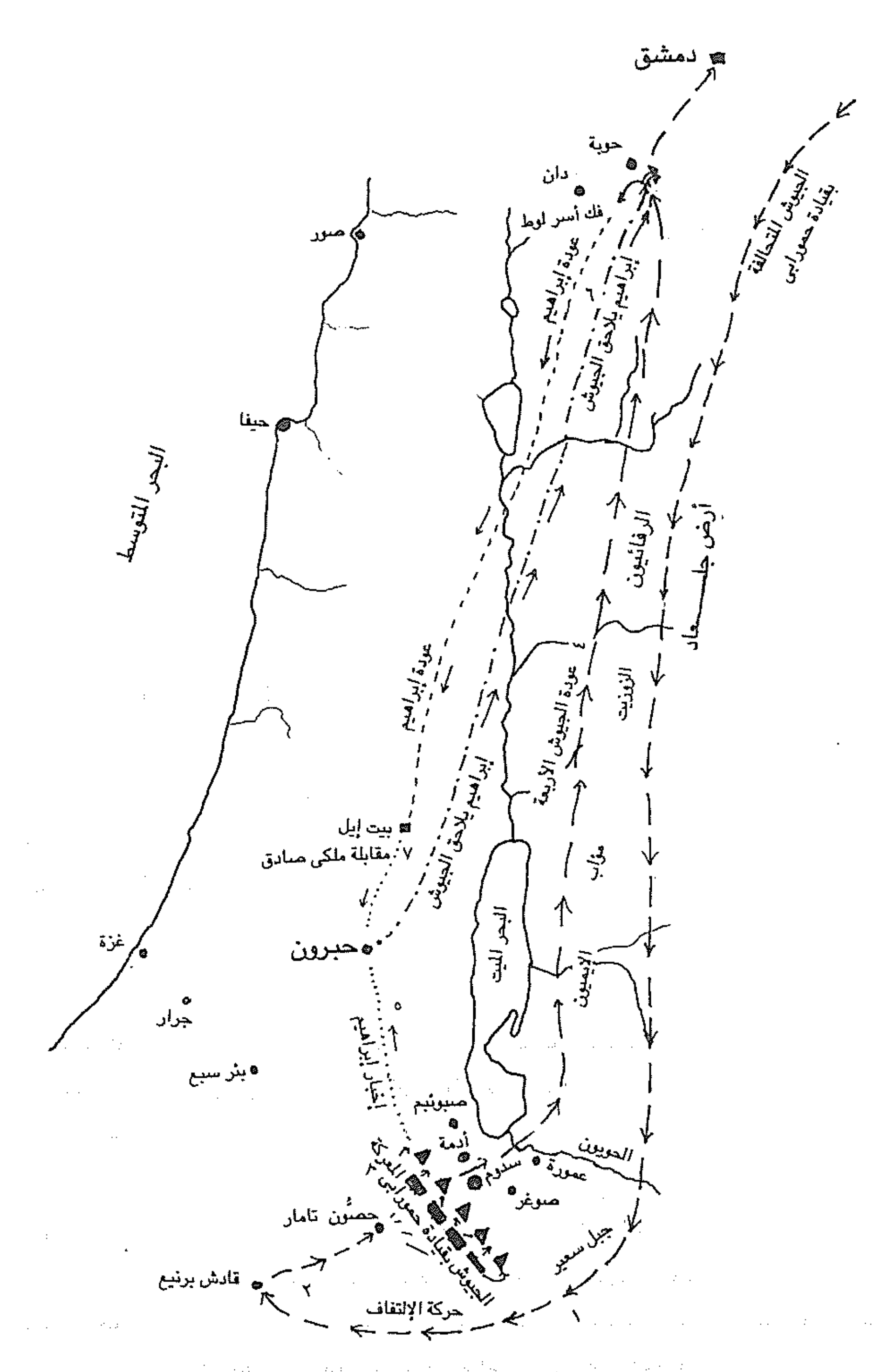
٧ – وفى طريق عودته مر على بلدة شاليم (مكان أورشليم) وكان ملكها هو الكاهن ملكى صادق. الذى بارك إبراهيم، وقال: مبارك أبرام من الله العلى ملك السموات والأرض. ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك. فأعطاه إبراهيم عشراً من كل شيىء. ويعتقد بعض أهل الكتاب أن ملكى صادق هذا ما هو إلا ملاك الرب.

قوم لوط:

كان لوط علية السلام مرسلا إلى أهل مدن السهل الخمس – السابق ذكرها وهى سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر – وكان يتنقل بينها يدعو الناس فيها إلى عبادة الله والإقلاع عن الفواحش التى كانوا يأتونها.

لم تردع هذه الهزيمة أهل سدوم وأهل القرى الأخرى. وكان الواجب على أهل سدوم بالذات أن يفطنوا إلى حقيقة أن الله قد أنقذهم من ذل الأسر والسبى ببركة لوط عليه السلام. إذ لولاه ولولا إسراع إبراهيم لنجدته لأخذوا عبيدا إلى بابل ونساؤهم وأطفالهم إماء وسبايا. ولكنهم ظلوا فى فساد أخلاقهم لا يستحون من منكر، ولايتعففون عن معصية، وكان لوط عليه السلام يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وبالعلم الذى علمه الله إياه:

«ولوطا أتيناه حكما وعلما». (٧٤ – الأنبياء)



شكل ٣٩ – محاربة الجيوش الأربعة للمدن الخمس المتمردة
وأسر لوط ثم فك أسره

فأمرهم لوط أن يتقوا الله، وأخبرهم أنه رسول مرسل من رب العالمين، وأنه أمين فيما ينصحهم به، وطلب منهم أن يطيعوه - كما قال لهم إنه لايسألهم أجرا على هذا النصح، لأن أجره على الله رب العالمين.

«إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين»، (١٦٠ - ١٦٤ الشعراء)

ثم بدأ يذكرهم بالموبقات التى يرتكبونها وهى:

١ - الشذوذ الجنسى.

٢ - قطع السبيل.

٣ - إتيان المنكر فى النوادى.

«ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أئنكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل، وتأتون فى ناديكم المنكر»، (٢٨ - ٢٩ العنكبوت)

١ - الشذوذ الجنسى.

وكان الشذوذ الجنسى متفشيا، يأتون الرجال والغلمان وهى فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من ولد آدم، وكان ذكرهم فى القرآن فى السور الأخرى بصيغة الاستفهام للإستنكار.

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون»، (٨٠ - ٨١ الأعراف)

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون»، (٥٤ - ٥٥ النمل)

«أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون»،

(١٦٥ - ١٦٦ الشعراء)

وفى هذه الآيات بيَّن الله لهم قبح هذا الفعل لأنه فى غير محله إذ أن الشهوة محلها الطبيعى هو النساء، لما يترتب عليه من الإنجاب، ولنا أن نتصور مجتمعا فشا فيه الشذوذ الجنسى وعزف الرجال عن النساء، فسيتناقص المواليد وينقرض هذا المجتمع، فكأنه ينتحر، ولعل هذا هو السبب فى أن الله - لما لم يرتدعوا - أبادهم، لأن هذا ما كانت ستؤدى إليه استمراريتهم فى هذا الفعل.

وفى الآيات من سورة النمل «وأنتم تبصرون» أى ترون ما صار إليه العصاة من قبلكم - أو وأنتم ينظر بعضكم بعضا، لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم إكتراثكم به.

ووصفوا مرة بأنهم قوم مسرفون. والإسراف وضع للشيء في غير موضعه والخروج عن الحدود. ووصفوا مرة ثانية بأنهم قوم يجهلون، أي يفعلون فعل الجاهلين أو يجهلون عاقبة ما يفعلون. أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون، ومرة ثالثة وصفوا بأنهم قوم عادون. والعادى المتعدى في ظلمه المتجاوز فيه الحد. أي أنتم قوم متعدون متجاوزون الحد في جميع المعاصي أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث أتيتم مالم يخلق لذلك وتركتم ما هو مخلوق لذلك.

٢ – قطع السبيل:

قيل قطع الطريق بسبب الاعتداء على الغرباء والمارة بتلك الفعلة القبيحة كرها. وقيل يقطعون النسل بالإعراض عن الطريق الطبيعي وهو الزواج الذى يتم به تكاثر الخلق. وقيل يقطعون الطريق بالقتل وقيل إنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل جهة، ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئا حتى لا يبقى في يده شيء كما كانوا يقفون في طريق الناس ويقتلونهم ويأخذون أموالهم.

٣ – وتأتون في ناديكم المنكر:

عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى: «وتأتون في ناديكم المنكر» فقال: كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم. وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه. ورواه الترمذى وقال حديث حسن.

وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد: هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضا.

وعن مجاهد أيضا هو تطريف الأصابع بانحناء والصفير والحذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم. وحل الإزار والسباب والفحش في المزاح.

هذه كانت أمراض ذلك المجتمع وأعراض فساده.

بدأ لوط عليه السلام دعوته بأن قصد نواديهم ومجتمعاتهم يبين لهم ضرر ما يفعلون. ويدعوهم للإيمان بالله. ولكنه رأى الناس في مجالسهم ونواديهم يستهزئون بكل من يمر بهم. ويضحكون. ويشيرون إليهم إشارات ماجنة. كما رآهم يأتون المنكر على أعين الناس. وامتلأت نفسه بالحزن والأسى. وأدرك جسامة مهمته. وبدأ يتساءل: هل يستطيع تغيير طبائع القوم؟ إنها مهمته وعليه أن يؤديها مهما كلفه الأمر من مشقة. ورأى في الأسواق أنواعا من الظلم والاستعباد. السادة يضربون العبيد بقسوة لأتفه الأسباب أو بدون سبب. ويتقاطرون على

التجار الوافدين يتخاطفون البضاعة التى معهم بدون دفع ثمنها.

وانطلق لوط إلى القوم فى كل مجلس يحذرهم من مغبة ما يعملون. ويبين لهم الأضرار التى ستحيق بهم من جراء أفعالهم هذه. وقال لهم إنه يمقت هذه الأفعال ويبغضها بشدة:

«قال إنى لعملكم من القالين». (١٦٨ - الشعراء)

لم يسمعوا لقوله وظلوا فى غيهم سادرين.

وظل لوط عليه السلام حوالى تسع سنوات لا يمل من دعوتهم للإقلاع عن الشر ويحثهم على الأخلاق الحميدة. وهم لا يرتدعون، وناله منهم أذى كثير.

كانوا يهزءون منه ومن دعوته إلى التطهر.

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا، أخرجوا آل لوط من قريتكم. إنهم أناس يتطهرون».

(٥٦ - النمل)

«وما كان جواب قومه إلا أن قالوا، أخرجوهم من قريتكم. إنهم أناس يتطهرون».
(٨٢ - الأعراف)

ومقصودهم السخرية بلوط ومن معه. كما يقول المفسدون لبعض المصلحين إذا وعظهم: أخرجوا هذا المتقشف أو أريحونا من هذا الزاهد المتزهد!!

ولما استمر استنكاره لما يفعلون وبيانه لقبح أفعالهم. ضاقوا به وانتقلوا إلى موقف التهديد. فهددوه بأن يخرجوه من بلدتهم إذا لم يكف عن تذكيرهم بشناعة تصرفاتهم:

«قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين». (١٦٧ - الشعراء)

ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار (محمد رسول الله والذين معه. جزء ٢ ص ٧٩): ومرت السنون. ولوط يدعوهم إلى الهداية وتأبى قلوبهم. وتاقت نفس إبراهيم إلى تنسم أخبار لوط، فدعا إبراهيمُ وكيلَ بيته أليعازر الدمشقى وأمره أن ينطلق ليأتيه بخبر لوط وقومه. فخرج أليعازر قاصدا سدوم. فبلغها. ونزل عن حماره وربطه. ليقضى بعض شأنه وعاد فلم يجد الحمار. فأخذ يبحث عنه دون جدوى. وسأل عنه أصحاب الحوانيت التى كان الحمار مربوطا بجوراها. فلم يرشدوه. بل وأنكروا أنه ربط حماره بجوراهم. وبات ليلته، وفى الصباح مر بالأسواق والنوادى ورأى أفعال القوم المنكرة فلم يستبشر خيرا. وحانت منه إلتفاتة فإذا به يرى حماره المسروق مع أحد القوم فأخذ بتلابيبه. فاحتكما إلى القاضى وأرشد أليعازر إلى علامات فى جسم الحمار تؤكد ملكيته له. وادعى السارق أنه وجد الحمار فى الطريق فأخذه وآواه وأطعمه. وطلب أجر ذلك. ولدهشة أليعازر حكم القاضى بأن يسترد حماره على أن يدفع مبلغا من المال للسارق أجرة إيواء الحمار وطعامه!

والمثل يقول: أجور من سدوم.

ورواية أخرى يرويها الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ١٢٨). قرأها فى كتاب من كتب الأدب العبرى، تدل على مدى ظلمهم. ذلك أن أليعازر لما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فضرب أليعازر، بحجر فى رأسه فسال منه دم كثير ثم تعلق به قائلا: إن هذا الدم لو بقى لأضر به وطلب أجرا على ذلك، فلما احتكما إلى قاضى سدوم حكم القاضى على أليعازر بأن يعطى السدومى أجرا على ما فعل، فلما رأى أليعازر الجور من القاضى عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضى فأسال دمه وقال له: الأجر الذى وجب لى عليك بإسالة دمك، عليك أن تعطيه للسدومى جزاء ضربه إياى وإسالة دمى!

وفى هذا يقول الشاعر المعرى:

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا   ولم يمضى أحكاما كحكم سدوم

قد تكون هذه الحكايات موضوعة، إلا أنها تبين الجو الفاسد والظلم البيّن الذى كان سائدا . ولم يتورع حتى القضاة عن الانغماس فى هذا الظلم والفساد وتشجيع القوم بالوقوف بجانبهم والحكم لصالحهم حتى وإن كانت جريمتهم واضحة للعيان.

ولاشك أن أليعازر قابل لوطا عليه السلام وسمع منه أكثر مما رآه من أفعال القوم، ولمس ما يلاقيه من عنت فى مهمته، وعاد أليعازر لينقل إلى إبراهيم عليه السلام صورة واضحة عن قوم سدوم وأفعالهم.... واستمر لوط فى دعوته لهم بالهداية والاستقامة.

وفى آخر الأمر هددهم بأن الله قد ينزل بهم عذابا قصاصا لسوء أفعالهم إن لم ينتهوا منها ويقلعوا عنها:

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين». (٢٩ - العنكبوت)

وكان لهذا التحدى منهم معنى واحد، هو أنهم لن يستجيبوا له مهما كرر عليهم الدعوة، فهم لم يأبهوا بتهديده إذ لا يؤمنون بأنه نبى مرسل من الله، بل ويحمل ضمنا أنهم لايؤمنون بوجود إله سيحاسبهم على أفعالهم ولا يصدقون أن عذابا ما سينزل بهم، وصل الأمر بينه وبينهم إلى طريق مسدود، فلجأ إلى الله:

«قال رب انصرنى على القوم المفسدين». (٣٠ - العنكبوت)

«رب نجنى وأهلى مما يعملون. (١٦٩ - الشعراء)

ولعل لوطا تساءل فى نفسه إن كان قد أدى مهمته على وجهها . لقد بذل كل مافى وسعه

لنصحهم وهدايتهم ولكن لم تبدر منهم أى بادرة ولو صغيرة على رغبتهم فى الاستجابة لنصحه ولم يبدأوا بخطوة واحد نحو إصلاح أنفسهم. وهم لو فعلوا لكان الله قد أعانهم على الخطوات التالية. ولكنهم تشبثوا بأفعالهم المنكرة ولم يتزحزحوا عنها قيد أنملة. بل كانوا يغوون القادمين إليهم حتى يشابهوهم فى أفعالهم. فحق عليهم العذاب.

نترك لوطا فى سدوم. ونعود إلى إبراهيم عليه السلام فى حبرون وكان أليعازر الدمشقى قد نقل له صورة قوم سدوم. وأدرك إبراهيم كم هى شاقة المهمة التى كلف بها لوط. وتمنى له النجاح فى مهمته ويهتدى القوم على يديه.

ولكن كان فى علم الله أن هؤلاء قوم فاسدون ولن يرجى صلاحهم وحقت عليهم كلمة العذاب.

وكلف الله ثلاثة من الملائكة بإنزال أمر الله عليهم بالدمار.

وكُلفوا بالمرور على إبراهيم عليه السلام وإخباره بذلك.

وكُلف الملائكة أيضا بنقل البشارة لإبراهيم بأن زوجته سارة ستلد له إسحق.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر ٩٨ عاما. ولما كانت سارة تصغره بعشرة أعوام فقد بلغت من العمر ٨٨ سنة.

قدوم الملائكة على إبراهيم:

«ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما. قال سلام». (٦٩ - هود)

كان إبراهيم عليه السلام مضيافا. ولا يرضى لأضيافه بما يقيم أودهم بل كان يكثر لهم من الطعام. وقيل كان لبيته أربعة أبواب. من كل جهة باب لئلا يفوته أحد. ولذلك كانت كنيته «أبا الضيفان».

وجاء رسل الله - وهم الملائكة - إلى إبراهيم.

وروى ابن عباس: أنهم كانوا اثنى عشر ملكا.

وقال السدى: أحد عشر على صورة الغلمان فى غاية الحسن والبهجة.

وحكى صاحب القينان أنهم عشرة منهم جبريل.

وقال الضحاك تسعة.

وقال محمد بن كعب ثمانية.

وحكى الماوردى أنهم أربعة

وجاء فى رواية عن عثمان بن محيصن أنهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وروفائيل عليهم السلام.

وفى رواية عن ابن عباس وابن جبير: أنهم ثلاثة. الأولون فقط. وقال مقاتل جبرائيل وميكائيل وملك الموت.

واختار بعضهم الاقتصار على القول بأنهم ثلاثة لأن ذلك أقل ما يدل عليه الجمع فى قوله تعالى «رسلنا» وليس هناك ما يعول عليه فى الزائد. ولقد أسند إليهم المجىء فى قوله تعالى «ولقد جاءت» لأنهم كانوا مرسلين أساسا إلى قوم لوط فى قوله «إنا أرسلِنا إلى قوم لوط» – وإنما كان مجيئهم إلى إبراهيم لإبلاغه بالبشرى.

البشارة لسارة **«فبشرناها بإسحق»** . (٧١ – هود)

والبشارة له **«وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين»**. (١١٢ – الصافات)

وقيل أيضا بشرى بهلاك قوم لوط. فإن هلاك المفسدين مما يبشر به ويفرح له المؤمنون.

ولنذكر أولا الآيات التى تصور هذه الحادثة. وقد جاءت فى ثلاث سور مختلفة:

ففى سورة هود جاء قوله تعالى:

«ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى. قالوا سلاما. قال سلام. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة. قالوا لاتخف. إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت. فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب. قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله. رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد». (٦٩ – ٧٣ هود)

وفى سورة الحجر:

«ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون. قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم. قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبير. فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنطُ من رحمة ربه إلا الضالون. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين، إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين». (٥١ – ٦٠ الحجر)

وفى سورة الذاريات:

«هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما. قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون؟ فأوجس منهم خيفة

قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته فى صَرَّة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ». (٢٤ - ٣٢ الذاريات)

وهكذا ذكرت القصة فى القرآن الكريم فى ثلاث سور لتعطى ثلاث نظرات من زوايا مختلفة، ليتكون عند القارىء والسامع إدراك حقيقى لما وقع. ويكاد يتمثل الأحداث بحذافيرها وما وقع فى النفوس من مشاعر وأحاسيس: بشاشة بالضيف ثم خوف منهم. فرح بالبشرى ثم تعجب. مجادلة خوفا أن يصيب لوطا بعض الأذى مما سيحل بقومه. ثم اطمئنان لتأكيدهم له بأنهم منجوه وأهل بيته إلا إمرأته.

جاء الرسل - وهم من الملائكة - على هيئة بشرية - رجال قادمون من البادية. وأقبلوا عليه وألقوا إليه بالتحية: سلاما . فرد عليهم السلام ولم يتعرف على أحد منهم. فهم أغراب قوم منكرون. وواجب عليه إكرام الضيف. فراغ إلى أهله أى ذهب على خفية إلى أهله لتدارك الطعام. وقد ذكِر أن من أدب الضيافة أن يبادر المضيف بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يمنعه الضيف - أو يصير منتظرا له. وبالكرم الذى جبل عليه رأى أن مثل هؤلاء الأضياف لايجب أن يقدم لهم إلا عجل حنيذ أى سمين مشوى على الحجارة الساخنة فى أخدود - ويسيل السمن عليه كأنه العرق.

وقدم لهم الطعام. وجلس ليأكل معهم. وامرأته قائمة. واقفة عن قرب لما قد يحتاجونه.

ومن أدب الضيافة أن ينظر المضيف إلى الضيف هل يأكل أم لا، على أن يكون ذلك من طرف خفى لا بتحديد النظر.

ورأى إبراهيم أنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام. وكانت العادة أن الضيف إذا لم يأكل طعام المضيف كان موجبا لظن الشر وأنه لم يجئ بخير. وظهرت على إبراهيم مخايل الخوف. واسترجع فى ذهنه بعض الملاحظات التى زادت من خوفه.

فإن غلمانه ينتشرون فى المنطقة يرعون أغنامه ومواشيه. وإذا رأوا غريبا سارعوا لإخبار إبراهيم - أو رافقوه حتى خيمته وهؤلاء الأغراب ظهروا فجأة لم يشعر بهم أحد إلا وهم أمامه. وكانوا مسافرين ولا يظهر على وجوههم ولا ثيابهم أثر من تراب السفر أو وعثائه. كما لم تكن معهم دواب ولا أحمال مما يكون مع المسافر.

صرح بشعوره نحوهم فقال: **«إنا منكم وجلون»** فبادروه بقولهم لاتخف ولا توجل ولإزالة الخوف نهائيا من نفسه بشروه بأن سيكون له ولد من صلبه - وهو الأمر الذى طالما تمناه طوال عشرته مع سارة. بشروه بغلام عليم فلما اطمأن تعجب واستبعد أن يكون له ولد بعد كل هذه السنين. وقال: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر. فبم تبشرون؟ فأى بشرى هذه؟ ولعله ظن

أنهم يقولون ذلك لمجرد إذهاب الخوف عنه. ولكنهم أكدوا له أنها بشرى حقيقة. **«بشرناك بالحق»**. وذكروه أنه لا يجب أن ييأس أو يقنط من رحمة الله. فأمّن على كلامهم بقوله إن من يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين.

كانت سارة على مقربة. فسمعت هذا الحديث. والبشرى بالولد وهو أمر يمسها. بل الأمر يتعلق بها كلية لأنها هى التى تحمل وتلد. ولعل زوجها كان يقصدها هى من طرف خفى حينما قال: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر - فالرجل قادر على الإنجاب مهما تقدمت به السن. أما المرأة فلها فترة خصوبة إذا تعدتها أصبحت عقيما. لذلك نسب الكبر إلى نفسه حتى لا يجرح شعورها لهذا ضحكت تعجبا أن تلد فى هذه السن المتقدمة. وهى قد قاربت التسعين. فوجهوا الخطاب إليها وبشروها بالولد وذكروا اسم الوليد **«فبشرناها بإسحق»** ولزيادة التأكيد أخبروها أنها ستعيش حتى ترى ولد ولدها وهو يعقوب **«ومن وراء إسحق يعقوب»**.

فندت عنها صرة وصيحة. وكما تفعل النساء فى مثل هذا الموقف لطمت وجهها من الحياء أو تعجبا **«وصكت وجهها»**. ولم تتحرج من أن تصرح بما تعرفه عن نفسها من تقدم فى السن وطول هذه السنين لم تنجب. وقالت: عجوز عقيم. ثم استشعرت الحرج والحياء لو حدث فعلا فقالت: **«ياويلتى أألد وأنا عجوز. وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب»**! وكان رد الملائكة: **«أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد»**. إن هذه هى إرادة الله. وهو الذى يدبر الأمور بحكمته وبعلمه سبحانه وتعالى: **«قالوا كذلك قال ربك. إنه هو الحكيم العليم»**.

وهكذا انتهى هذا الجزء من مهمة الرسل. وهو البشارة لإبراهيم عليه السلام وزوجته سارة.

ولكن إبراهيم عليه السلام أدرك بحسه أن لابد هناك شيئ آخر وراء هؤلاء الرسل. لأن البشارة قد كان يكفى فيها وحيا يوحى إليه أو رؤيا صادقة كما هى رؤى الأنبياء. فلابد إذن أن هناك مهمة أخرى لهؤلاء الرسل. ولابد أيضا أن إبراهيم عليه السلام قد تعرف على هؤلاء الملائكة وعرف عظم قدرهم فكان سؤاله" **«قال فما خطبكم أيها المرسلون»**؟ وصدق حدسه فقد كان الجواب: **«إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين»**.

هكذا وصف القوم بأنهم قوم مجرمون. وتكرر ذلك مرتين. مرة فى سورة الحجر (الآية ٥٨) ومرة أخرى فى سورة الذاريات (الآية ٣٢). كانوا مجرمين فيما بينهم. ومجرمين لاعتدائهم على الغرباء ومجرمين فى حق الله لتكذيبهم رسوله، أى أن الإجرام متأصل فى طبعهم. ولم يكن لهذا الوصف من معنى إلا أنه قد وجب هلاكهم. وصرّحوا بذلك.

«قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية. إن أهلها كانوا ظالمين». (٣١ - العنكبوت)

وأشفق إبراهيم أن ينال لوطاً أذى مما سيحيق بقومه. **«قال إن فيها لوطاً قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجِّينَّه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين».** (٣٢ - العنكبوت)

«فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى، يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب». (٧٤ - ٧٥ - هـود)

فالبرغم من علم إبراهيم بفساد خلق أهل هذه القرية إلاَّ أنه أشفق عليهم من عذاب الله إذا نزل بهم. وأخذته الرأفة بهم. وهو حليم يأمل فى تأجيل الانتقام من المسيئ عسى أن يهتدى فى يوم ما. كما أنه كثير التأوه من الذنوب والأسف على الناس.

فراح يجادل رسل الله.

وكان أول مجادلة أن قال إن فيها لوطاً أى كيف تهلكون قرية فيها نبى الله لوط. فلما قالوا إنهم منجُّوه.

راح يحاول ثانية عسى الله يقبل شفاعته.

وعن حذيفة أنه قال لهم: أرأيتهم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها، قالوا لا. قال فثلاثون؟ قالوا لا. قال فعشرون؟ قالوا لا. قال فإن كان فيهم عشرة؟ قالوا لا.

قال إبراهيم: ما من قوم لا يكون فيهم عشرة مؤمنين فيهم خير. وأكد الرسل لإبراهيم أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنون وقالوا:

«يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود».

(٧٦ - هـود)

وهكذا قضى الأمر. ومتى جاء الله فلا مردَّ له. ولا محلَّ لجِدَالٍ أو شفاعة . والعذاب لا محالة واقع بالقوم المجرمين.

يحسن بنا - هنا - أن نذكر ما تقول التوراة لندرك ما سبق أن نوهنا إليه - من أنهم يجنحون إلى تجسيد الإله. ففى الإصحاح الثامن عشر تكوين جاء: وظهر له (أى لإبراهيم) الرب عند بلُّوطات مَمْرَا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنتُ قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت.فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً. اعجنى واصنعى خبزاً ملَّة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى عمله ووضعها

قدامهم. وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا!

لنقارن هذا ببلاغة اللفظ القرآنى وإيجازه فى قوله تعالى: «فما لبث أن جاء بعجل حنيذ» – ثم إن الملائكة وإن تشكلوا على هيئة رجال إلاَّ أنهم ليسوا فى حاجة إلى طعام مثل البشر لذلك «رأى أيديهم لا تصل إليه» أى لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولم يأكلوا.

ونعود ثانية إلى ما جاء فى التوراة: وقالوا له أين سارة امرأتك. فقال ها هى فى الخيمة. فقال إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة فى باطنها قائلة: بعد فنائى يكون لى تنعُّم وسيدى قد شاخ! فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الرب شيئ؟ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة لم أضحك لأنها خافت: فقال بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم فقال الرب هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله وإبراهيم يكون أمَّة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلىَّ. وإلاَّ فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب.

وهنا يتضح لنا أنهم يقصدون أن الملائكة جاءوا على هيئة رجال ومعهم الرب. بل ويجعلون الرب لا يعلم ما يفعل أهل سدوم وعمورة. إلاَّ إذا نزل بنفسه ليرى ما يفعلون!!

ويختصر اللفظ القرآنى مجادلة إبراهيم بقوله **«يجادلنا فى قوم لوط»** فى حين تستطرد التوراة فتقول:

فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم. عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار كالأثيم. حاشا لك. أديَّان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين باراً فى المدينة فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد. ربما نقص الخمسون باراً. أتهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا أهلك أن وجدت هناك خمسة وأربعون. فعاد يكلِّمه أيضا وقال عسى أن يوجد هناك أربعون فقال لا أفعل من أجل الأربعين، فقال لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال إنى شرعت أكلم المولى. عسى أن يوجد

هناك عشرون، فقال لا أهلك من أجل العشرين. فقال لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال لا أهلك من أجل العشرة وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

فى سدوم:

لما فصلت (أى ذهبت) الملائكة من عند إبراهيم أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صورة شبان حسان – اختباراً من الله تعالى لقوم لوط ولإقامة الحجة عليهم.

فقابلوا لوطاً وطلبوا منه أن يضيفهم. وحسبهم بشراً من الناس. وخشى إن لم يضيفهم هو ضيفهم غيره وأساء إليهم – كما كانوا يصنعون مع غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً.

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم. وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها – هذا معنى «وسيىء بهم».

«ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم. وضاق بهم ذرعاً». (٣٣ – العنكبوت)

وأخيراً أفصح لهم قائلاً: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدة أخبث من أهل هذه القرية. ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات. قال: وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. ولما رأى أنهم مصرون على النزول فى هذه البلدة وأنه مضطر لاستضافتهم وأن قومه لابد سيعلمون بوجودهم وسيضطر للدفاع عنه: «قال هذا يوم عصيب».

«ولما جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب». (٧٧ – هود)

وقال السدى. خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار. فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها. وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى زغرتا. فقالوا لها يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم نعم، مكانكم، لا تدخلوا حتى آتيكم. شفقة عليهم من قومها. فأتت أباها فقالت يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة. ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. فلما خرج إليهم قالوا له إنا نريد أن تضيفنا الليلة. فقال أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا وما عملهم؟ فقال أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم فى الأرض، وقد كان الله تعالى قال للملائكة لا تنزلوا بهم العذاب حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات. فلما قال ذلك قال جبريل عليه السلام هذه واحدة. وتكرر

القول منهم حتى كرر لوط الشهادة فتمت الأربع. وجاء بهم. فلم يعلم أحد إلاّ أهل البيت. فخرجت أمرأته فأخبرت قومها. فقالت إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين». (١٠ - التحريم)

وكانت خيانة امرأة لوط أن أخبرت قومها بضيوفه. وكانت كافرة غير مؤمنة برسالته.

ولما علم القوم بهم جاءه قومه يُهرعون إليه. جاءوا محمومين مسرعين. ولعل لوطاً تساءل بينه وبين نفسه عمن أخبر القوم بضيوفه وأدرك أنها لابد زوجته إذ هى قد غابت عن البيت قليلاً بعد حضورهم وحزن من غدرها به وإفشائها سر ضيوفه وهو الأمر الذى حرص على كتمانه.

جاءوا مسرعين ومن قبل كانوا يعملون السيئات. واعتادوا على المنكر فأسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه مظهرين، غير مكترثين، لضياع الحياء من وجوههم وسلوكهم.

وأحاطوا بالبيت. فخرج إليهم وأغلق الباب خلفه حفظاً لضيوفة متعلقاً بأمل أن يقنعهم بالمنطق.

ولكنهم لم يرتدعوا وقالوا له أو لم ننهك عن إجارة أحد؟ والحيلولة بيننا وبينه وأن لا تستضيف أحداً؟

«قالوا أو لم ننهك عن العالمين

قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين». (٧٠ - ٧١ الحجر)

«قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم. فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى، أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق. وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد». (٧٨ - ٨٠ هـود)

وتثور هنا مسألة: كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبى معصوم.

وخير ما قيل للرد على ذلك هو أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة ولا يعقل أن يكون كل واحد من القرية - الذى جاءوا إليه يأمل أن ينال حاجته منهم وأهل القرية يبلغون ألفاً أو يزيدون. ولكن المعقول أن هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة فى القوم وهم الذين يطلبون الملائكة وجاء معهم أهل القرية كلهم لمظاهرتهم حتى يتم مرادهم - فعرض لوط عليهم ابنتيه ليأخذوهم بطريق التزوج وهذا هو الطهر الذى أشار إليه **«هؤلاء بناتى هن أطهر لكم»** ويقال إنهم كانوا يطلبونهن من قبل للزواج وكان لا يجيبهم لخبثهم وعدم كفايتهم. وإن قال

البعض بعدم مشروعية تزويج المؤمنات من الكفار رُدَّ عليه بأن ذلك كان جائزاً - وكان جائزاً أيضاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. فزوج ابنته زينب لأبى العاصى بن الربيع، وابنته رقية لعتبة وابنته أم كلثوم لعتيبه ابنى أبى لهب - وكانوا كفاراً - وكان عدد من الصحابه لهم زوجات كافرات ولم يفارقوهن حتى نزل قوله تعالى: **«لاهن حل لهم، ولا هم يحلون لهن»** فى الآية ١٠ من سورة الممتحنة بالمدينة.

وأيًّا ما كان، فقد أراد لوط عليه السلام بذلك وقاية ضيفه وهذا غاية الكرم.

وقيل أيضاً كيف يليق به عليه السلام أن يعرض بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم، وقيل أيضاً كيف يعرض بناته وهن اثنتان أو ثلاثة على القوم وهم أكثر منهن عدداً. ورد بعض المفسرين أن ذلك القول منه عليه السلام لم يكن مجرياً على الحقيقة من إرادة الزواج بل كان مبالغة فى التواضع لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما هم يطمعون فيه. ويمكن اعتباره تنازلاً منه عن رفضه السابق لهم مبالغة فى حماية ضيوفه. طمعاً أن يَرِقُّوا أو يستحوا منه إذا سمعوا تنازله هذا. فكأنه عليه السلام اختار أهون الشرين - أن يزوجهم بناته مع كرهه لذلك بدلاً من الإعتداء على ضيفه والفحش فيهم.

وعن ابن عباس وابن أبى حاتم ومجاهد والسدى أن المراد ببناته عليه السلام نساء أمته باعتبار كل نبى أب لأمته. وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ٢١ ص ١٥٢) - وأخرج الفريابى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ الآية ٦ من سورة الأحزاب **«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم»**. كان يقرؤها **«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم، وأزواجه أمهاتهم»**.

وقد روى عن أبىّ بن كعب وابن عباس (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٤٦٨) أنهما قرأ الاية هكذا:

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وأزواجه أمهاتهم. وهو أب لهم».

وهكذا ناشدهم بالمنطق. ثم قدم لهم تنازلاً عما كان رفضه قبلاً. ثم أوضح لهم طهارة الفطرة السليمة - كل ذلك حماية لضيوفه. ثم ناشدهم باسم المروءة والشهامة. وإكرام الضيف من الطباع العربية الأصلية. وفضح الضيف خزى. لذلك قال:

«ولا تخزون فى ضيفى».

ثم تلمَّس أن يكون من بينهم رجل منصف. رشيد العقل يقف إلى جواره. فتساءل.

«أليس منكم رجل رشيد»؟ (٧٨ - هـود)

وناشدهم مرة أخرى بتقوى الله والخوف منه.

«قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين».
(٦٨ - ٧٠ الحجر)

وهكذا ذهبت مناشداته لهم أدراج الرياح. وكان ردهم هو أنهم كانوا قد طلبوا منه سابقاً عدم إجارة الوافدين على القرية، كأنهم يحملونه تبعة ما قد فعله من إستضافة هؤلاء النفر. وإن كان هناك خزى أو فضيحة فكأنه هو المتسبب فيها بهذه الاستضافة وليس بسبب قبح ما يريدون!! ثم أفصحوا فى تبجح وفجور عن رغبتهم فى الفاحشة وليس فى الزواج الحلال من بناته أو نسائهم.

«قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق. وإنك لتعلم ما نريد». (٧٩ - هـود)

وقيل كانوا يعنون مالنا فى بناتك من نكاح حق لأنك لا ترى جواز نكاح المسلمات منا وما هو إلاً عرض غير حقيقى. وقيل عنوا قضاء الشهوة أى ما لنا حاجة فى بناتك. وإنك لتعلم ما نريد من إتيان الذكور.

ونلمس هنا بلاغة اللفظ القرآنى وسُمُوّ معناه. إذ أنه بالإبهام كان أكثر وضوحاً من التصريح - فلم يوضح ما يريدونه وترك للقارىء استنتاج ما يريدون - أو أنهم من قبح ما كانوا يريدون لم يستطيعوا - وهم على ما هم من فسق وفجور - أن يذكروه صراحة.

ولما يئس من رجوعهم عما هم عليه من الغى ولمس تصميمهم على تحقيق مرادهم بالقوة.ولعله رأى تزايد جموعهم. وتصايحهم واقترابهم منه ومن بيته.

«قال لو أن لى بكم قوة. أو آوى إلى ركن شديد». (٨٠ - هـود)

وهكذا تمنى أن لو كان قوياً يستطيع ردهم. أو يأوى إلى ركن من البيت شديد فى منعته لا يستطيعون اقتحامه أو ركن من نفر معه حتى يستطيعوا ردهم. ولعله رأى أن الله يمتحنه بهذا الموقف ليرى مدى استبساله فى الدفاع عن ضيفه ودفع الأذى عنهم. ومن هنا كان تمنيه أن لو كان معه نفر كالركن الشديد لا يستطيع القوم التغلب عليهم.

وقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «رحم الله أخى لوطاً. كان يأوى إلى ركن شديد» يعنى عليه الصلاة والسلام - الله تعالى فإنه لا ركن أشد منه عز وجل.

ورُوِىَ أن لوطاً عليه السلام دخل بيته وأغلق بابه. فحاولوا اقتحام البيت. فلما رأت الملائكة ما عليه لوط من كرب أفصحوا له عن حقيقتهم.

«قالوا يا لوط إنا رسل ربك، لن يصلوا إليك». (٨١ - هـود)

وهنا أيقن أن نجدة الله قريبة منه، ولكن كيف، وها هو يرى القوم وقد كسروا الباب وبعضهم تسوَّر الجدار، ودخلوا البيت، ولكنه عجب - لقد رآهم بدلاً من أن يتجهوا نحوه ونحو ضيفه، بعضهم يتجه لخارج البيت والبعض يتحسس الحيطان ويتخبط بعضهم فى بعض.

«فطمسنا أعينهم».

ويقال إن جبريل عليه السلام استأذن رب العزة - ثم ضرب أعينهم بجناحه فانطمست أعينهم ولم يعودوا يرون شيئاً، فرجعوا على أدبارهم يتحسَّسُون الحيطان ويتوعدون لوطاً إلى الصباح، ظناً منهم أن الظلام الذى عمهم كان من غمامة حجبت ضوء النجوم أو ريحاً أطفأت مشاعلهم.

«ولقد راودوه عن ضيفه، فطمسنا أعينهم، فذوقوا عذابى ونذر». (٣٧ - القمر)

وقال الملائكة للوط عليه السلام،

«وقالوا لا تخف ولا تحزن، إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون». (٣٣ - ٣٤ العنكبوت)

ولما كان القوم قد توعدوه بالعودة فى الصباح، فقد أمَرَه الملائكة بالخروج ليلاً فى السحر وهو ما قبل الفجر والإسراء هو السير بأول الليل أو آخره.

«إلاَّ آل لوط نجيناهم بسَحَر». (٣٤ - القمر)

«فأسرِ بأهلك بقِطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاَّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب». (٨١ - هـود)

«فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد وأمضوا حيث تؤمرون، وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين». (٦٥ - ٦٦ الحجر)

«فنجيناه وأهله أجمعين، إلاَّ عجوزاً فى الغابرين، ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً، فساء مطر المنذرين، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم».

(١٧٠ - ١٧٤ الشعراء)

«فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته قدرناها من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطراً، فساء مطر المنذرين». (٥٧ - ٥٨ النمل)

«وإن لوطاً لمن المرسلين، إذا نجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزاً فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين». (١٣٣ - ١٣٦ الصافات)

وقيل فى تفسير «فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحداً إلاَّ امرأتك»:

قال الزمخشرى إنه سبحانه استثناها من الإسراء كأنه قال فأسر بأهلك إلاّ امرأتك بالنصب. وقرأها آخرون بالرفع استثناء من الإلتفات - والمعنى فإن خرجت معكم وتبعتكم من غير أن تكون أنت سريت بها. فإن الأمر بعدم الإلتفات ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا إمرأتك. فإنها ستلتفت وسيصيبها ما أصاب قومها وتهلك. ويقال إنها لما تبعتهم ورأت نُذُر العذاب قالت يا قوماه تريد أن تحذرهم فأصابها حجر فقتلها.

وجاء الصبح - وكان لوط قد ابتعد بأهله. وفى الصبح المبكر نزل بهم العذاب.

«ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابى ونذر». (٣٨ - ٣٩ القمر)

وجاءهم العذاب على هيئة حجارة تساقطت عليهم من السماء. وقُلبت عليهم الأرض.

«فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك. وما هى من الظالمين ببعيد». (٨٢ - ٨٣ هود)

«إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون». (٣٤ - العنكبوت)

«وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين». (١٧٣ - الشعراء - ٥٨ - النمل)

وكان القوم لما عادوا أدراجهم جعلوا يمنون أنفسهم بأنهم فى الصباح لابد سينالون ما يرجون. فإن كان ظلام الليل قد حجبه عنهم. فللصبح أعين كما يقال. وأسكرتهم نشوة الفرح بما سينالون فى الصباح وهم فى عمى عما سيكون عليه الصباح بالنسبة لهم!

«لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون. فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين». (٧٢ - ٧٥ الحجر)

ويقال إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن بيده. وفى رواية أخرى أدخل جناحه تحتها فرفعها ثم قلبها. ولا ينبغى أن يؤخذ الكلام على أنه كناية عن إنزال أمر عظيم فيها. فلقد قلبت بهم الأرض فعلا. وليس ذلك فقط. فقد أرسل الله عليهم حجارة من طين متحجر - حجارة من سجيل - وقيل إن سجيل معربة عن الفارسية «سكيل» بمعنى الطين المتحجر - سك: جاف، كيل: طين. «حجارة من سجيل منضود» أى نضد ووضع بعضه على بعض معدا لعذابهم ونزلت عليهم بكثرة كأنها المطر. «مسومة عند ربك» قيل معلمة يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل معلمة ببياض وحمرة. وفى رواية عن ابن عباس أن بعضها كان أسود فيها نقطة بيضاء وبعضها كان أبيض فيه نقطة سوداء. وعن الربيع أنها كانت معلمة بأسماء من يرمى بها. وفى حجمها قيل: بعضها مثل قبضة الرجل وقيل مثل رؤوس الإبل.

وقد وصف ذلك أيضاً بمطر السوء فى قوله تعالى:

«ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء. أفلم يكونوا يرونها». (٤٠ - الفرقان)

وكانت مدن السهل الخمس هى سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر كما سبق أن ذكرنا (شكل ٣٨ ص ١٢٦). أشهرها وأكبرها سدوم. وهى القرية التى كان فيها لوط عليه السلام. وكان فيها على ما روى عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان - أى أربعة ملايين!. وهى مبالغة كبيرة إذ أن مدن هذه الأيام حتى الكبير منها ما كانت لتزيد عن ثلاثين أو خمسين ألفا أو نحو ذلك. وهذه المدن الخمس كانت عبارة عن قرى. بل إن تفسير الألوسى يجعلها قُريّات - جمع قُريّة، تصغير قرية - وقد لا يزيد سكان القرية عن أربعة آلاف والقُريّة أقل من ذلك، فتكون ألفين أو ثلاثة. فيكون من هلكوا فى حدود ١٢ - ١٦ ألف نسمة. وكانت قرية صوغر (واسمها أيضا بالع) أصغرها. وتقول التوراة: ولم تخرب هذه المدينة عند سقوط سدوم وأخواتها. لأن لوطا صلى من أجلها ولجأ إليها.

وتسمى قرى لوط بالمؤتفكات وهو جمع مؤتفكة. وهو الانقلاب بجعل أعلا الشيء أسفله. وفى هذا جاء قوله تعالى:

«والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشى». (٥٣ - ٥٤ النجم)

«وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة». (٩ - الحاقة)

«وقوم إبراهيم. وأصحاب مدين. والمؤتفكات». (من الآية ٧٠ - التوبة)

والمراد هنا أهل قرى قوم لوط مجازا باطلاق اسم المحل على ساكنيه مثل قولنا: كذب العراق نوحا والمقصود أهل العراق.

وفى تفسير «فأخذتهم الصيحة» قيل يعنى صيحة هائلة وقيل صيحة جبريل عليه السلام. وقال ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال الصيحة مثل الصاعقة فكل شيء جاء فجأة وأهلك قوما فهو صاعقة وصيحة. وقيل فى تفسير مشرقين، أى داخلين فى وقت شروق الشمس. وقيل والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق.

وهكذا تم أمر الله، وأهلك القوم المجرمون. ونجى الله لوطا ومن معه وهم أهله - ابنتيه - إلا امرأته التى خانته وأخبرت القوم عن ضيوفه كما سبق أن ذكرنا - كانت من الغابرين.

وغبر بقى. أى كانت من الباقين فهلكت كما هلكوا. والزمن الغابر أو عز غابر، أى ذاهب وانقضى. وتفيد انقضاء الأجل بمعنى الهلاك أيضا.

«إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم». (من الآية ٨١ - هود)

«وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين». (١٣٣ - ١٣٦ - الصافات)

«فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين». (٥٧ – ٥٨ – النمل)

«فنجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين». (١٧٠ – ١٧٣ – الشعراء)

«فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فانظر كيف كان عاقبة المجرمين». (٨٣ – ٨٤ – الأعراف)

«فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين. وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم. (٣٥ – ٣٧ – الذاريات)

وفى هذا تصديق لما قيل من قبل فى مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسل فى شأن إنزال العذاب. وقول الملائكة: لا نهلكهم لو كان فيهم عشرة مؤمنون. وهكذا لم يكن فيهم غير بيت واحد من المسلمين. وكانوا أقل من العشرة.

«وامضوا حيث تؤمرون». (من الآية ٦٥ – الحجر)

وقيل إن لوطا أُمر بالذهاب الى مدينة صوغر التى لم ينلها العذاب وعاش بها وقيل أقام فى حبرون مع عمه إبراهيم عليه السلام.

وقرى قوم لوط – وخاصة سدوم وعمورة – تقع على طريق القوافل. ويرى الناس الدمار الذى حل بها. عبرة وعظة حتى لا يرتكب الناس الفواحش والمعاصى. وفى هذا حث على التقوى.

«وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون». (٣٧ – ١٣٨ الصافات)

«ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون. (٣٥ – العنكبوت)

«إن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم. إن فى ذلك لآية للمؤمنين».

(٧٥ – ٧٧ الحجر)

ففى هذه القصة آية للمؤمنين ولكل من نظر بعين الفراسة والتوسم والفهم. وكيف كان الفساد والفاحشة سببا فى هلاك هذه القرى ودمارها بعد أن كانت آهله عامرة.

ويقال إن المنخفض الشديد الذى يقع فيه البحر الميت فى فلسطين هو مكان مدن قوم لوط وكثافة الماء بالبحر الميت أعظم من كثافة مياه البحار. وبمائه صخور معدنية مذابة توحى بأن شهبا مشتعلة قد سقطت فى هذه الناحية (أنبياء الله – الأستاذ أحمد بهجت – ص ١٠٧).

الفرية على ابنتي لوط:

«كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا». (٥ - الكهف)

جاء في التوراة، الإصحاح ١٩ تكوين:

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة، أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا دعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم.

ولا يسعنا إلا التعجب كيف استساغ كاتبو التوراة نسبة هذه الفرية إلى نبي معصوم. يحفظه الله وملائكته من الصغائر والكبائر. ويصرف عنه السوء.

ويدحض هذه الفرية ما نعلمه من طبائع البشر من أن أي امرىء ما إن يرى مظاهر الحمل على ابنته - وهي غير متزوجة - إلا وتثور الدماء في عروقه ويعمد إلى التخلص منها تخلصا من عارها. ولن يكون لوط عليه السلام أقل غيرة على عرضه ولا يتصرف مثل هذا التصرف مع ابنتيه.

ثم ما هو السبب الذي يدعو لوطا إلى هذه العزلة عن الناس؟

تقول التوراة: لأنه خاف أن يسكن في صوغر! والسؤال: خاف ممن؟ والأولى - وقد رأى الناس ما حاق بمن كذبوه - أن يعرفوا قدره ويهابوه وينزلوه بينهم منزلة كريمة. لا أن يخاف هو منهم ويأوي إلى مغارة في الجبل!

كما أن إقامته في صوغر أو وجودها على مقربة ينفي القول: ليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. فلو كانت رغبتهما عارمة إلى هذا الحد فما كانت تشبعهما هذه المرة الواحدة من الإتصال المفترى ولكانتا نزلتا إلى صوغر لتجدا بغيتهما من الرجال.

والأرجح أن إقامة لوط عليه السلام كانت في صوغر نفسها. وظل يدعو الناس إلى عبادة الله. وزوج ابنتيه ممن ارتضاهم خلقا ودينا. وكان عمره لايزيد عن خمس وأربعين أو خمسين

سنة. فلابد أن الله قد أبدله زوجة مؤمنة شابة بدلا من تلك العجوز الخائنة. فولدت له ابنه البكر مؤاب ومن بعده بن عمي.

فالمؤابيون هم ذرية مؤاب بن لوط. وسميت أرضهم باسم مؤاب. وهي تقع (شكل ٤٠) شمال وادي الحسا الذي يفصل مؤاب عن أدوم واسمه في التوراة وادي زرد. ويمر في وسطها نهر عرنون أو أرنون.. ثم استولى الأموريون على الجزء الشمالي حتى النهر. ثم جاء بنو إسرائيل فاستولوا على هذا الجزء من الأموريين. أما مؤاب جنوب النهر فكانت حصينة ولم يستطع بنو إسرائيل دخولها لما واجهوه من مقاومة ومن هنا كان حقد بني إسرائيل على مؤاب.

والعمونيون هم أبناء بني عمي – الابن الأصغر للوط. وقد ارتحل هو وأبناؤه وأحفادهم – شمالا. وسكن العمونيون المنطقة شمال البحر الميت وشرقي نهر الأردن حوالي أعالي نهر حبوق إلى الشمال الشرقي من مؤاب وكانت عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» ومكانها الآن مدينة عمان عاصمة الأردن. وكون العمونيون دولة مستقلة في وقت مبكر. وكانت أرضهم لا تدخل ضمن الأرض التي وعدها الله لبني اسرائيل. وكلم الرب موسى قائلا (تثنية ١ : ١٨) متى قربت اتجاه عمون لاتعاديهم ولاتهجموا عليهم لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثا لأني لبني لوط قد أعطيتها ميراثا. كل ناحية وادي يبوق (حبوق) ومن الجبال. وكل ما أوصى الرب إلهنا. ولكن بعد وفاة موسى عليه السلام. لم يلتزم بنو اسرائيل بالعلاقات الحسنة مع بني عمون وساءت بينهم العلاقات ودارت بينهم حروب.

من هذا ندرك مدى العداوة التي كان يكنها بنو إسرائيل للمؤابيين والعمونيين ونفّسوا عن الأحقاد التي ملأت قلوبهم. فحرّفوا التوراة عند إعادة كتابتها بعد السبي فضمنوها هذه الفرية: بأن مؤاب وبني عمون هما ابنا سفاح من ابنتي لوط!! ويظهر ذلك الحقد واضحاً في سفر نحميا (إصحاح ١٣) إذ نجد فيه قولهم: أن عمونيا ومؤابيا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد. لأنهم لم يلاقوا بني إسرائيل بالخبز والماء. بل استأجروا عليهم بلعام لكي يلعنهم وحوّل إلهنا اللعنة إلى بركة (وسيأتي تفصيل ذلك في الجزء الرابع إن شاء الله).

شكل ٤٠ – أماكن المؤابيين وبنى عمون.

عـود إلي إبراهيم عليه السلام

سبق أن قلنا إن رسل الله جاءت إلى إبراهيم حاملة له البشرى بإبنه إسحق. كما أخبروه بمهمتهم الأصلية التى هى إهلاك قوم لوط. فراح يجادل عن قوم لوط. علَّ الله يرفع عنهم العذاب أو يخففه.

«فلما ذهب عن إبراهيم الروع. وجاءته البشرى. يجادلنا فى قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك. وإنهم آتيهم عذاب غير مردود».
(٧٤ - ٧٦ هود)

وهكذا قضى الأمر. وانصرف الرسل إلى مهمتهم.

وفى صبيحة اليوم التالى خرج إبراهيم عليه السلام من خيمته. ومدَّ بصره فى اتجاه قرى السهل الخمس. فرأى عن بعد. دخاناً هائلاً يرتفع إلى السماء. فعلم أن أمر الله قد وقع بالقوم الظالمين.

يقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار: وبعد ساعات رأى لوطاً قادماً ومعه ابنتاه وقلة من المؤمنين. أقل من عشرة!

وما نرجحه هو ما سبق أن ذكرناه من أن لوطاً بعد الكارثة التى لحقت بقومه - أقام فى صوغر. لأنها أقرب إلى الأماكن التى انتشر إليها ابناه مؤاب وبنو عمون. ولابد أن إبراهيم عليه السلام قد أرسل وكيله أليعازر الدمشقى ليأتيه بخبر لوط. فراح ولس مدى الدمار الذى حاق بأربع من مدن دائرة الأردن. ولكنه وجد صوغر سالمة لم يلحقها الدمار. ووجد فيها لوطاً. فاطمأن عليه وعاد إلى حبرون ليطلع إبراهيم على أحوال لوط.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر ٩٨ عاماً وسارة بلغت ٨٨ عاماً. وتذكر يوم أن خرج من أور وعمره ٥٥ عاماً ودعا الله قائلاً.

«رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم». (١٠٠ - ١٠١ - الصافات)

وبعد واحد وثلاثين عاماً - رزق بإسماعيل من هاجر. ولكن بعد ولادته بعام أو أكثر قليلاً أمره الله بأن يأخذه وأمه إلى واد غير ذى زرع بمكة وتركه هناك. وها قد مرت اثنتا عشرة عاماً وكان يتوق إلى ولد له من زوجته سارة. ولكنه يؤمن بأن كل شيئ مرهون بإرادة الله عز وجل. كان مسلما قياده لله فى كل أموره.

«إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

وشغلته الأحداث: ذهاب لوط إلى سدوم، ثم أسره وعمل إبراهيم لإطلاق سراحه، ثم مجيء رسل الله يبشرونه بما يتوق إليه:

«إنا نبشرك بغلام عليم». (٥٣ - الحجر)

وهكذا جاءته البشرى بالغلام العليم - الذى هو إسحق- دون أن يطلبها من الله. جاءته على غير توقع منه ولا من سارة زوجته.

كذلك كانت إرادة الله أن يجعل إبراهيم إماما للناس:

وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن، قال إنى جاعلك للناس إماماً». (من ١٢٤ - البقرة)

والمراد بالإبتلاء هنا التكليف والاختبار بما كلفه الله به من الأوامر والنواهى. فأتمهن أى قام بهن كلهن كما قال الله تعالى:

«وإبراهيم الذى وفَّى». (٣٧ - النجم)

وكان هذا التكليف تربية له وترشيحاً لأمر خطير. وقد اختلف فى تعيين الكلمات - أى الأوامر والنواهى - التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام.

قال عكرمة عن ابن عباس: (تفسير الألوسى، جـ ١ ص ٣٧٤): لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم. ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام: عشر منها فى سورة «براءة» وعشر فى «الأحزاب» وعشر فى «المؤمنون». **فالذى فى براءة:** التوبة، والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والحفظ لحدود الله، والإيمان. لقوله تعالى فى الآية ١١٢:

«التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين».

وفى سورة الأحزاب: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصيام، والحفظ للفروج، والذكر لقوله تعالى فى الآية ٣٥:

إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

وفى سورة «المؤمنون»: الإيمان، والخشوع، والإعراض عن اللغو، والزكاة ، والحفظ للفروج إلاَّ على الأزواج أو الإماء، والرعاية للعهد، والأمانة، والمحافظة على الصلاة. لقوله تعالى فى الآيات ١ - ١١:

«قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون».

وقيل ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكوكب، والقمرين، والختان على كبر، والنار، وذبح الولد، والهجرة.

وروى عن الحسن هى: الأمانة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام، وقيل غير ذلك حتى بلغت الأقوال ثلاثة عشر قولاً.

وعلى كلٍّ فهى اجتهادات لا بأس بها ولا يمكن الجزم بصحة أحدها إذ لم يرد حديث شريف يؤيد أحدها. والله أعلم بمراده. وأيا كان الأمر فالمعنى أن الله كلف إبراهيم عليه السلام بأوامر ونواهى امتثل لها. وأتمهن. ووفَّى. وكان جزاؤه. قوله تعالى:

«إنى جاعلك للناس إماماً». (من الآية ١٢٤ – البقرة)

وهكذا كان إبراهيم عليه السلام نبياً ورسولاً وإماماً يقتدى به. وسأل إبراهيم ربه أن يكون ذلك أيضاً لبعض ذريته فقال **«ومن ذريتى»**. وأجابه الله إلى طلبه فجعل من ذريته أنبياء ولكن الله قال له: **«قال لا ينال عهدى الظالمين»**. أى أن الظالمين من أمته لن ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة.

ومن دلائل إجابة إبراهيم عليه السلام سؤله. قوله تعالى:

«وجعلنا فى ذريته النبوَّة والكتاب». (من الآية ٢٧ – العنكبوت)

وبالإضافة إلى النبوة أوتى بعضهم ملكاً عظيماً. إشارة إلى ما أعطى الله بعضاً من ذرية إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ملكاً. مثل داوود وسليمان عليهما السلام.

«فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً». (من الآية ٥٤ – النساء)

وفى هذا الشأن تقول التوراة (إصحاح ١٧ تكوين)

ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامى وكن كاملاً فأجعل عهدى بينى وبينك: أما أنا فهو ذا عهدى معك. وتكون أبا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً. وأجعلك أمماً وملوك منك يخرجون. ولا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم.

وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك: يختن منكم كل ذكر. فتُختتنون فى لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بينى وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم، وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك - يختن ختاناً. وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقْطع تلك النفس من شعبها، إنه قد نكث عهدى.

وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى، بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً. أباركها فتكون أمماً وملوك وشعوب منها يكونون. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة.

وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعوه إسحق. وأقيم عهدى معه أبداً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت له فيه. هأنذا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمة مع إسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية.

فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم.

فاختتن إبراهيم وكانت سنه إذ ذاك تسعاً وتسعين سنة فاختتن إبراهيم وكل من كان لإبراهيم من العبيد.

وفى حديث رواه البخارى عن أبى هريرة قال. قال النبى صلى الله عليه وسلم: اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم. وفى بعض الروايات: اختتن إبراهيم بعدما ما أنت عليه ثمانون سنة . واختتن بالقدوم (الآلة).

وفى حديث آخر رواه ابن حيان فى صحيحه مروى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة. ولا جدال فى أن أحد الرواة فى هذين الحديثين قد أخطأ فى ذكر الرقم وعلى كل فمتوسط الحديثين هو مائة سنة وهو يقارب الـ ٩٩ سنة السابق ذكرها.

وهكذا أحيا الله على يد نبيه إبراهيم سنة الختان التى كان إدريس عليه السلام قد جاء بها واتبعها المصريون القدماء.

يقول بعض أهل الكتاب أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضواً إذا تاب الله عليه. فلما قبلت توبته وأراد الوفاء احتار ماذا يصنع. فدلَّه جبريل على هذا الموضع فقطعه!

وختن إبراهيم عليه السلام الذكور من عشيرته وأتباعه وعبيده كما أمر الله.

ولادة إسحق :

وكانت قد مرت عدة شهور على زيارة الرسل وبدأت أعراض الحمل تظهر على سارة زوجته – وهى بنت تسعين سنه – ومرت الشهور واكتمل الحمل تسعة أشهر ووضعت سارة ابناً أسماه إسحق كما أمره الله.

وتقول التوراة. اصحاح ٢١: وافتقد الرب سارة كما قال. وفعل الرب لسارة كما تكلم. فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً فى شيخوخته. فى الوقت الذى تكلم الله عنه. ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود الذى ولدته له سارة إسحق. وختن إبراهيم إسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وكان إبراهيم ابن مائة حين ولد له إسحق ابنه. وقالت سارة: قد صنع الله إلىَّ ضحكاً. كل من يسمع يضحك لى. وقالت من قال لإبراهيم سارة ترضع بنين، حتى ولدت ابناً فى شيخوخته. فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحق.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٣٦) أن سارة سمعت الرسل وهم يبشرون إبراهيم عليه السلام بالولد. فضحكت.

«وامرأته قائمة فضحكت. فبشرناها بإسحق». (من الآية ٧١ – هـود)

وكأن ضحكها كان مناسبة يصاغ منها اسم المولود يقول الأستاذ رؤوف أبو سعدة. (من إعجاز. القرآن. جـ ١ ص ٢٩١) فقيل لها ضحكت؟ إذن ستلدين الذى يضحك والفعل بالعبرية يصحق. والتسمية بالفعل المضارع كثير الشيوع فى اللغة العبرية ويراد منه اسم الفاعل. مثل: يشمع إيل أى يسمع الرب أو سمع الرب وهو إسم إسماعيل (انظر ص ١١٣). ويصحق أى يضحك والمقصود به الذى يضحك. ويوجد فى اللغة العربية شىء مشابه لهذه الطريقة فى اشتقاق الأسماء. مثل اسم يزيد فهو مضارع. واسم علم فى نفس الوقت (وأشهر من تسمى به يزيد بن معاوية) كما أن السين والصاد قد تتبادلان موضعهما. كما فى الصراط والسراط فى قوله تعالى فى سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم» فقرأها بالسين ابن كثير عن يعقوب. وقرأ الجمهور بالصاد وهى لغة قريش. وكذلك تحورت يصحق إلى يسحق ومنها اسم إسحق.

قلنا إن إبراهيم عليه السلام – ختن إسحق وهو ابن ثمانية أيام كما أمر الله. وتذكَّر ابنه إسماعيل فى مكة. فأمر الختان يشمله ولذلك نوى الذهاب إلى مكة لتنفيذ هذا الواجب.

يقول بعض المفسرين إن إبراهيم عليه السلام كان كثير التردد على مكة للاطمئنان على ولده إسماعيل. وقيل إن الأرض كانت تطوى له وأنه كان يركب البراق إذا سار إليهم. ولا نوافق على ذلك لأن البراق كانت خصوصية للمصطفى صلى الله عليه وسلم للإسراء به إلى

بيت المقدس وليعود فى نفس الليلة لتتم المعجزة. وليس هناك مثل هذا الاستعجال فى زيارة إبراهيم عليه السلام لولده فى مكة. كما أن الناس لابد قد رأوا هذه الدابة وكان حَرِىٌّ أن يرد وصف لها فى مأثورات العرب إذ أنها لم تكن من الدواب التى اعتاد البشر رؤيتها. وعليه، فمما لاشك فيه أن إبراهيم عليه السلام كان يركب راحلته – سواء كانت ناقة أو أتان – ويصحبه بعض عبيده لخدمته فى الطريق، ينصبون الخيام للمبيت ويجهزون الطعام. ويفيد قوله تعالى: «ولما بلغ معه السعى» أن إبراهيم عليه السلام كان كثير التردد على مكة للاطمئنان على زوجته هاجر وولده إسماعيل لتتحقق هذه «المعية». ولتكن الزيارات – مثلا – مرة كل سنة أو سنتين. ولا ضير فى تغيبه عن حبرون شهرين فى كل مرة هى مدة ذهابه إلى مكة والعودة منها.

إسماعيل فى شبابه:

القاعدة فى البادية أن من حفر بئرا أصبح مالكا لها. وإذ تفجّر ماء زمزم ببركة إسماعيل. فقد أصبحت البئر ملكا لهاجر. وسبق أن ذكرنا أنها سمحت لقبيلتى جرهم والعماليق بالسكنى بجوار البئر والانتفاع بمائها. وتعبيراً عن امتنانهم لهذا الصنيع فإنهم جعلوا من أنفسهم حماة لها ولابنها. ولاشك أنهم تكفلوا أيضا بمعيشتهما. فما كانت هاجر لتستطيع الزراعة أو رعى الغنم. وكانوا يسارعون فى خدمتها هى وابنها وخاصة بعد أن علموا أن إبراهيم عليه السلام – زوجها ووالد الصبى – نبى.

وشب إسماعيل وأصبح شابا يافعا جلدا ويقال إن إسماعيل تعلم العربية القديمة من جرهم والعماليق ولكنه طورها نحو الأسهل بما تعلَّمه عن والدته من لغة إبراهيم – وبما تعلمه هى من قواعد اللغة المصرية القديمة. كانت الكلمات فى اللغة العربية القديمة متصلة بعضها ببعض. ويقال إن إسماعيل فرَّق بين الألفاظ. وفى حديث عن محمد بن على بن الحسين عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة.

كذلك يقال إنه أول من ركب الخيل. وكانت قبل ذلك وحشية فعمل على ترويضها وركبها.

وتقول التوراة (اصحاح ١٦ تكوين): وتدعين اسمه إسماعيل. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن. والوصف «إنساناً وحشياً» قد تعنى أنه سيولد فى بيئة موحشة – وقد تعنى أيضاً أنه سيعمل على ترويض الخيول الوحشية ويركبها.

قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازية: حدثنا شيخ من قريش حدثنا عن عبدالله بن عمر

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اتخذوا الخيل واعتقبوها. فإنها ميراث أبيكم إسماعيل.

كذلك يقال إن إسماعيل كان بارعاً في رمى السهام.

ويذكر الرواة أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بفريقين يتباريان فسره منظرهم. وكانوا يرمون بالسهام. فقال: ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بنى الأدرع. فأمسك القوم وقالوا: من كنت معه فأنى يُغلب؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم. فرموا عامة يومهم فلم يسبق أحدهم الآخر. أى كما نقول الآن: انتهت المباراة بالتعادل.

وصل إبراهيم عليه السلام إلى مكة. واستدل على بيت هاجر وإسماعيل ولنا أن نتصور فرحة هاجر وإسماعيل بلقاء إبراهيم عليه السلام. وكان سرور إبراهيم مضاعفاً إذ رأى إسماعيل وقد أصبح غلاماً يافعاً. شاباً قوياً يمتطى الخيل ويرمى بالقوس. ولكن أكثر ما سره هو أنه وجد هاجر قد أنشأته على دين الحنيفية – مُوحِّداً بالله. بل وجده يحفظ كثيرا من كلام الله. من الصحف التى كانت تنزل عليه وكانت هاجر تحفظها. كان يخشى أن بعده عن هاجر طوال هذه السنين قد أضعف إيمانها بالله أو أنها عادت تتذكر عبادات مصر القديمة – أو أن أيا من عبادات الأقوام التى سكنت حول مكة أو كانت تمر بها قد أثرت عليها. وحمد الله أن إيمانها كان من القوة بحيث ظل كما هو. بل ونقلت هذا الإيمان القوى إلى إسماعيل فور أن بدأ يعقل فشب على دين إبراهيم. شكراً لله. أكانت هاجر تعنى بعضاً من هذا المعنى حينما قالت: إذا لا يضيعنا!! فالضياع يشمل أيضاً ضياع العقيدة. وحمد الله كثيراً إذ حفظ الله حياة ابنه. وحفظ له دينه.

وقام إبراهيم عليه السلام بختان إسماعيل وكان ابن ثلاث عشرة سنة وانتظر أياماً فى مكة يلتمس أمر السماء، أيعود إلى حبرون؟ أم تكلفه السماء بأمر آخر وهل كان ختان إسماعيل طهوراً ومقدمة لأمر قادم؟

وفعلاً جاءه الأمر ببناء بيت الله الحرام بمكة يساعده فيه إسماعيل.

بنـــاء الكعبـــة:

جاء ذكر بناء الكعبة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة. مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم. ومن دخله كان آمناً». (٩٦ – ٩٧ آل عمران)

«وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود». (٢٦ – الحج)

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود.». (١٢٥ – البقرة)

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل. ربنا تقبل منا. إنك أنت السميع العليم». (١٢٧ – البقرة)

وبوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت أى دله عليه. وأذن فى بنائه. ولا ريب فى أن الكعبة إنما قام ببنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل. إلاَّ أن بعض المفسرين يذكرون روايات ترجع ببناء الكعبة إلى ما قبل عهد إبراهيم بآلاف السنين بل إن بعضها ترجع ببنائها إلى آدم أو حتى إلى ما قبل آدم!

هناك من يقول (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله والذين معه. جزء ٢ ص ٢٦٠) بأن الصابئين يعتقدون أن إدريس عليه السلام هو أول من بنى الكعبة. وكان المصريون القدماء يطلقون اسم «الأرض المقدسة» على الشرق الذى يظهر منه الإله رع كل يوم وهذا يشمل صحراء مصر الشرقية وسيناء والجزء الشمالى والأوسط من غرب الجزيرة العربية. وهناك من يرى أنه فى هذا المكان كان يوجد معبد قديم للعماليق اندثر واختفى قبل قدوم إبراهيم إلى الحجاز.

أما من يرجعون ببنائها إلى عهد آدم عليه السلام أو ما قبله فيروون فى ذلك حكايات لا بأس من ذكرها لطرافتها:

قال عبد الرزاق (تفسير ابن كثير. جـ ١ ص ١٧٩)، أخبرنا هشام بن حسان عن عطاء بن أبى رباح قال: لما هبط آدم من الجنة كانت رجلاه فى الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم. يأنس إليهم. فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله فى دعائها وصلاتها فخفضه الله تعالى إلى الأرض. فلما فقد ما كان يسمع استوحش حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وصلاته. فوُجِّه إلى مكة. فكان موضع قدمه قرية. وخطوه مفازة (أرض قفراء) حتى انتهى إلى مكة. وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة فكانت موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوته حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه.

قال عبد الرازق، أخبرنا ابن جريج عن عطاء: قال آدم، أنى لا أسمع أصوات الملائكة. قيل بخطيئتك. ولكن اهبط إلى الأرض فابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة جبال: حراء وقبيس وطور زينا وطور سيناء والجودى. فكان هذا بناء آدم. حتى بناه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك.

وفى حديث – سنده ضعيف – عن ابن عباس. قال اليمانى (عرائس المجالس – التعلبى ص

١٠٢): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة. والبيت المعمور الذى فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة – حذاء الكعبة البيت الحرام. وإن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة. وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء. فأخذه آدم فضمه إليه استئناسا به. وإذ أخذ الله تعالى من بنى آدم ميثاقهم فجعله فى الحجر. ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا. ثم قال له يا آدم تخط. فتخطى. فإذا هو بأرض الهند. فمكث هناك ما شاء الله أن يمكث. ثم استوحش إلى البيت. فقيل له حج يا آدم. فأقبل يتخطى. فصار موضع كل قدم قرية وما بين ذلك مفاوز. حتى قدم مكة. فلقيته الملائكة فقالت: بَرَّحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. ثم قال. فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. فكان آدم إذا طاف بالبيت قال هذه الكلمات. وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع. خمسة أسابيع بالليل وأسبوعين بالنهار. فقال آدم: يارب اجعل لهذا البيت عمارا يعمرونه من ذريتى. فأوحى الله تعالى إليه: إنى معمره بنبى من ذريتك اسمه إبراهيم. أتخذه خليلا. أقضى على يديه عمارته وأنيط به سقايته، أورثه حله وحرمه، ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه. فلما فرغ من بنائه نادى: يا أيها الناس إن الله تعالى بنى بيتا فحجوه فأسمع ما بين الخافقين. فأقبل من يحج هذا البيت من الناس يقولون لبيك لبيك. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن آدم عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال يارب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا أن تلحقه بى فى الجنة. فقال الله تعالى: يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته آمنا يوم القيامة.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: قال: أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: إن لى حرمًا بحيال عرشى فانطلق فابن لى بيتا ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى. فقال آدم: رب كيف لى بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدى إليه. فقيض الله له ملكا فانطلق حتى قدم مكة وأراه المكان فبناه.

وقال وهب بن منبه: إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها، ولم ير فيها أحدا غيره، قال: يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى؟ قيل له: إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى. وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى. وأوثره باسمى.. وأسميه بيتى. أنطقه بعظمتى. وعليه وضعت جلالى. ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا. يحرم بحرمته من حوله. فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى. ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى. أجعله أول بيت وضع للناس. يأتونه شعثا غبرا يضجون بالتلبية. ويعجون بالتكبير عجيجا. فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى. وحق على الكريم أن

يكرم وفده وأضيافه. وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلاً بحاجته. تعمره يا آدم ما كنت حيا ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة. وقرنا بعد قرن - فكذا كان بدء أمر الكعبة. حرسها الله تعالى ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان. فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى. إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام فخبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق. فكان موضع البيت خاليا إلى زمان إبراهيم عليه السلام.

ويرى الإمام ابن كثير (البداية والنهاية. الجزء ص ١٦٣) وغيره من العلماء أنه لم يرد فى خبر صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام. أما قولهم إن كلمة «مكان البيت» تعنى أنه مكان كان فيه بيت من قبل، فليس ضرورة، لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله.

أما فى كيفية استدلال إبراهيم عليه السلام على مكان البيت حينما أمر ببنائه، فقد جاء فى ذلك عدة أقوال أيضا:

قال ابن جرير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض. فلم يعرف المكان وضاق إبراهيم بذلك ذرعا. فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة، فتطوت على موضع البيت كطى الجحفة. وأُمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة.

وقال سعيد عن على بن أبى طالب أيضا أن السكينة دلت على مكان البيت فكشفت عن أحجار، لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً. وهو أساس البيت الأول. وبدأ إبراهيم وإسماعيل بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك قوله تعالى: وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. وقوله وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت.

وقال آخرون (عرائس المجالس الثعلبى ص ١٠٥) أرسل الله تعالى إليه سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير معه ثم وقفت فى موضع البيت، ونودى: يا إبراهيم ابن على ظلها، لا تزد ولا تنقص.

ولعل هذا الرأى الأخير هو الأقرب للصواب. فالغمام يتشكل بأى شكل وتسوقه الريح بأمر الله حيث يشاء. وقد رأينا فى سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كيف ظلله الغمام فى يوم قائظ. كذلك بأمر الله ظلل الغمام بنى إسرائيل:

«وظللنا عليهم الغمام». (من الآية ١٦٠ - الأعراف)

أما الريح الخجوج - وخجَّ تعنى التوى (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢١٨). والريح الخجوج هى الريح الشديدة والملتوية فى هبوبها. وبلغة عصرنا هى الريح التى تعمل دوامات هوائية ولو

تطوت على موضع البيت كما قيل لكان البيت مستديراً. ولو كان دور الريح هو كشف الرمال عن أساس قديم مطمور تعلوه عدة أقدام من الرمال لكان معنى ذلك أن تستمر هذه الريح عدة ساعات أو عدة أيام. وذلك لا يتأتى إلا لريح من الشدة بحيث تطيح بالبيوت والخيام التى أقيمت فى الوادى. ونحن نرى مثل هذه الريح تقتلع الأشجار أحياناً. وبدلاً من هذه الريح المدمرة كان يكفى أن يوحى إلى إبراهيم عليه السلام وحياً - أو رؤيا - أن أحفر فى مكان كذا ليجد الأساس. كما كان الإيحاء بالرؤيا لأبى طالب ليحفر بئر زمزم بعد أن طمرت. وعليه يمكننا أن نقول إن إبراهيم عليه السلام لما أُمر ببناء البيت وتساءل عن مكانه. دلته غمامة فبنى على ظلها.

وقيل فى قوله تعالى:

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا..». إسماعيل معطوف على إبراهيم وفيها تأخير - لأن الدور الأكبر فى البناء كان لإبراهيم إذ كان إسماعيل صغيراً وكان دوره هو مناولة الحجارة لإبراهيم - إذ لوقيل: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت لكان فيه تساوٍ فى الفعل. وهو ما لم يحدث. كذلك قرئت:

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت

وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»

قيل: إسماعيل مبتدأ والخبر محذوف أى وإسماعيل يقول ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم أى أن إبراهيم كان يبنى وإسماعيل يدعو بذلك الدعاء.

وجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ويدعو. وارتفع البناء فبلغا مكان الركن فقال إبراهيم لإسماعيل: (تفسير ابن كثير. جـ ١ ص ١٧٨) يا بنى، اطلب لى حجراً حسناً أضعه ههنا، فلما أبطأ عليه جاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند - وكان أبيض. ياقوتة بيضاء - كان آدم قد هبط به من الجنة فاسودَّ من خطايا الناس - فجاءه إسماعيل بحجر. فوجد عنده الحجر الأسود. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك.

وقد ذكر أهل الأخبار أشياء لم يتضمنها القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح. ومن مشهور ذلك أن الكعبة أنزلت من السماء فى زمان آدم ولها بابان، إلى المشروق والمغرب. فحج آدم من أرض الهند واستقبلته الملائكة فطاف بالبيت ودخله. ثم رفعت فى زمن الطوفان إلى السماء. ثم أنزلت مرة أخرى فى زمن إبراهيم فزادها ورفع قواعدها وجعل بابيها بابا واحداً ثم تمخض أبو قبيس فانشق عن الحجر الأسورد فوضعه إبراهيم مكانه.

ولهذا الكلام عند الصوفية إشارات ورموز (تفسير الألوسى. جـ ١ ص ٣٨٤):

فنزول الكعبة فى زمن آدم عليه السلام، إشارة إلى ظهور عالم المبدأ والمعاد ومعرفة عالم النور وعالم الظلمة فى زمانه. وقصده زيارتها فى أرض الهند، إشارة إلى توجهه بالتكوين والاعتدال من عالم الطبيعة الجسمانية المظلمة إلى مقام القلب. واستقبال الملائكة له إشارة تلقى القوى النفسية والبدنية إياه بقبول الآداب والأخلاق الجميلة، والملكات الفاضلة، والتمرن والتنقل فى المقامات قبل وصوله إلى مقام القلب. ودخوله، إشارة إلى تمكينه واستقامته فيه. ورفعه فى زمن الطوفان إلى السماء. إشارة إلى احتجاب الناس بغلبة الهوى وطوفان الجهل على مقام القلب. وبقاؤه فى السماء إشارة إلى البيت المعمور الذى هو قلب العالم. ونزوله مرة أخرى فى زمان إبراهيم إشارة إلى إهتداء الناس فى زمانه إلى مقام القلب بهدايته. ورفع إبراهيم قواعده وجعله ذا باب واحد، إشارة إلى ترقى القلب إلى مقام التوحيد. والحجر الأسود، إشارة إلى الروح التى هى أمر الله عز شأنه. وتمخض أبى قبيس وانشقاقه عنه، إشارة إلى تكدره بغلبه القوى النفسانية على القلب واستيلائها عليه وتسويدها الوجه النورانى الذى يلى الروح منه.

مقام إبراهيم :

ولما ارتفع الجدار كان إبراهيم عليه السلام يقف على حجر يقوم عليه لبناء الكعبة. وكلما كملت ناحية انتقل إلى الناحية التى تليها، وهكذا أتمَّ جدران الكعبة الأربعة. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه. وهذا مقام إبراهيم. والذى قال فيه أبو طالب فى قصيدته:

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة ∴ على قدميه حافياً غير ناعل

وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً. وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من البناء تركه إلى جدار الكعبة، وإنما أخره عن جدار الكعبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة.

وقال عبدالرزاق عن ابن جريج حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول من نقله عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد عن كثيرين عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر رضى الله عنه متلصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب (تفسير ابن كثير. جـ ١ ص ١٧١).

وفى حديث عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه وقال: يا عمر هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أفلا نتخذه مصلًى؟ فقال: لم أومر بذلك. فلم تغب

الشمس حتى نزلت الآية: **«واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»** والأمر فيها للاستحباب. وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن، والمراد ركعتى الطواف. لما أخرجه مسلم عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ الآية فالأمر للوجوب على بعض الأقوال. ولا يخفى ضعفه لأن فيه التقيد بصلاة مخصوصة من غير دليل. (تفسير الألوسى. جـ ١ ص ٣٨٠). ومن الأقوال الضعيفة أيضاً ما ذهب إليه النخعى ومجاهد إلى أن المراد من مقام إبراهيم الحرم كله. وما قاله ابن عباس وعطاء من أنه مواقف الحج كلها وما قاله الشعبى من أنه عرفة ومزدلفة والجمار. ومعنى اتخاذها مصلى - أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى عندها.

والذى عليه الجمهور - وهو الموافق لظاهر اللفظ ولعرف الناس اليوم أن مقام إبراهيم هو ذلك الحجر الذى كان يقف عليه وهو يبنى الكعبة وأثر قدميه ظاهر فيه. وبعد الطواف تُصلى عنده ركعتان.

ولما اكتمل بناء الكعبة - أدرك إبراهيم عليه السلام لماذا كانت مشيئة الله فى تأخير بناء البيت. ليكون إسماعيل قد كبر بحيث يكون له شرف المساعدة فى بناء بيت الله الحرام.

وكان بناء البيت هو الحلم الذى طالما راود إبراهيم عليه السلام كلما شاهد معابد مردوخ وسين وبعل ومعابد قدماء المصريين. لقد تحقق الحلم أخيراً. وها قد بُنى لله بيت له من الجلال ما يحض النفس على الخشوع. وله من البساطة مالا يشغل النفس بالزخارف عن ذكر الله.

يتجاهل كاتبو التوراة رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وينكرونها كلية، وسبق أن ذكرنا أنهم يقولون بأن برية فاران ليست فى الحجاز بل شرقى خليج العقبة (شكل ٣٦). بل يذهبون أكثر من ذلك فيقولون إن إبراهيم عليه السلام لم يأخذ هاجر واسماعيل إليها. بل وضع الماء والولد على كتفها وصرفها. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع!! كل هذا لينفوا عن إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة! ولينفوا عن العرب انتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام. وتابعهم فى ذلك كثير من المستشرقين.

والسؤال الذى يطرح نفسه: **فمن بنى الكعبة؟ إذا لم يكن إبراهيم هو الذى بناها؟** ولم يظهر أحد آخر يدعى أنه هو الذى بنى الكعبة.

وأما عن انتساب العرب إلى إبراهيم السلام. فما كان الكفار من أهل مكة ليسكتوا عند نزول الآية:

«وما جعل عليكم فى الدين من حرج. ملة أبيكم إبراهيم». (من الاية ٧٨ - الحج)

فالعرب هم أحرص الشعوب على حفظ سلسلة نسبهم. وسكوتهم عندما نزلت هذه الآية دليل على أن العرب فعلاً من نسل إسماعيل وهو ابن إبراهيم عليهما السلام.

وأثر عن زيد بن عمرو بن نفيل قوله: يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى (تفسير ابن كثير. جـ ٢ ص ٢٣٧). وزيد هذا من الحنفاء الذين كانوا على ملة إبراهيم. ومنهم ورقة بن نوفل الذى ذهبت السيدة خديجة تستشيره عند أول نزول الوحى على المصطفى صلى الله عليه وسلم.

كذلك يؤثر عن عبد المطلب قول بيت من الشعر فى عام الفيل:

نحن أهل الله فى بلدته ∴ لم يزل ذاك عهد إبراهيم

فمن أين يتأتى لعرب مكة أن يكونوا على ملة أبيهم إبراهيم دون أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى أرض الحجاز؟

كذلك وجدت صورة إبراهيم الخليل منقوشة على جدران الكعبة - حيث صوَّره القوم فى يده الأزلام. ويقابلها صورة إسماعيل على فرس. وكذلك صور لبعض الأنبياء. ويوم فتح مكة - وبعد أن كسر الأصنام - أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يَقدما إلى البيت ليمحوا كل صورة فيه. ومحيت الصور وبقيت صورة إبراهيم. فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: ألم آمرك أن لا تترك فيها صورة؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم الأزلام.

«ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين».

(٦٧ - آل عمران)

وها هو أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم يقول في خطبة له يوم زواج المصطفى صلى الله عليه وسلم من خديجة: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلداً حراماً وبنياناً محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس.

كما أن عبد المطلب يقول لرسول أبرهة حين جاء يعلمه أن القائد الحبشى لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم البيت. يقول له: هذا بيت الله الحرام. وبيت إبراهيم خليله (تفسير الطبرى ص ١٨٨ - تاريخ الطبرى جزء ٢ ص ١٣٣).

كما أن المسعودى (التنبه والإشراف. ص ١٧٢) أشار إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة، منها التأريخ بوفاة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فرحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز حقيقة لا مراء فيها، تؤيدها كل الشواهد. وبناءه للكعبة أمر لا جدال فيه.

من المرجَّح أن إبراهيم عليه السلام قد ظن أن مهمته فى مكة قد انتهت ببناء بيت الله الحرام. وظل ينتظر الإذن بالرحيل.وهذا هو حال الأنبياء. يلتمسون مشيئة الله فى كل ما يفعلون.

مثالنا فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان يحث أصحابه على الهجرة إلى يثرب. وظل هو ينتظر الإذن من الله. حتى إذا ائتمر به المشركون وأجمعوا أمرهم أن يقتلوه. أمر عليا أن يبيت فى فراشة وخرج وهو يحثو التراب على رؤوس من التفوا حول داره. ولما وصل إلى دار أبى بكر قال له: أذن لى فى الهجرة. وكان رد أبى بكر المشهور: الصحبة يا رسول الله.

بالمثل. ظل إبراهيم عليه السلام فى مكة. يطوف بالبيت. ويتعبد عنده. منتظراً الإذن بالرحيل. وإذا بالمهمة الثانية تأتيه وحياً من الله سبحانه وتعالى. رؤيا فى المنام. ورؤى الأنبياء حق وأمر واجب التنفيذ.

الأمر بالذبح ومن الذبيح ؟

«وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين. رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى، قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين». (٩٩ - ١١٣ - الصافات)

سياق الآيات السابقة. وإن لم يرد فيها اسم الذبيح إلاّ أنها تدل على أن الذبيح هو إسماعيل. فإن إبراهيم عليه السلام بعد أن خرج مهاجراً إلى الله طلب الولد من الله. فبشره الله بغلام وصف بأنه حليم. وقد كان إسماعيل هو ولده البكر. من هاجر. وتمضى الآيات فى وصف الذبح والفداء. وكيف أن هذا كان بلاء عظيماً لإبراهيم. وأن إبراهيم عليه السلام قد اجتاز هذا البلاء وكان من المحسنين. ومن عباد الله المؤمنين هنا انتهت قصة الذبح ثم جاء قوله تعالى: وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين. فالأمر بالذبح يَنصَبُّ على البشارة الأولى، وهى بإسماعيل. ولا يعقل أن يكون الأمر بالذبح ثم يأتى التبشير بالولد الثانى ويكون الذبح مقصوداً به هذا الولد الثانى. ذلك هو المنطق السليم.

يتبنى أهل الكتاب الرأى بأن الذبيح هو إسحق. معتمدين على ما جاء فى التوراة فى الإصحاح ٢٢ تكوين.

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له يا إبراهيم. فقال هأنذا. فقال خذ ابنك **وحيدك** الذى تحبه إسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك، فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء. وقال: إبراهيم. إبراهيم، فقال هأنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنى علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى. فرفع إبراهيم عينيه ونظرا وإذا كبش وراءه ممسكاً فى الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء. وقال بذاتى أقسمت يقول الرب: إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك **وحيدك** أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر.

ووصف الذبيح بأنه الإبن الوحيد لإبراهيم لا ينطبق على إسحق لأن إسماعيل وُلد أولاً. ووُلد إسحق بعده بأربعة عشر عاماً. وعاش إسماعيل حتى وفاة أبيه إبراهيم. فلم تأت لحظة كان إسحق فيها وحيداً. ولكن إسماعيل بقى أربعة عشر عاما وهو وحيد إبراهيم إلى أن رزق إبراهيم بإسحق. والقارىء للفقرة التى جاءت فى التوراة: خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق، يشعر أن كلمة إسحق قد أقحمت فى سياق الكلام. ولعل كاتبى التوراة تحرجوا من أن يقحموا الإسم مرة أخرى فجاءت الفقرة الثانية هكذا: ولم تمسك ابنك وحيدك.

كذلك جاء فى إنجيل برنابا (د. بيومى مهران. دراسات تاريخية فى القرآن الكريم جـ ١ ص ١٧٣) على لسان المسيح عليه السلام: الحق أقول لكم. أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا، لأن الملاك قال يا إبراهيم: سيعلم العالم كيف يحبك الله. ولكن يعلم العالم محبتك لله؟ حقاً يجب عليك أن تفعل كل ما يريد الله. فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك **بكرك** واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة.

فوصف الذبيح بأنه البكر يؤكد أنه إسماعيل لأن إسماعيل هو البكر ولما ولد إسحق كان إسماعيل قد بلغ ثلاثة عشر عاماً.

وكانت التقاليد تقضى بتقديم الابن البكر قرباناً لله. وجاء فى سفر الخروج إصحاح ٢٢ : وأبكار بنيك تعطينى. ثم حرّم ذلك فيما بعد. والابن البكر هو إسماعيل وليس إسحق.

نقطة أخرى. وهى أن البشارة التى أتت إبراهيم بالولد من سارة – فى القرآن الكريم فى قوله:

«فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ». (٧١ – هود)

وفى التوراة اصحاح ٢١ تكوين فقرة ١٢ - لأنه بإسحق يدعى لك نسل - أى أن الله قد أخبر إبراهيم بأن إسحق سيكون له نسل أى أبناء.

هنا تثور المشكلة التى أرقت اليهود وهى: كيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحق وهو ابنه الموعود الذى سيكون له نسل؟ أم أن إبراهيم كان متأكداً أن الله لابد سيفتديه فى آخر لحظة؟ وإذا كان الأمر كذلك فهو ليس ابتلاء حقيقيا وليس فيه أى تضحية لأنه متأكد أن الله سيفتديه لينجو من الذبح ويكون له ذرية.

وجاء الحل فيما بعد على يد فقهاء المسيحية فقالوا: إن الفكر الوحيد الذى ملأ قلب إبراهيم هو: أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً. أى أن إبراهيم كان ينوى فعلاً ذبح ابنه. ولكن حتى إذا تم ذلك فإن الله سيقيمه من الأموات ليكون له ذرية! وحتى هذا الحل يذهب بقيمة التضحية تماماً أو على الأقل يقلل من قيمتها مادام أنه كان على يقين من أن الله سوف يعيد الحياة إلى ولده بعد أن يقوم هو بذبحه. فى حين أن الأمر بذبح ابن لم يوعد بنسل - تكون تضحية حقيقية، ودليل فعلى على حب شديد لله إذ هو يذبح ابنه أو يهم بذبحه ولا يرجو فداءه أو إعادة الحياة له بعد ذبحه، وذلك هو الحال مع الأمر بذبح إسماعيل.

كذلك - إذا كان الذبيح هو إسحق. فأين احتفال أهل الكتاب بنجاته من الذبح وافتدائه بالأضحية؟ أما كان حدثاً مثل هذا يستدعى الاحتفال به؟ قال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عوف عن آخرين عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين. إنكم تقرأون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأى آية؟ قال، قوله: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً. فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التى نزلت فيها والمكان الذى أنزلت فيه. نزلت فى يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد. فإذا كان هذا شعورهم نحو آية من كتاب الله. فلماذا لم يتخذوا من آيته بإنقاذ إسحق - كما يدّعون - من الذبح عيداً؟ والجواب هو لأن الذبيح لم يكن إسحق. بل كان إسماعيل. واتخذ المسلمون من فدائه عيداً - هو عيد الأضحى. بل إن رمى الجمار - وهو من مناسك الحج - يحكى وسوسة إبليس لإبراهيم عليه السلام ليثنيه عن تنفيذ أمر ربه بذبح ابنه - ورجم إبراهيم له بسبع حصيات فى ثلاثة أماكن سيجىء فيما بعد.

ولما نزلت التوراة وشرع الله فيها لبنى إسرائيل أعيادهم في سفر الخروج اصحاح ٢٣:

ثلاث مرات تعيد لى فى السنة. تحفظ عيد الفطير. تأكل فطيراً سبعة أيام كما أمرتك فى وقت شهر أبيب لأنه فيه خرجت من مصر. وعيد الحصاد أبقار غلاتك التى تزرع فى الحقل

وعيد الجمع – فى نهاية السنة – ولم يكن من بينها عيد أضحى احتفالاً بفداء إسحق من الذبح، لأنه لم يكن هو الذبيح.

وللأسف فإن بعض المسلمين جاروا أهل الكتاب فى مزاعمهم وقالوا بأن الذبيح هو إسحق، واختلقوا أقوالاً تؤيد زعمهم (عرائس المجالس، الثعلبى، ص ١٠٩).

روى سفيان عن زيد بن أسلم عبيد الله بن عمير عن أبيه عن جده قال: قال موسى عليه السلام: يارب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، فلم قالوا ذلك؟ فقال: إن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلاَّ اختارنى عليه – وإن إسحق جاد لى بالذبح فهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن.

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال: قال يوسف عليه السلام لملك مصر: أترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، وبعضهم ادعى بأن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما يقولان بأن الذبيح إسحق!

وتمادى البعض فوضعوا أحاديث تفيد مثل هذا القول:

قالوا إن عبدالله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذى أراد إبراهيم أن يذبح إسحق وحديثاً آخر يقول: الذى فداه الله بذبح عظيم إسحق، وأحاديث أخرى وصفها العلماء بأنها ضعيفة ولا يصح الاحتجاج بها. فمن الرواة من وصف بأنه متروك، فمثلاً أخرج الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن داوود سأل ربه مسألة فقال اجعلنى مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب، فأوحى الله إليه: إنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحق بالذبح فصبر، وابتليت يعقوب فصبر، وقالوا إن أحاديث الديملى فيها الكثير الموضوع، وغير ذلك من الأحاديث التى وصفوا رواتها بأنهم يروون المنكرات والغرائب ولا يحتج بمروياتهم.

من هنا نرى أن وصف الإبن الوحيد لإبراهيم عليه السلام ينطبق على إسماعيل وليس على إسحق، وكذلك وصف الإبن البكر، والإبن البكر الوحيد له معزة خاصة، وخاصة إذا كان قد رزق على الكبر فالابتلاء بذبح هذا الإبن الوحيد هو ابتلاء حقيقى والتسليم لأمر الله فى ذلك أبلغ دليل على حب الله وامتثال كامل لمشيئته. أما الإبتلاء بذبح الإبن الثانى – فهو ابتلاء ولكن أقل درجة من الآبتلاء بذبح الابن البكر، ويزول معنى الابتلاء كلية إذا كان هناك وعد بأن هذا الذبيح سيكون له نسل إذ معناه التأكد أن الله سيفتديه فى آخر لحظة قبل ذبحه.

ولو عدنا إلى سورة الصافات نجد أنه ورد فيها قصص عدد من الأنبياء تختتم كلها بخاتمة متشابهة، ففى ختام قصة نوح جاء:

«وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على نوح فى العالمين، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين.». (٧٨ - ٨١ الصافات)

وفى ختام قصة موسى وهارون:

«وتركنا عليهما فى الآخرين، سلام على موسى وهارون، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين». (١١٩ - ١٢٢ الصافات)

وفى ختام قصة إلياس:

«وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على إل ياسين، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين». (١٢٩ - ١٣٢ الصافات)

وفى ختام قصة إبراهيم:

«وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين». (١٠٧ - ١١ الصافات)

إلى هنا ينتهى الحديث عن إسماعيل ثم يبدأ الحديث عن إسحق:

«وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين». (١١٢ - ١١٣ الصافات)

قال محمد بن كعب القرطى: إن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال له: أى ابنى إبراهيم الذى أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل، ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به. فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم.

كما روى عمر بن عبد الرحمن الخطابى بإسناده عن الصباحى، قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا أن الذبيح إسماعيل أو إسحق، فقال، على الخبير سقطتم، كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله أعد علىَّ ما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقيل يا أمير المؤمنين ومن الذبيحان؟ فقال إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهَّل الله عليه أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبدالله فمنعه أخواله ففداه بمائة من الإبل، والثانى إسماعيل.

ومما يؤيد أن الذبيح هو إسماعيل وأن الذبح إنما كان فى مكة أن الشعبى يقول: رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة، وكذلك يروى عثمان بن طلحة أنه رأى قرنى الكبش، وأنهما بقيا

حتى احتراق البيت أثناء حصار الحجاج لابن الزبير. وابن عباس يروى أنه رأى رأس الكبش ما يزال معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس. ويبدو أن قريش قد توارثت قرنى الكبش خلفاً عن سلف وأن ذلك إنما كان من دواعى الفخر عندهم. وبدهى أنهم لا يتفاخرون بهما إلاَّ إذا كان الذبيح هو إسماعيل. كما أن ذلك يدل على أن الذبح والفداء كان بمكة وليس بأرض فلسطين. ولم يؤثر أن إسحق قد جاء إلى مكة.

قصة الذبح :

«فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك. فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر. ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم». (١٠٢ - ١٠٧ - الصافات)

قيل إنه رأى فى المنام أنه يعالج ذبح ابنه.

وقال بعضهم أنه - عليه السلام - أُتى فى المنام فقيل له: اذبح ابنك. ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة.

وفى رواية أخرى أنه رأى كأن قائلاً يقول له: إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك.

فلما أصبح تروَّى فى ذلك وفكر من الصباح إلى الرواح، أَمِنَ الله تعالى هذا الحلم أم من الشيطان. ومن ثم سُمى ذلك يوم التروية. فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى. ومن ثم سُمى يوم عرفة. ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره. فسمُى يوم النحر.

قيل إنه فى صبيحة ذلك اليوم قال لابنه: يابنى خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب. وروى أبو هريرة عن كعب الأخبار وابن اسحق عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم فى المنام أنه يذبح ابنه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم وإلا لن أفتن أحداً منهم أبداً. فتمثل الشيطان رجلاً. فأتى أم الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشِعب. فقال لا والله ما ذهب به إلاَّ ليذبحه. قالت كلا. هو أرحم به منى وأشد حباً له من ذلك. فقال لها: إنه يزعم أن الله أمره بذلك. فقالت له. إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه وفى استسلامه لأمر الله تعالى. فخرج الشيطان من عندها هارباً حتى أدرك الإبن وهو يمشى على أثر أبيه. فقال له: يا غلام، هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ فقال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب. قال لا، والله ما يريد إلا ذبحك. قال ولم؟ قال يزعم أن الله أمره بذلك. قال فليفعل ما أمره الله به، فسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى. فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال أريد

هذا الشعب لحاجة لى. فقال والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا. فعرفه إبراهيم فقال له: إليك عنى يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربى. فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئاً مما أراد، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنه أن إبليس عرض لإبراهيم عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان. فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم أدركه عند الجمرة الصغرى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى.

ولكن إبراهيم عليه السلام قبل أن ينفذ ما أمره الله به، رأى أن يخبر ابنه بحقيقة ما ينوى فعله، وأن هذا من أمر الله ليثبِّت قدمه إن جزع وليكتسب المثوبة بالإنقياد لأمر الله تعالى. وقُرئت «فانظر ماذا تُرِى» أى ما الذى تريني إياه من الصبر. وقرئت أيضاً «ماذا تُرَى» أى ماذا تريك نفسك من الرأى.

أدرك إسماعيل أن رؤيا الأنبياء حق. وأمر من الله تعالى. فقال يا أبت افعل ما تؤمر.

ولنتأمل فى جمال اللفظ القرآنى. إبراهيم يقول: يا بُنَىّ. على سبيل الترحم. وإسماعيل يرد بقوله: يا أبت على سبيل التوقير والتعظيم. ثم كأنه يقول له: ليس هناك مجال للاستشارة فى أمرٍ أمر به الله تعالى. وإنما الواجب إمضاء الأمر. فقال:

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين». (من الآية ١٠٢ – الصافات)

ووصفه القرآن الكريم فى آية أخرى

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل من الصابرين». (٨٥ – الأنبياء)

ولنقارن دقة التعبير القرآنى فى القول على لسان إسماعيل.

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين».

وفى القول على لسان موسى للخضر.

«ستجدنى إن شاء الله صابراً».

والفرق بينهما أن الصبر فى الحالة الثانية كان من جانب موسى فقط. أما فى حالة الذبح. فإن الصبر يشمل الطرفين فلم يقل اسماعيل ستجدنى إن شاء الله صابراً. بل قال ستجدنى إن شاء الله من الصابرين وهذا يحمل حثاً غير ظاهر لأبيه على الصبر لما يعلم من عظم البلاء عليه. ولذلك جاء اللفظ بعد ذلك فى صيغة المثنى: «فلما أسلما» أى انقادا لأمر الله تعالى. وقرأها على كرم الله وجهه وابن عباس ومجاهد وغيرهم (تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ١٣٠):

«فلما سلَّما». أى سلما أمرهما إلى الله. وقرئت أيضاً «فلما استسلما». وكلها تعنى القبول لأمر الله تعالى والشروع فى تنفيذه.

لقد وعد إسماعيل أباه أنه سيكون صابراً، وصدق فى وعده.

«واذكر فى الكتاب إسماعيل، إنه كان صادق الوعد». (من الآية ٥٤ - مريم)

وأخرج غير واحد عن مجاهد أن إسماعيل قال لأبيه: لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىَّ. اربط يدى إلى رقبتى ثم ضع وجهى للأرض. فوضعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحة ليكون أهون عليه. فذلك قوله تعالى: «وتله للجبين» أى أكبَّه على وجهه.

وهناك رواية أخرى للسدى أنه قال لأبيه: يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب. واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شيء فتراه فتحزن. وأسرع مر السكين على حلقى فيكون أهون للموت علىَّ فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى. فأقبل إبراهيم يقبله.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودى من خلفه: أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا. وأخرج الحاكم عن طريق مجاهد أنه لما أدخل يده ليحمل المدية نودى يا إبراهيم قد صدَّقت الرويا، فأمسك يده.

وأخرج ابن جرير عن السدى أنه عليه السلام جرَّ السكين على حلقه فلم ينحر. وقيل ضرب الله تعالى على حلقه صفيحة من نحاس فلم تقطع. وقيل أيضاً أن الله أمرها فلم تقطع. ونودى أن يا إبراهيم قد صدقت الرويا، فرفع رأسه فرأى الكبش ينحط عليه. وكان كبشاً عظيماً. فذلك قوله تعالى:

«وفديناه بذبح عظيم».

وروى عن ابن عباس إنه الكبش الذى قربَّه هابيل فتُقبل منه وبقى يرعى فى الجنة إلى يوم هذا الفداء. وفى رواية ثانية عن ابن عباس أيضاً أنه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً.

وعن عطاء السائب أنه قال: كنت قاعداً بالمنحر فحدثنى قرشى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الكبش نزل على إبراهيم فى هذا المكان.

ونحر إبراهيم عليه السلام الكبش عوضاً عن ابنه. وسمى ذلك اليوم يوم النحر. وفيه تنحر الذبائح تقربا لله.

حكمة الأمر بالذبح ثم الفداء:

القربان هو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها. وكان أول قربان فى تاريخ

البشرية هو ما أشار به آدم عليه السلام للفصل فى النزاع بين هابيل وقابيل. وقد سبق ذكر ذلك فى الجزء الأول ص ١٧. حيث أمرهما أن يقُربا قرباناً. وأيهما تقبل قربانه فهو الأحق بالزواج من إقليما - توأمة قابيل. وكان هابيل راعياً صاحب ماشية فقدم كبشاً سميناً من خيار ماشيته. فى حين قدَّم قابيل حزمة من ردئ زرعه. فلم تقبل منه. ومن الطبيعى أن المحب يقدم أحسن ما عنده دليلاً على حبه.

ثم - فى وقت من الأوقات - رأت بعض الجماعات البشرية لإزالة ما يحل بها من أمراض أو نكبات - ظناً منهم أنها لعنات من الآلهة - رأت لابد من عمل شئ ذى قوة وبأس. وليس فى الوجود شئ أقوى من إراقة الدماء البشرية. بمعنى أن تضحى القبيلة بأحد الأفراد لهذا الغرض. ومن هنا ظهرت فكرة القرابين البشرية. ثم كان التطور الأخير هو أن الولد هو أكثر ما يحبه الوالد. فتكون التضحية أكبر إذا ضحى به. ظناً أن هذا أدعى للاستجابة لما يريد. ومن هنا نشأت فكرة التضحية بالولد وخاصة بالابن البكر قرباناً للآلهة. وانتشرت هذه العادة وخاصة فى بلاد العراق والشام قديماً. وكثيراً ما كان الأب يأخذ ابنه إلى معابد الآلهة ويذبحه على المذبح أمام الإله تقرباً ولقضاء حوائجه.

ولقد علم الله أن ذبح المرء لولده هو أقسى شئ على النفس البشرية. وما خلق الله الخلق ليعذبهم.. وإن كانوا هم قساة على أنفسهم. فالله أرحم بهم منهم على أنفسهم. فأراد الله إبطال هذا النوع من التضحية. فاختار خليله إبراهيم عليه السلام ليكون هو المثال العملى لإبطال هذه العادة. فأمره بذبح ولده ثم افتداه بكبش عظيم. وحتى لا يندثر هذا الأمر على مر الأزمنة. ربطه سبحانه وتعالى بشعيرة من شعائر الدين الحنيف وهى شعيرة الحج.

ولقد امتثل العرب. منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - لهذا الأمر وبطلت تماماً عادة التضحية بالأبناء للآلهة. وحتى لما نذر عبد المطلب أن يضحى بأحد أبنائه إن سهل له الله أمر حفر زمزم. وحاول الوفاء بنذره - منعته قريش. وكان فداء عبدالله بمائة من الإبل.

أما ذرية إسحق. فقد بقيت فيهم عادة التضحية البشرية لما بعد ذلك بكثير. ونزل تحريمها فى التوراة. إذ نص على عقوبة الرجم لمن يعطى ابنه قرباناً. ومع ذلك ظل أمراء بنى إسرائيل يقدمون أبناءهم قرباناً. كما فعل يفتاح الجلعادى حين نذر للرب قائلاً (التوراة. قضاة ١١ - ١): إن دفعت بنى عمون ليدى. فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة. وتشاء الأقدار أن تكون ابنته الوحيدة هى التى تهب للقائه عندما عاد من معركته. ومن ثم اضطر أن يفى بنذره وإن كان قد أخَّره شهرين كطلبها.

وبقيت هذه العادة فى بنى إسرائيل حتى عصر النبى أرميا (٦٢٧ - ٥٧٧ ق. م) الذى نعى

عليهم أنهم «بنوا المرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار (محمد بيومى مهران. دراسات تاريخية فى القرآن الكريم. جـ ١ ص ١٧٩). وها هو أشعياء النبى يصفهم بقوله: القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل.

وبقاء عادة تقديم الأولاد قرابين على محرقة للإله - فى بنى إسرائيل لفترة بلغت حوالى ٩٠٠ عام بعد إسحق تدل على أن الذبيح لم يكن إسحق. إذ لو كان هو لظلت هذه الحادثة فى ذاكرتهم وامتنعوا عن هذه العادة. وفى المقابل ولأن الذبيح كان إسماعيل فقد بطلت هذه العادة تماماً - ومن وقتها - فى العرب.

حرماً آمناً:

لا شك أن إبراهيم عليه السلام راح يستعرض فى ذاكرته الأحداث الجسام التى مرت به منذ قدومه مكة. فها هو قد بنى لله بيتاً كبيراً - طالما تمناه وهو يرى معابد الوثنيين فى العراق والشام ومصر وكل ما كان يستطيعه فى هذه البلاد هو إقامة رمز فوق قمة جبل يتعبد هو وأتباعه لله عنده. ولكن تحقق الحلم أخيراً. وتم إقامة بيت الله فى مكة. وجعل الله هذا البيت مرجعاً يثوب إليه الزوار ويلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بزيارته أى مثوبة. وأمناً، أى موضع أمن لسكانه.

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً». (من الآية ١٢٥ - البقرة)

وحتى القاتل الملتجىء إليه. لا يستوفى القصاص منه فى الحرم. ولكن يُضيق عليه ولا يُكلم ولا يطعم ولا يعامل حتى يخرج. فيقام عليه الحد. وهو أمن لكل شىء كائناً ما كان حتى الطير والحيوان إلا العقرب والثعبان والهوام وماشابهها:

«فيه آيات بينات. مقام إبراهيم. ومن دخله كان آمناً». (من الآية ٩٧ - آل عمران)

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال: كان الرجل فى الجاهلية يقتل الرجل ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه فلا يحركه. وأخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال: لو وجدت قاتل الخطاب فى الحرم ما مسسته حتى يخرج منه. وعن ابن عباس قال: لو وجدت قاتل أبى فى الحرم لم أتعرض له.

ومذهبهم فى ذلك أنه من قتل أو سرق ثم دخل الحرم فإنه لا يُجالس ولا يُكلَّم ولكن يُضيق عليه حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد. أما من قتل أو سرق فى الحرم، فيُقام عليه الحد فى الحرم. بعضهم قال إن المعنى من دخله كان آمناً من النار. وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل البيت دخل فى حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له. وفى رواية عن ابن عمر قال: من قبر بمكة مسلماً بعث آمناً يوم القيامة. ولكن التفسير

بالأمن فى الدنيا أرجح. ويجوز إرادة العموم بالأمن فى الدنيا والآخرة لإطلاق اللفظ على الحالين.

لم يكتف إبراهيم عليه السلام بأن الله قد جعل البيت الحرام أمناً للناس. فدعا ربه أن يجعل البلدة كلها – بلدة مكة – بلداً أمناً فتكون مكة كلها حرماً آمناً. ودعا الله كذلك أن يرزق أهله من الثمرات والرزق أى أن يبارك لهم فى زرعهم وثمره وتجارتهم وثمرة أعمالهم كلها.

«وإذ قال إبراهيم. رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر». (من الآية ١٢٦ – البقرة)

قال ابن جرير وغيره سمعنا أشعث عن نافع عن أبى هريرة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبراهيم كان عبدالله وخليله وإنى عبدالله ورسوله. وإن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاها وصيدها. لا يحمل فيها سلاح لقتال. ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير.

وعن ابن جرير أيضاً عن كثيرين عن رافع بن خديج قال. قال رسول الله صلى الله على وسلم: إن إبراهيم حرَّم مكة وإنى أحرم ما بين لابتيها (المقصود يثرب).

وفى البخارى عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها. وحرمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة. وجاء الحديث فى صحيح مسلم أيضاً.

ورويت أحاديث أخرى فى هذا المعنى بأسانيد أخرى.

والصاع والمد مكيال تكال به الحبوب. والصاع أربعة أمداد. والمد قدَّره الشافعية بنصف قدح. والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يبارك فى زرعها وثمرها.

وقد ورد فى الصحيحين عن عبدالله ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى. ولم يحل لى إلا ساعة من نهار. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرَّفها. ولا يختلى خلاها. فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر (حشيش أخضر طيب الرائحة) فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا الإذخر.

وروى مثل هذا الحديث، بتغيير طفيف، عن أبى هريرة وعن آخرين. ولا تعارض بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلَّغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام للبيت.

«وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً. واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى. ومن عصانى فإنك غفور رحيم». (٣٥ - إبراهيم)

فى هاتين الايتين، أضاف إبراهيم عليه السلام إلى دعاء البلد الآمن شيئاً آخر. فهو قد علم ما يفعل الشيطان بابن آدم، وتوعده لهم بقوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم، وأنه يفتن الناس بعبادة الأصنام. خاف إبراهيم عليه السلام على بنيه وذريته. فهم وإن كانوا يعبدون الله الآن، فما يدريه ما يفعلون بعد أن يفارقهم ويبعد بهم العهد، فطلب من الله أن يجنب بنيه وذريته أن يعبدوا الأصنام. ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن عبادة غير الله تعالى. وقالوا إن إبراهيم عليه السلام جعل الدعاء لنفسه أيضاً لإظهار فضل الله تعالى فى هذه العصمة وإظهار الحاجة إلى فضل الله تعالى فى الثبات عليها. وفى رأينا أنه إنما أراد أيضا - بعطف بنيه على نفسه - أن يجعل الله لهم مثل ثباته على عبادة الله وبدلاً من أن يقول واجنب بنى أن يعبدوا الأصنام فقد لا يستجاب هذا الدعاء. لذلك أراد أن يشرك نفسه فى الدعاء أيضاً لعلمه أن ذلك سيكون أقرب إلى الاستجابة فقال: «واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام».

لقد رأى الأصنام تعبد فى أور وبابل والشام ومصر. ورأى كيف يُفتتن الناس بها. ويعمل الكهنة - الذين يقومون على هذه الأصنام - على إضلال الناس. فخاف على ذريته من مثل هذا. وعلم أن من سيظل على اتباع سنته فهو منه. أى متصل به ومتبع لدين الله الحنيف. وأما من عصى وضل. فقد دعا الله أن يهديه برحمته ويغفر له فترة ضلاله. فالله غفور رحيم. وهكذا أراد إبراهيم عليه السلام أن تكون ذريته مؤمنة مسلمة. وذلك ما كان يدعو به أيضاً وهو يرفع القواعد من البيت بقوله:

«ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك». (من الآية ١٢٨ - البقرة)

مناسك الحج:

بنى إبراهيم عليه السلام بيت الله الحرام ليطوف حوله. يذكرون اسم الله أثناء طوافهم. ويصلون عنده الصلوات التى فرضها الله عليهم. ليتوب الله عليهم ويغفر لهم ذنوبهم ويزيديهم من فضله حسنات وثواباً. ولعل إبراهيم عليه السلام رأى أن من يأتى حاجاً لبيت الله عليه أن يزور أيضاً المكان الذى كان به فداء إسماعيل من الذبح لتظل هذه الحادثة باقية فى الأذهان فلا يعود الناس ثانية إلى التضحيات البشرية. ولعله أيضاً رأى أن رمى الشيطان بالجمرات - عند وسوسته له ليثنيه عن تنفيذ أمر ربه - أمر يستحق التذكر أيضاً وطلب من الله العلى الحكيم أن يريه ترتيب إتيان هذه العبادات حت تكون توبة العباد مقبولة فدعا ربه:

«وأرنا مناسكنا. وتب علينا». (من الآية ١٢٨ - البقرة)

فلما أراه الله ترتيب مناسك الحج، أمره الله أن يؤذِّن فى الناس بالحج.

«وأذن فى الناس بالحج، يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق». (٢٧ - الحج)

عن ابن عباس قال: لما قال الله تعالى: «وأذن فى الناس بالحج» قال إبراهيم: وما يبلغ صوتى؟ قال: أذِّن وعلى البلاغ. قال: رب كيف أقول؟ قال: قل، يا أيها الناس. كُتب عليكم الحج إلى بيت الله العتيق. فسمعه أهل الأرض والسماء.

وجاء فى رواية أخرى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس ثم نادى: يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم. من هنا كان أول ما يتلفظ به الحاج بعد التطهر والإحرام هو: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. وهو تلبية للأذان بالحج الذى رفعه إبراهيم عليه السلام.

وهكذا اكتملت شريعة الحج بأن بين الله لإبراهيم عليه السلام ترتيب المناسك حتى يتبعها ويعلمها للناس وتتبعها ذريته من بعده. ولهذا قرأ ابن مسعود الآية «وأرهم مناسكهم» بإعادة الضمير إلى الذرية. وكان آخر الدعاء هو: «وتب علينا» أى وفقنا للتوبة أو اقبلها منا. والضمير يشمل الذرية أيضاً. بل لعله ينصب أساساً على الذرية لأنها هى التى سيصدر عنها الذنب الذى يتطلب التوبة. وقد أدخل إبراهيم عليه السلام نفسه وإسماعيل عند طلب التوبة لتكون أقرب للاستجابة. إلاّ أن عبدالله قرأها: «وتب عليهم» جمع الغائب.

وأتبع إبراهيم ذلك بدعاء أخير. وهو أن يبعث الله - فى ذريته من إسماعيل - رسولاً منهم.

«ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم. يتلو عليهم آياتك. ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم». (١٢٩ - البقرة)

وفى الأثر أنه لما دعا ربراهيم بذلك قيل له: قد استجيب لك. وهو يكون فى آخر الزمان..

وروى الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: سأخبركم بأول أمرى: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى.

كان موعد الحج قد اقترب. وأذَّن إبراهيم بالحج. وأمَّ الناس فى الحج وعلمهم مناسك الحج وترتيبها.

وبانتهاء الحجة علم إبراهيم عليه السلام أن مهمته فى مكة قد انتهت وطاف بالبيت طواف الوادع. وعاد إلى حبرون.

احداث النصف الثانى من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	ق.م.	العمر	إبراهيم	العمر	إسماعيل	إسحق ويعقوب
		٩٩				ولادة إسحق
سنوسرت الثالث	١٨٧٨	١٠٠	زيارة لمكة	١٣	ختان إسماعيل	
		١٠١	بناء الكعبة			
	١٨٧٦	١٠٢	أمر الذبح والحج	١٥	أمر الذبح	
		١٠٣				
		١٠٤				
	١٨٧٢	١٠٦	زيارة مكة وحج	١٩	أول زواج	
	١٨٧٠	١٠٨	زيارة مكة وحج	٢١	ثانى زواج	
		١١٧		٣٠		
	١٨٥٨	١٢٠		٣٣		
١٨٥١	١٨٥١	١٢٧		٤٠	مبعثه رسولاً	
أمنمحيت الثالث (حكم ٤٨ سنة)		١٣٠				
		١٣٥				
		١٣٧		٥٠	رحلته إلى اليمن	
		١٣٩		٥٢	وفاة هاجر	إسحق ٤٠ سنة تزوج رفقة
	١٨٣٨	١٤٠		٥٣		
		١٤٥				رفقة عاقر ١٠ سنوات
	١٨٢٩	١٤٩	وفاة سارة بعد ولادة يعقوب وعمرها ١٣٩سنة	٦٢		٥٠ عمر إسحق عند ولادة يعقوب
	١٨٢٨	١٥٠				
		١٥٥				
	١٨١٨	١٦٠				
		١٦٥				
	١٨٠٨	١٧٠				
١٨٠٢	١٨٠٣	١٧٥	وفاة إبراهيم	٨٨	عمر إسماعيل	٧٤ عمر إسحق

إسماعيل عليه السلام

سبق أن ذكرنا زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر وولادة اسماعيل. ثم أخذهما إلى واد غير زرع بمكة وتركهما هناك تنفيذا لأمر الله. وتفجرت زمزم ببركة هذا الوليد الذى هو إسماعيل. وجاءت جماعة من جرهم واستأذنوا هاجر فى السكنى بجوار البئر فأذنت لهم. وتبعتهم جماعة من العماليق. وإذا بالوادى يعمر وينبض بالحياة. تعرج عليه القوافل القادمة من اليمن إلى الشام أو العائدة من الشام إلى اليمن. وكانت القوافل كلها تحط رحالها عند مكة. تستريح من السفر الطويل. فإن مكة تقريبا فى منتصف المسافة من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية والشام. يتزودون بالماء والطعام ويتاجرون فيما معهم من بضاعة. وكان أهل مكة يصيبون من هذه القوافل خيرا كثيراً.

ثم ذكرنا شيئا عن إسماعيل فى شبابه. وكيف استأنس الخيل الوحشية فكان أول من ركبها. وبرع فى رمى السهام. وسهَّل اللغة فكان أول من نطق بالعربية الفصحى.

وجاء إبراهيم عليه السلام فى زيارة له لمكة وكان عمر إسماعيل ثلاثة عشر عاماً. وقام والده بختانه.

وساعد إسماعيل والده فى بناء البيت الحرام.

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت. وإسماعيل ربنا تقبل منا».

ثم كانت محنة الذبح والفداء.

ورافق إسماعيل أباه فى أول حج وأدى المناسك كلها. ورأى أن الله شاءت حكمته أن تتضمن هذه المناسك لهفة هاجر - والدته - عليه وهى تهرول بين الصفا والمروة سبعة أشواط بحثا عن الماء له. كان صغيرا لا يعى - ولكنها أخبرته بذلك وكيف أن ماء زمزم تفجر عند كعبه فكان خيرا وبركة للجميع. تفكر أيضا فى كيف أن الله جعل من رجم إبليس عند محاولته ليثنى والده عن تنفيذ أمر ربه بذبحه - جعل الله هذا الرجم جزءا من مناسك الحج. كما جعل الأضحية فى يوم النحر تخليدا لفدائه.

بعد انتهاء شعائر الحج أدرك إبراهيم عليه السلام أن مهمته فى مكة قد انتهت. وأخبر ابنه إسماعيل بأن له أخا فى حبرون من سارة زوجته. وفهم من إسماعيل أن والدته هاجر كانت قد أخبرته عن زوجته سارة. وأنها كانت تتكلم دائما عنها بالخير. وتذكر دائما فضلها فى تزويجها من إبراهيم النبى - والده - عليه السلام.

وسُرَّ إسماعيل لما علم أن له أخا شقيقا يكاد يبلغ من العمر عاما واحدا فى حين أن

إسماعيل كان قد بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره.

عاد إبراهيم عليه السلام إلى حبرون.

ومرت ثلاث سنوات بلغ فيها إسماعيل الثامنة عشرة وأعجب بإحدى فتيات قبيلة جرهم - يقال اسمها صدا بنت سعد - فتزوجها بالرغم من أن هاجر لم تكن تستريح إليها - إذ كانت كثيرة التبرم بضيق العيش وشظف المعيشة. ولكن هاجر احتملتها لكونها تروق فى عين ولدها.

كان موسم الحج يقترب. وتاقت نفس إبراهيم عليه السلام للحج. فشد الرحال إلى مكة بصحبة عدد من غلمانه وعبيده وقدم إبراهيم إلى مكة. وقصد بيت هاجر وعلم أن إسماعيل قد تزوج فقصد بيته فلم يجده فسأل عنه فقالت خرج ليبتغى لنا. وسألها عن معيشتهم وهيئتهم. فقالت نحن بشَرٍّ. نحن فى ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يُغَيِّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئا. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنا كيف عيشنا، فأخبرته أننا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم. أن أقرأ عليك السلام. ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك. فالحقى بأهلك. وطلقها.

ذلك أن إبراهيم عليه السلام - أدرك أن هذه الزوجة فظة غليظة القلب. لا تحمد الله ولا تصلح أن تكون أُمًّا للذرية التى وعده الله بها لتحمل رسالته إلى مشارق الأرض ومغاربها.

كان إبراهيم عليه السلام قد توجه إلى بيت هاجر. وهناك لحق به ابنه إسماعيل. وأديا مناسك الحج معا. وبعد انتهائها عاد إبراهيم عليه السلام إلى حبرون.

ومرت الأيام وتزوج إسماعيل للمرة الثانية. قال ابن هشام: من عاتكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى إنها شاملة بنت مهلهل. وتقول التوراة وأخذت له أمه زوجة من مصر. وأخذ بهذا الرأى الأستاذ عبدالحميد جودة السحار وقال إن هاجر أرسلت رسلا إلى صديقة من صديقاتها بمنف ليعودوا بإحدى قريباتها المصريات لتكون زوجة لإسماعيل.

ولا نرى هذا الرأى - إذ أنه يجعل أبناء إسماعيل من زوجة مصرية. وكان هذا الأمر جديرا بالذكر فى الكتب. والأرجح ما قاله ابن هشام من أنها عاتكة بنت عمرو الجرهمى. بدليل أن هذا أعطى شرفا لجرهم على العماليق. وجعلهم يطمعون فى السيادة بمكة. وهذا ما تم فعلاً. إذ نازعوا نابت ابن إسماعيل الأمر. واستولوا على ولاية البيت وسقاية الحجيج.

بعد عامين تاقت نفس إبراهيم عليه السلام للحج وزيارة ولده إسماعيل. فشد الرحال إلى مكة فى قافلة صغيرة من بعض غلمانه ورواحل تحمل الخيام والزاد. وسار حتى وصل مكة. وضرب خيامه ثم توجه إلى حيث دار إسماعيل فلم يجده. فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى

لنا طعاما . قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم. قالت نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. قال ما طعامكم؟ قالت اللحم قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه: فسألنى عنك فأخبرته. فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال أفأوصاك بشيئ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال ذلك أبى. وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك.

وبحث إسماعيل عن والده فوجده يطوف حول الكعبة.

وأتما مناسك الحج معا . كما فى المرة السابقة.

تروى بعض الكتب روايات عن أن إبراهيم عليه السلام كان يستأذن سارة أن يزور إسماعيل (عرائس المجالس. الثعلبى. ص ٩٩). فكانت تأذن له. وأنها أحيانا كانت تشترط عليه ألا ينزل عن راحلته (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٣٧٩) .

وروى عن الحسن أنه فى زيارة إبراهيم لزوجة إسماعيل الثانية – أن زوجة إسماعيل وضعت حجرا تحت إحدى رجليه وهو راكب فغسلت إحدى شقى رأسه. ثم رفعت الحجر من تحت رجله وقد غاصت فيه. ووضعته تحت رجله الأخرى. فغسلت شقه الأخرى وغاصت رجله الأخرى فيه أيضا . فذلك أثر رجلى إبراهيم!

ومن المؤكد أن هذا الشرط – أن لا ينزل عن راحلته – من موضوعات أهل الكتاب. فمما لا يقبله العقل والمنطق أن يقطع مسافه حوالى ١٣٠٠ كيلو متر من حبرون إلى مكة. ليقضى بمكة بضع ساعات يظل فيها على راحلته ثم يقفل راجعا نفس المسافة. دون أن يستريح حتى من مشقة السفر.

ومن شبه المؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان يجعل زياراته فى موعد الحج لينال ثواب الحج أيضا . رمن المؤكد أيضا أنه كان ينتهز فرصة هذه الزيارات لنشر دين الله – دين الحنيفية – بين جرهم والعماليق الساكنين بمكة وبين القبائل المارة بها فى تجارتها . أو الوافدة إليها فى موسم الحج. وإلاَّ فمن أين جاء دين الحنيفية الذى كان عليه بعض العرب؟

لقد سبق أن ذكرنا أن هاجر قد أخبرت القوم بأن الله قد فجَّر ماء زمزم، سقيا من الله، ببركة وليدها إسماعيل، ابن نبى الله إبراهيم، وتشوق القوم لرؤية هذا النبى ومعرفة المزيد عن دينه، وإذ جاء إبراهيم عليه السلام فى زيارته الأولى، فلابد أنهم التفوا حوله يستطلعونه أمر هذا الدين. وحين اكتمل بناء البيت كان القوم كلهم قد تحولوا إلي دين الحنيفية. ومما لا شك فيه أن إبراهيم عليه السلام – فى زياراته التالية – كان يقعد بينهم، يفقههم فى أمور دينهم ويتلو عليهم ما كان ينزل عليه من ربه من صحف. وصفها الله بقوله «صحف إبراهيم». فلا محل للقول بأنه كان لا ينزل عن راحلته!

اطمأن إبراهيم عليه السلام في هذه الزيارة أن زوجة إسماعيل هي التي تصلح أن تكون أما للذرية التي وعد الله بها إسماعيل. وعاد إبراهيم – بعد الحج – إلى حبرون.

وتمضي السنون – ويلغ إسماعيل أشده ويلغ أربعين سنة. وكان القوم في حاجة إلى نبي يبلغهم تعاليم ربهم وينظم شئونهم. واختاره الله لإتمام الرسالة التي بدأها أبوه – إبراهيم عليه السلام. ببناء البيت وتشريع الحج ومناسكه. فكان إسماعيل رسولا نبيا.

«واذكر في الكتاب إسماعيل. إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا». (٥٤ – ٥٥ مريم)

هذا ثناء من الله على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد. وقال بعضهم: قيل صادق الوعد لأنه قال لأبيه «ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فصدق في ذلك. وصدق الوعد من الصفات الحميدة. وقال ابن جريج: لم يعد ربه عِدَة إلا أنجزها. يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها.

وكان رسولا نبيا – وفي هذا الوصف تقدمة له على أخيه إسحق الذي وصفه الله بالنبوة فقط في قوله:

«وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين». (١١٢ – الصافات)

ومن المبالغات التي قالوها في أنه كان صادق الوعد ما ذكره ابن كثير (تفسير جـ ٣ ص ١٢٤). قال ابن جرير، حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب أن سهيل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلا مكانا أن يأتيه فيه، فجاء. ونسي الرجل. فظل إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد. فقال الرجل: ما برحت من ههنا؟ قال لا. قال: إني نسيت. قال إسماعيل: لم أكن لأبرح حتى تأتيني.

وعن سهل بن سعد (تفسير الألوسي. جـ ١٦ ص ١٠٤) قال غاب عنه يوماً وليلة. وعن مقاتل ثلاثة أيام وقال آخرون غاب عنه اثني عشر يوما. وقال سفيان الثوري: بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه ويبلغ الخيال أقصاه فيقول ابن شوذب: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنا!!

وما أظن أن صدق الوعد يكون بهذه الطريقة المبالغ فيها والتي فيها مضيعة لوقت بني كريم. فيكفي أنه كان صادق الوعد مع أبيه حينما قال «ستجدني إن شاء الله من الصابرين». وقس على ذلك صدقه في كل معاملاته.

«وكان رسولا نبيا».

وقد سبق ذكر تعريف الرسول في الجزء الأول (ص ٢) بأنه هو الذي أنزلت عليه رسالة أي

كتاب مثل إبراهيم وموسى وداوود وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ووصف إسماعيل بأنه كان رسولا فيه دلالة على أن الرسول لا يُشترط أن يكون صاحب شريعة جديدة. بل يكفى أن يكون صاحب شريعة بالنسبة لمن بعث إليهم وإسماعيل بُعث إلى جرهم والعماليق وأهل اليمن بشريعة إبراهيم عليه السلام.

«وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة».

وهو أن يبدأ المرء بعد تكميل نفسه بتكميل أقرب الناس إليه وهم أهله لأنهم قدوة يقتدى بهم. وقال الحسن (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٥) المراد بأهله أمته لكون النبى بمنزلة الأب من أمته ويستدل على ذلك أن فى مصحف عبدالله: **«وكان يأمر قومه».**

وهذا يتفق مع ما أُمر به نبينا الكريم ﴿ ﷺ﴾

«وأنذر عشيرتك الأقربين». (٢١٤ – الشعراء)

«وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها». (من الآية ١٣٢ – طه)

وجاء فى الحديث عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: رحم الله رجلا قام الليل فصلى وأيقظ امرأته. فإن أبت نضح فى وجهها الماء. ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء. أخرجه أبو داوود وابن ماجه.

وعن أبى سعيد وأبى هريره رضى الله عنهما عن النبى ﴿ ﷺ ﴾ قال: إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات. رواء أبو داود والنسائى وابن ماجه.

وأما الزكاة فهى الصدقة. وكان يأمر قومه بالصلاة والزكاة. قيل الصلاة ليلا والصدقة نهارا. وقيل المراد بها الصلاة والصدقة فى كل وقت.

وكان عند ربه مرضيا. لاستقامة أقواله وأفعاله.

وكذلك وصف إسماعيل عليه السلام بأوصاف عدة فى القرآن الكريم وَصف بأنه من الصالحين، بالإضافة إلى كونه من الصابرين، فى قوله تعالى:

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل. كل من الصابرين. وأدخلناهم فى رحمتنا. إنهم من الصالحين». (٨٥ – ٨٦ – الأنبياء)

وذكر كذلك أنه من الأخيار:

«واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل. وكل من الأخيار». (٤٨ – ص)

وذكر أيضا بأنه كان ممن فضلهم الله على العالمين، قيل أى عالمى عصرهم.

«وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا. وكلا فضلنا على العالمين». (٨٦ - الأنعام)

فإسماعيل عليه السلام من الصابرين، والصالحين، والأخيار وفضله الله على عالمي عصره بالإضافة إلى أنه كان صادق الوعد، وكان رسولا نبيا.

إسماعيل - وكان رسولا نبيا:

جاء قوله تعالى:

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط. وما أوتى موسى وعيسى....». (من الآية ١٣٦ - البقرة)

وقوله:

«قل آمنا بالله وما أنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى......». (من الآية ٨٤ - آل عمران)

فنرى أن إسماعيل وإسحق والأسباط ذكُروا فى مقام المعطوف على إبراهيم لأنهم كانوا يطبقون شريعته كلٌ فى قومه. فالشريعة وإن نزلت على إبراهيم عليه السلام. إلاَّ أنهم كُلفوا بتطبيقها فى أقوامهم.

كان إسماعيل رسولا إلى جرهم والعماليق واليمن.

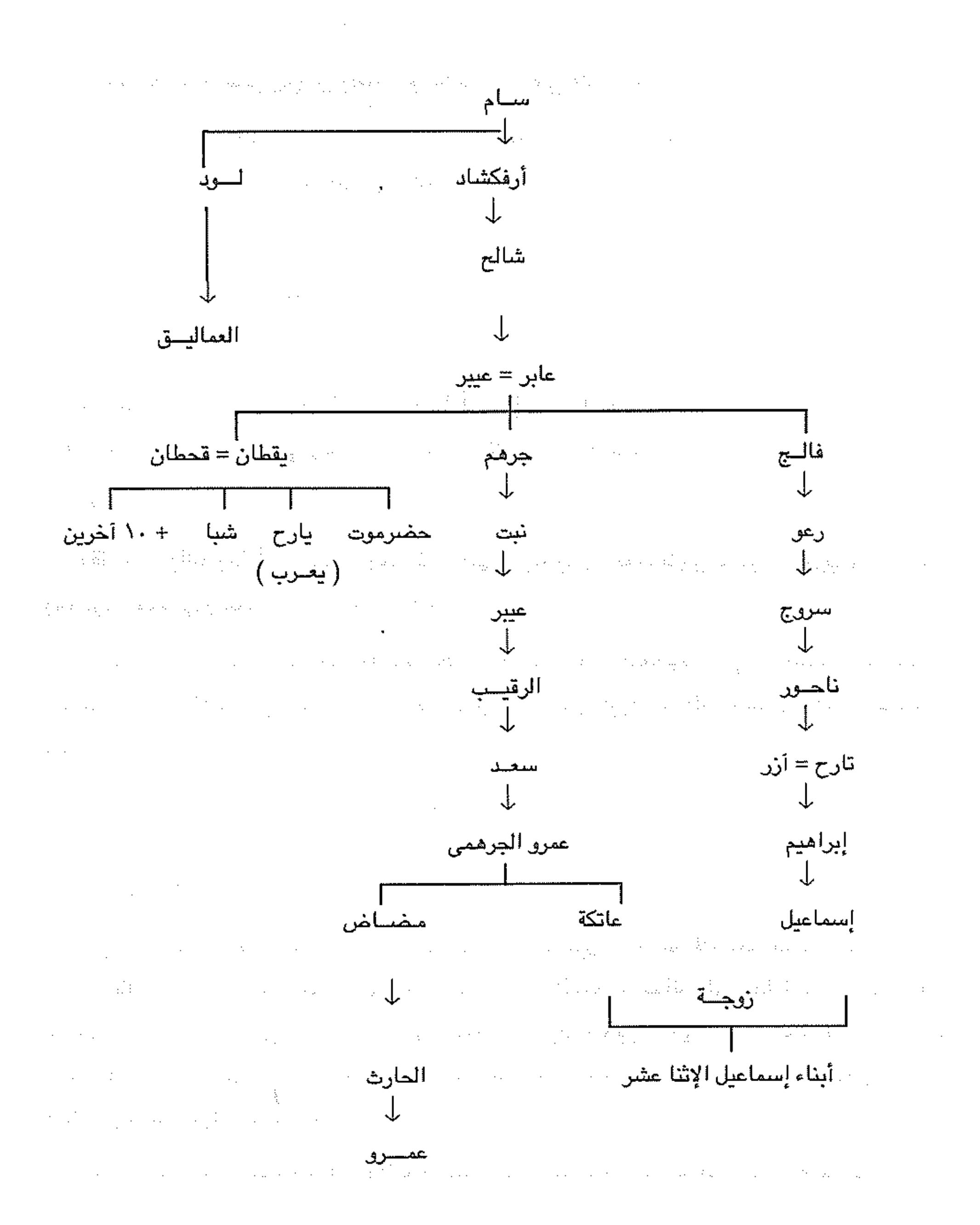
١ - جـرهم:

سبق أن ذكرنا أنه لما تفجر ماء زمزم ببركة إسماعيل عليه السلام تصادف أن جماعة من جرهم كانوا يمرون قرب مكة. ورأوا الطير يحوم فى السماء. فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. وأرسلوا من يرى الخبر فرأى الماء. فجاء وفد من جرهم واستأذنوا هاجر فى النزول عند الماء. فأذنت لهم. فجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها وغنمها ونزلوا بوادى مكة.

وجرهم هو أخو فالج ويقطان والثلاثة أبناء عابر أو عبير ابن شالح ابن أرفكشاد بن سام (شكل ٤١).

٢ - العماليق:

هم من نسل لود ابن سام. كانت القبيلة فى الأصل تسمى ماليق أو مالوق وأضيف إليها



شكل ٤١ – شجرة نسب جرهم وقرابتهم لإسماعيل

لفظ «عم» بمعنى شعب فقيل عم ماليق أى شعب الماليق ثم عماليق أو عمالقة.

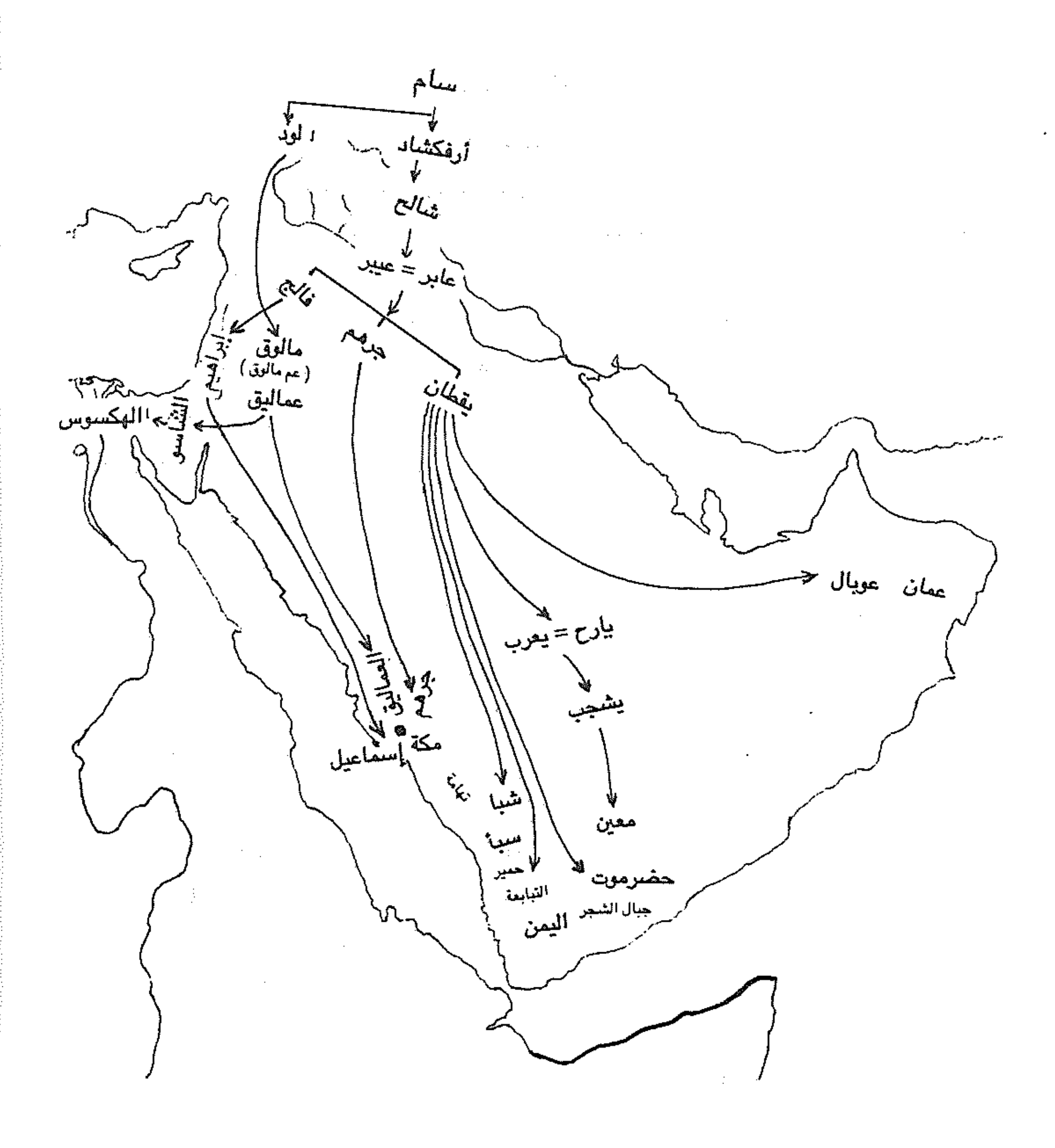
ومعظم المؤرخين يقولون بأنهم كانوا يسكنون فى شمال صحراء الجزيرة العربية شرقى خليج العقبة. وهم عرب، بدو رحل. ويرى كثيرون أن جماعة منهم اتجهت غربا ودخلوا مصر وحكموها باسم الهكسوس كما سيأتى فيما بعد وسماهم المصريون «خابيرو» أو «عابيرو» ويقال إن جماعة منهم عند طرد الهكسوس - بقوا فى مصر واندمجوا فى بعض الأسباط من بنى يعقوب وأطلق على الجميع «عابيرو» ومنها جاءت «عبرى» (د. حسين الشيخ - العرب قبل الاسلام. ص ٦٧). وجماعة أخرى من العماليق كانوا فى طريقهم جنوبا. ولما قربوا من وادى مكة ضل لهم بعيران فتبعهما غلامان حتى جبل أبى قبيس فنظرا الماء ثم أخبرا باقى القوم فأستأذنوا هاجر وأقاموا بوادى مكة.

سكنت هاتان القبيلتان فى مكة بعد أن أذنت لهما هاجر. وشب إسماعيل بينهم. ولما بعث إسماعيل رسولا استكمل ما كان قد بدأه أبوه - إبراهيم عليه السلام - من دعوتهم للإيمان والتمسك بالعقيدة الحنيفية.

٣ - اليمن:

يراد باليمن فى التاريخ القديم الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية. وهو ما يسميه اليونان Arabia Felix أى العربية السعيدة. ولعل اسم اليمن مشتق من اليمن أى البركة لكثرة خيراتها بالنظر إلى البادية فى باقى الجزيرة العربية. ويدخل فى عداد اليمن قديما المناطق المسماة الآن: اليمن وحضرموت وتهامة: والجوف. وعُمان. ثم لما زاد الجفاف غطت الرمال أجزاء كبيرة من الأراضى الزراعية وأصبح اليمن يطلق على الجزء الجنوبى الغربى ويشمل اليمن وحضرموت وسبأ (شكل ٤٢).

وتاريخ هذه المنطقة غامض أشد الغموض. لم يصلنا منه إلا القليل. وينتسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان (يقطان) - ولكن التوراة لا تذكر بين أبناء قحطان الثلاثة عشر واحدا باسم يعرب. إلا أن يكون هو المذكور باسم يارح. وبالطبع فإن حضرموت سكنها حضرموت ابن قحطان وسبأ تنسب إلى شبا أخيه وكان فى هذه المنطقة أناس ممن عاصروا عادا قوم هود عليه السلام. كانوا يسكنون فى كل البقاع المجاورة. وتكاثروا وملأوا كل بلاد اليمن القديمة - ولكن لما جاء أبناء قحطان زاحموا السكان الأوائل الذين سُمّوا بالعرب البائدة. وأخذوا لغتهم وسُمِّى القادمون الجدد بالعرب العاربة أو المتعربة أو المستعربة.



شكل – ٤٢ أصل بعض القبائل والدول العربية القديمة

العقيدة الدينية فى اليمن:

كان القحطانيون يسكنون فى الصحراء العربية الملاصقة للعراق. ولما تمت إزاحتهم أو هجرتهم إلى الجنوب. أخذوا معهم ديانتهم ولذلك نجد معبوادتهم أقرب إلى معبودات البابليين. فعندهم «عشتار» و «إيل» و «بعل». كذلك وجدت نقوش عليها إسم الإله «ود» وهو أحد آلهة العراق أيام نوح عليه السلام. ولعل المعينيين النازخين إلى اليمن قد أخذوا عبادتهم معهم لما خرجوا من العراق.

وظهرت فى حضرموت عبادة الإله «سين» إله القمر. كما كانت الشمس أيضا من المعبودات. وانتشرت عبادة الشمس إلى سبأ – وسيجىء ذكر ذلك فى قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ.

ودولة معين فى اليمن كان لها ثلاث معبودات رئيسية.

«ود» وهو رب القمر مذكر واسمه أيضا «الموقاة».

«نكرح» وهى ربة الشمس – مؤنثة.

«عشتر» وهى ربة الزهرة ومؤنثة – وابنة لهما.

وكان أهل معين يعتبرون أنفسهم أبناء «ود» ويعتبرونه إلههم وحاميهم. وكان أهل حضرموت يسمون أنفسهم «أبناء سين» إله القمر.

وقد ورد فى نقوش وجدت باليمن اسم إلهين آخرين هما «ذات حشو» و «ذات صميم أو ذات حميم» إله الشمس. وكان لكل قبيلة إله لجلب المطر وآخر لمباركة المحاصيل وغير ذلك من الشئون مثل: «رئام» و «عميانس» و «يغوث» و «نسر» (شكل ٤٣).

قليلة جدا هى الكتب التى تذكر أن اسماعيل عليه السلام دعا أهل اليمن إلى دين الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام. وكان دين الحنيفية قد استقر بمكة وتوطدت دعائمه بعد تشريع الحج إلى بيت الله الحرام. ولكن الحجاج من أقاصى الجزيرة العربية كانوا يفدون مكة للتجارة وحج البيت. وكثير منهم كانوا يحملون تماثيل آلهتهم معهم. فلم يكن الحج خالصا لوجه الله، بل كانوا يشركون معه آلهتهم. لذلك لما بعث إسماعيل عليه السلام كانت إحدى مهامه نشر دين الله فى اليمن وما حولها من البقاع. وقيل (البداية والنهاية لابن كثير. جـ ٢ ص ١٨٠) إن إسماعيل زار تهامة ثم الجوف ثم اليمن وصنعاء. ودعا أقوام هذه الأمكنة إلى عبادة الله وشرح الله قلوب كثير من العباد فآمنوا به.



شكل ٤٣ - بعض الأصنام وأماكن عبادتها فى الجزيرة العربية القديمة.

وفـاة هاجـر:

عاد إسماعيل من رحلته إلى اليمن وكان عمره إذ ذاك يناهز الخمسين سنة ووجد أن والدته هاجر قد ماتت فى مكة ودفنت بالحجر. بجوار الكعبة.

وفى موسم الحج التالى حضر إبراهيم عليه السلام، وعلم بوفاة هاجر زوجته – وأم ولده البكر. وعزى إسماعيل، وعاد إلى حبرون وكانت هذه آخر رحلاته إلى الحجاز، وكان عمره وقتها مائة وسبعة وثلاثين عاما.

انتقل إبراهيم عليه السلام بعد ذلك للإقامة فى بئر سبع فقضى بها ثلاث سنوات.

إختيار زوجة لإسحق:

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ مائة وأربعين سنة، وبلغ إسحق من العمر أربعين سنة. وخاف إبراهيم أن يداهمه الأجل قبل أن يتزوج إسحق.

لم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يتزوج إسحق من بنات الكنعانيين إذ أن الوثنية كانت متفشية ومتأصلة فى الكنعانيين. ولعله خشى على عقيدة إسحق إن هو صاهرهم. لذلك رأى أن يختار له زوجة من أقاربه فى حاران. كذلك لم يشأ أن يرسل إسحق بنفسه إلى حاران لاختيار الزوجة. فقد تستهويه الإقامة بين أصهاره ولا يعود إلى أرض كنعان التى وعد الله إبراهيم عليه السلام بها ولإسحق من بعده. لذلك فقد أرسل وكيل بيته أليعازر الدمشقى. لاختيار زوجة من حاران – فى شمال العراق حيث أجداد إبراهيم.

تقول التوراة (إصحاح ٢١ تكوين) وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المسئول عن كل ماله – ضع يدك تحت فخذى. فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق. فقال له العبد. ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض. هل أرجع بإبنك إلى الأرض التى خرجت منها؟ فقال له إبراهيم: احترز من أن ترجع بإبنى إلى هناك. الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لإبنى من هناك. وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأْتَ من حلفى هذا، أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك. فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر.

سبق أن قلنا إن تارح أى آزر – والد إبراهيم – وُلِدَ له ثلاثة أبناء هم: إبراهيم وناحور وهاران. وقلنا إن هاران مات صغيرا بعد ما وُلِد له لوط فكفله عمه إبراهيم وكان يعتبره كأنه ابنه. أما ناحورُ فقد تزوج ملكة وولد له ثمانية أبَناء (شكل ٤٤). وما يهمنا هو بتوئيل – فقد أنجب ولدا اسمه لابان وبنتا اسمها رفقة Rebeca.

وتصف التوراة (إصحاح ٢٤ تكوين) كيفية إختيار زوجة إسحق هكذا: ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجمع خيرات مولاه فى يده. فقام وذهب إلى أرام النهرين إلى مدينة ناحور (أى إلى حاران المدينة التى يعيش فيها ناحور) وأناخ خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء، وقت خروج المستقيات. وقال: أيها الرب إله سيدى إبراهيم، يَسِّر لى اليوم واصنع لطفا إلى سيدى إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء. فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك لأشرب فتقول إشرب وأنا أسقى جمالك أيضا، هى التى عينتها لعبدك إسحق، وبها أعلم أنك صنعت لُطفا إلى سيدى.

وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام، إذا رفقة التى وُلدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخى إبراهيم، خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المنظر جدا وعذراء لم يعرفها رجل. فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت. فركض العبد للقائها وقال: اسقينى قليل ماء من جرتك. فقالت: اشرب يا سيدى. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت: أستقى لجمالك أيضا حتى تفرغ من الشرب. فأسرعت وأفرغت جرتها فى المسقاة وركضت أيضا إلى البئر لتستقى فاستقت لكل جماله. والرجل يتفرس فيها صامتا ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا. وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل فوضعها فى أنفها. ووضع سوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب. وقال: بنت من أنت؟ أخبرينى، هل فى بيت أبيك مكان لنا لنبيت؟ فقالت له أنا بنت بتوئيل ابن ملكة زوجة ناحور. وقالت له عندنا تبن وعلف كثير ومكان لتبيتوا أيضا. فخرَّ الرجل وسجد للرب. وقال: مبارك الرب إله سيدى إبراهيم الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى. إذ كنت أنا فى الطريق هدانى الرب إلى بيت إخوة سيدى فركضت الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور.

وكان لرفقه أخ اسمه لابان. فركض لابان إلى الرجل خارجا إلى العين وحدث أنه إذ رأى الخزامة والسوارين على يدى أخته وإذ سمع كلام رفقه أخته قائلة هكذا كلمنى الرجل. جاء إلى الرجل وإذا هو واقف عند الجمال على العين. فقال: ادخل يا مبارك الرب. لماذا تقف خارجا وأنا قد هيأت البيت ومكانا للجمال. فدخل الرجل إلى البيت وحلَّ عن الجمال. فأعطى تبنا وعلفا للجمال. وماء لغسل رجليه وأرجل الرجال الذين معه. ووضع الأكل قدامه ليأكل. فقال لا آكل حتى أتكلم كلامى. فقال تكلم.

فقال أنا عبد إبراهيم. والرب قد بارك مولاى جدا فصار عظيما. وأعطاه غنما وبقرا وفضة وذهبا وعبيدا وإماء وجمالا وحميرا. وولدت سارة امرأة سيدى ابنا بعدما شاخت فقد أعطاه كل ماله. واستحلفنى سيدى قائلا: لا تأخذ لابنى زوجة من بنات الكنعانيين بل إلى بيت أبى تذهب وإلى عشيرتى وتأخذ زوجة لابنى. ويكرر كاتبو التوراة إعادة ما حدث بين أليعازر ورفقة حتى يقول: وسجدت للرب وباركت الرب إله سيدى إبراهيم الذى هدانى فى طريق أمين لآخذ إبنة أخى سيدى لإبنه. والآن إن كنتم تصنعون معروفا وأمانة إلى سيدى فأخبرونى. وإلاَّ فأخبرونى لأنصرف يمينا أو شمالا.

الجد | الأب | الأبناء | الأحفاد

- تارح = آزر
  - إبراهيم
    - إسماعيل
    - إسحق
      - يعقوب
      - عيسو
    - ٦ أبناء (من قطورة)
  - ناحور (تزوج ملكة)
    - عوص
    - يوزا
    - قموئيل
    - كاسد
    - حزوا
    - فلداش
    - يدلاف
    - بتوئيل
      - رفقة
      - لابان
        - ليئة
        - راحيل
  - هاران (مات فى أور)
    - لوط

شكل ٤٤ – إسحق تزوج رفقة بنت بتوئيل ابن عمه
ويعقوب فيما بعد تزوج ابنتى خاله لابان.

فأجاب لابان وبتوئيل وقالا: من عند الرب خرج الأمر. لا نقدر أن نكلمك بشر أو بخير. هو ذى رفقه قدامك. خذها واذهب. فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب. وكان عندما سمع عبد إبراهيم كلامهم أنه سجد للرب إلى الأرض. وأخرج العبد آنية فضة وآنية ذهب وثيابا وأعطاها لرفقة. وأعطى تحفا لأخيها ولأمها. فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا. ثم قاموا صباحا فقال: اصرفونى إلى سيدى. فقال أخوها وأمها: لتمكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة. بعد ذلك تمضى. فقال لهم: لا تعوقونى والرب قد أنجح طريقى. اصرفونى لأذهب إلى سيدى. فقالوا لها هل تذهبين مع هذا الرجل؟ فقالت أذهب. فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبيد إبراهيم ورجاله. وباركوا رفقة وقالوا لها أنت أختنا صيرى ألوف ربوات. وليرث نسلك باب مبغضيه - (ولعله دعاء يقابل قولنا حاليا: بالرفاء والبنين - وربنا ينصرك على من يعاديك!!).

فقامت رفقة وفتياتها وركبن الجمال وتبعن الرجل. فأخذ رفقة ومضى.

لا ندرى كم استغرقت رحلة العودة. وكان إسحق يخرج كل يوم يستطلع قدوم الوفد. وفى أحد الأيام لمح الجمال مقبلة. وتقول التوراة: ورفعت رفقة عينيها فرأت إسحق فنزلت عن الجمل. وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدى. فأخذت البرقع وتغطت. ثم حدّث العبد إسحق بكل الأمور التى صنع. فأدخلها إسحق إلى خباء سارة أمه. وأخذ رفقة. فصارت زوجة له وأحبها. فتعزى إسحق بعد موت أمه.

ملوحظة: يفهم من هذه الفقرة أن سارة كانت قد توفيت. عند زواج إسحق من رفقة.

وفـاة سارة:

كانت حبرون وكل أرضها يملكها بنو حث. إلاّ أن إبراهيم عليه السلام كان يقيم على حدودها. وترعى غنمه وإبله حولها. ثم ارتأى إبراهيم أن ينتقل إلى بئر سبع فأقام هناك إلا أن سارة ظلت - فى حبرون، ومعها إسحق. وتمضى السنون. ويتقدم العمر بسارة إلى أن وافاها الأجل. فأرسلوا إلى إبراهيم عليه السلام رسولا يخبره بوفاة رفيقة عمره. فجاء على عجل.

طلب إبراهيم عليه السلام من بنى حث أن يعطوه قبرا ليدفن سارة فيه. فعرضوا عليه أن يدفنها فى أى قبر من قبورهم. ولكنه رفض هذا العرض. وأصرَّ على أن يكون القبر ملكا خالصا له. وطلب شراء حقل يملكه عفرون الحثى هو حقل المكفيلة. واشتراه بأربعمائه شاقل فضة، الحقل وجميع الشجر الذى به. وكان به مغارة دُفنت فيها سارة. وأصبحت المغارة - مغارة المكفيلة - بعد ذلك قبراً لأسرة إبراهيم عليه السلام. إذ هو نفسه قد دفن فيها. ومن بعده دفن فيها إسحق ورفقه وليئة ويعقوب. وهذه المغارة الآن ضمن الحرم الإبراهيمى فى مدينة الخليل. وطول هذا البناء ٦٥ مترا وعرضه ٣٦ مترا وعلوه من ١٦ - ١٩ مترا ومبنى من

حجارة ضخمة - يبلغ طول أحدها ١٢ مترا (قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة ص ٩١١).

عمر سارة: تقول التوراة: وكانت حياة سارة مائة وسبعة وعشرين سنة. وفى رأينا أنها عاشت أطول من ذلك، للأسباب التالية. وهى مأخوذة من التوراة نفسها.

١ - فى الإصحاح ١٧ تكوين: وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك منها أيضا ابنا. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك، وقال فى قلبه: هل يولد لإبن مائة سنة؟ وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة؟

أى أن سارة كانت تصغر إبراهيم عليه السلام بعشر سنوات.

٢ - فى الإصحاح ٢١: وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق ابنه. أى كانت سارة بنت تسعين سنة.

٣ - فى الإصحاح ٢٥: وكان إسحق ابن أربعين لما اتخذ لنفسه زوجة، رفقة بنت بتوئيل.

معنى هذا أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ١٤٠ سنة عند زواج إسحق ولو كانت سارة على قيد الحياة لبلغ عمرها ١٣٠ سنة.

٤ - تقول التوراة فى إصحاح ٢٣ - أن عمر سارة عند وفاتها كان ١٢٧ سنة أى أنها توفيت قبل زواج إسحق. وفى رأينا أن هذا غير صحيح.

٥ - الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم.

«وامرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب». (٧١ - هود)

وهنا اختلف المفسرون، هل جملة «ومن وراء إسحق يعقوب» تدخل ضمن البشارة أم لا. فإن كانت داخله ضمن البشارة، كان معناها كأنه قيل لها، سيكون لها ولد هو إسحق وستعيش لترى ولد ولدها الذى هو يعقوب.

وإن كانت جملة «ومن وراء إسحق يعقوب» جملة منفصلة لا تدخل ضمن البشارة، وتكون يعقوبُ بالضم، ولكونه فاعلا أى ومن وراء إسحق يأتى يعقوب.

ولكن حتى فى هذه الحالة يكون الأولى أن تعيش لترى يعقوب إذ لا معنى لإخبارها بمولد يعقوب إذا لم تكن تعيش لتراه.

٦ - جاء فى الإصحاح ٢٥: وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدت رفقة عيسو ثم يعقوب.

ومعنى هذا أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ١٦٠ سنة وسارة عمرها ١٥٠.

فى هذا افترضت التوراة أن رفقة ظلت عشرين سنة عاقرا لا تلد. «ثم صلى إسحق إلى الرب. فاستجاب الله له وحملت رفقة».

ويمكننا أن نخفض فترة العقم إلى عشر سنوات. فيكون عمر إسحق لما ولد له يعقوب خمسين سنة وعاشت سارة إلى عمر ١٤٠ سنة (وليس ١٢٧ سنة) لترى ولد ولدها يعقوب ثم تموت.

بعد وفاة سارة تزوج إبراهيم عليه السلاتم من قنطورة أو قنطورا بنت يقطن واسمها فى التوراة قطورة (شكل ٤٥). وذكر خبراء الأنساب أن القطوريين هم أبناء عم جرهم (تاريخ العرب قبل الإسلام. جواد على. جـ ١ ص ٢٨٣) وكانوا قد استقروا بمكة وما حولها. ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام - بعد وفاة سارة حضر لزيارة إسماعيل - الذى لم يشأ أن يعيش والده وحيدا فى هذه السن فزوّجة من قطورة. وعادت معه إلى حبرون. وولدت له ستة أبناء:

زمران - يقشان - مدان - مديان - يشباق - شوحا

ومن أبناء مديان - عيفة - التى ولدت ضيفور - أبو شعيب عليه السلام وبهذا يكون شعيب سابقا بجبلين لموسى عليه السلام. البعض يزيد فى سلسلة النسب فيجعلها - مديان - مدين - نابت - عيفة - ضيفور - شعيب وبذلك يكون النبيان قد عاشا فى وقت واحد ليكون شعيب هو حمو موسى - عليها السلام - وسنعود إلى ذلك فى قصة موسى عليه السلام.

يقول ابن كثير (البداية والنهاية. جـ ١ص ١٦٤) إن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد قطورة من زوجة اسمها حجون. ولدت له خمسة أبناء:

كيسان - سورح - أميم - لوطان - نافس

ولو أن التوراة لم تذكر هذه الزوجة الأخيرة وكذلك لم تُذكر فى كتاب آخر. ويبدو أنها كانت إحدى السرارى أو ما ملكت يمينه. فهى لا تعتبر زوجة بمعنى الكلمة.

فى أخريات أيامه أعطى إبراهيم عليه السلام كل ما كان له من أملاك لإسحق. أما أبناؤه من قطورة وبنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فقد أعطاهم عطايا وصرفهم إلى أرض المشرق (التوراة. تكوين ٢٥ : ٥) حتى لا ينازعوا إسحق فى شىء. ومن المرجح أن قطورة عادت - ومعها أبناؤها - إلى أرض قبيلتها بالحجاز. ويقال إن «عفار» وهو اسم مكان بين مكة والطائف و «الحنوكية» قرب المدينة. سميا على اسم عفر وحنوك من أبناء مديان (شكل ٤٥).

وفاة إبراهيم عليه السلام:

بعد وفاة سارة عاش إبراهيم عليه السلام فى حبرون. ولعله جلس يستعرض حياته. بدءا بدعوته إلى الله فى أور ثم تكسيره للأصنام ومحنة إحراقة وخروجه من النار سالما. ثم خروجه

إبراهيم
عليه السلام

الزوجة	الأبناء	الأحفاد
هاجر	إسماعيل	نبايوت
		قيدار
		أدبئيل
		مبسام
		مشماع
		دومة
		مسا
		حدار
		تيما
		يطور
		نافيش
		قدمة
سارة	إسحق	عيسو
		يعقوب
قطورة	زمران	
	يقشان	شبا
		ددان
	مدان	
	مديان	عيفه
		عفر
		حنوك
		أبيداع
		ألدعة
	يشباق	
	شوحا	

شكل ٤٥ – إبراهيم عليه السلام وأبناؤه وأحفاده

من أور، ومروره ببابل، ومقابلته مع حمورابى الذى حاجَّه فى ربه وكيف أفحمه إبراهيم بالحجة فبهت، ثم عودته إلى حاران حيث مات والده هناك، ثم ذهابه إلى حلب، ثم إلى دمشق ثم حبرون، فزيارته لمصر، وإهداء هاجر لسارة، ثم اتخاذه هاجر زوجة، ثم استجابة الله لدعائه فكان ولده الحليم من هاجر وهو إسماعيل، وتفكر فيما تلا ذلك من أحداث، إذ أمره الله أن يأخذ هاجر وولده الذى طالما تمناه - ليتركهما - بواد غير ذى زرع بمكة - وأدرك الآن أنهما كانا فى رعاية الله - ونالهما الخير الكثير - أكثر مما لو كانا بقيا فى حبرون - فقد شب إسماعيل فى البادية - على خير ما يكون الشباب رامى قوس - وراكب خيل - وفصيح لغة - والتفت حوله هو وأمه - قلوب جرهم والعماليق فأصبحوا أهله وعشيرته، ثم كان بناؤه بيت الله الحرام بمكة يساعده إسماعيل، ثم أمر الذبح والفداء، ثم تشريع الحج، يالها من أحداث جسام!!

ثم عودته إلى حبرون، وزواج إسحق، ثم ولادة يعقوب، فوفاة رفيقة عمره سارة.

حياة كلها ارتحال وكفاح.

والآن اطمأن قلبه إلى أن دين الله قد توطدت دعائمه فى الأرض، فإسماعيل - فى مكة - نبى ورسول - قائم على شئون المسلمين فى الجزيرة العربية، وها هو إسحق نبى أيضا . يعمل على نشر دين الله فى أرض الكنعانيين.

أدرك أن مهمته قد قاربت على الانتهاء بعد أن أتمها على خير وجه، وبقى فى حبرون يتعبد - انتظارا للقاء ربه حتى يحين الأجل، وفى النهاية صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وقد بلغ من العمر مائة وخمسة وسبعين عاما .

«سلام على ابراهيم، كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين». (١٠٩ - ١١١ الصافات)

ودفنه ابنه إسحق فى مغارة المكفيلة، مع سارة.

أخلاق إبراهيم عليه السلام ومناقبه :

يمكننا أن نذكر بعضا منها فيما يلى:

١ - **الوفاء بالعهد**، قال الله عنه:

«وإبراهيم الذى وفَّى». (٢٧ - النجم)

٢ - **التسليم الكامل لله** فى كل أموره:

«إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

«ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا».

(من الآية ١٢٥ - النساء)

٣ - **«واتخذ الله إبراهيم خليلا».** (١٢٥ - النساء)

والخليل من الخُلَّة وهى المودة التى تتخلل النفس. وأطلق على إبراهيم لفظ «الخليل» لأن محبة الله تعالى قد تخللت نفسه وخالطتها مخالطة تامة.

وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل لم اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلا؟ قال لإطعامه الطعام يا محمد.

وقال البلخى والفراء: لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى وانقطاعه إليه. وقيل لتوكله على الله فى كل أموره.

٤ - ومن أخلاقه المحمودة **إكرامه للضيف** وإحسانه إليه ومن هنا سُمِّى أبا الضيفان.

وقد ذكرنا سابقا قصته مع الضيف الشيخ. وقد تكون القصة غير صحيحة إلاَّ أنها تعبر عن كرمه الزائد. ومثلها ما روى فى الأثر أنه فى إحدى المرات نزل عليه ضيف من غير أهل ملته. فقال له إبراهيم وحِّد الله تعالى، أضيفك وأحسن إليك. فقال يا إبراهيم: من أجل لقمة أترك دينى ودين آبائى. وانصرف عنه فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم: سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بى، وتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة؟ فلحقه إبراهيم عليه السلام واعتذر إليه وسأله الرجوع إليه ليضيِّفه. فقال له المشرك: يا إبراهيم ما بدا لك؟ قال: إن ربى عاتبنى فيك وقال أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره وأنت تريد أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة! فقال المشرك: أوقد وقع هذا؟ مثل هذا ينبغى أن يعبد. وأسلم.

وقيل إنه سُئل عن إكرامه للضيف: فقال تعلمت الكرم من ربى. رأيته لا يضيع أعداءه. فلا أضيعهم. فأوحى الله تعالى إليه: أنت خليلى حقا.

وروى فى الحديث أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: يا سيد البشر. قال ذاك إبراهيم. وهو أبو الضيفان. وكان لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع ضيف. وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا. وضيافته قائمة إلى يوم القيامة (عرائس المجالس للثعلبى. ص ١١٧).

٥ - وهو المجعول له لسان صدق فى الآخرين. فليس من نبى تجرى ألسنه الخلق كلهم بتصديقه. وتبجله الأديان الثلاثة غيره. وذالك بدعائه عليه السلام:

«واجعل لى لسان صدق فى الآخرين». (من ٨٤ - الشعراء)

٦ - وكان رشيدا فى أفعاله حتى من قبل بعثته:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل. وكنا به عالمين». (٥١ - الأنبياء)

٧ -٠ جعل الله له لسان الحجة. فدعا إلى الله بالحجة والموعظه الحسنه:

«وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء - إن ربك حكيم عليم».

(٨٣ - الأنعام)

وقد أفحم إبراهيم عليه السلام الملك حمورابى إذ حاجَّهُ فى ربه فبهت ولم يستطع ردا على حُجة إبراهيم. وأفحم قومه بقوله بل فعله كبيرهم هذا! وألزم قومه الحجة وتمشى معهم فى زعمهم أن الكوكب أو القمر أو الشمس هى آلهة فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون.

٨ - إتمامه الإبتلاءات وجعله للناس إماما: وقد سبق ذكر ذلك.

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال إنى جاعلك للناس إماما». (من ١٢٤ - البقرة)

٩ - كان إبراهيم عليه السلام أطول الأنبياء والرسل مسيرة:

«وقال إنى مهاجر إلى ربى. إنه هو العزيز الحكيم». (من٢٦ - العنكبوت)

من أور إلى بابل إلى حاران إلى حلب إلى دمشق إلى حبرون إلى بئر سبع إلى مصر ثم رحلته إلى الحجاز. ثم عدة مرات بعد ذلك إلى مكة. مسيرة طويلة تبلغ خمسة عشر ألف كيلو متراً أو تزيد!

١٠ - وهو أبو الأنبياء.

إذ كل الأنبياء الذين أتوا بعده من ذريته.

إسماعيل. ومن ذريته نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

إسحق. يعقوب. يوسف. شعيب. موسى. هارون. إلياس. داوود. سليمان. زكريا. يحيى. عيسى. عليهم السلام أجمعين.

١١ - **«إن إبراهيم كان أمة. قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه. اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين».**

(١٢٠ - ١٢٢ - النحل)

١٢ - **«ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا. ولكن كان حنيفا مسلما. وما كان من المشركين».** (٥٦٧ - آل عمران)

تلك بعض صفاته عليه السلام.

تقول الكتب إن إسماعيل لما علم بوفاة والده - شد الرحال إلى حبرون ليعزى أخاه إسحق

فى وفاة والدهما. ولعلها كانت المرة الأولى أو بالأحرى المرة الوحيدة التى يرى فيها أخاه إسحق. ولو أن التوراة تقول إنه كان موجودا فى حبرون عند فطام إسحق. وزار إسماعيل قبر أبيه فى مغارة المكفيلة ثم عاد إلى مكة.

أبناء إسماعيل:

ولد لإسماعيل اثنا عشر ولدا (انظر شكل ٤٥) اختلفت الكتب فى ذكر أسمائهم:

التوراة	محمد بن إسحق	ابن كثير	الثعلبى
١ – نبايوت	نابت	نابت	نبت
٢ – قيدار	قيذر	قيدار	قيذار
٣ – أدبئيل	أزبل	أدبئيل	أدبيل
٤ – مبسام	ميشى	منشا	بسام
٥ – مشماع	مسمع	مسمع	مسمع
٦ – دومة	دوما	دما	ذوما
٧ – مسًا	ماش	ماشى	مسا
٨ – حدار	آزر	أذر	حرا
٩ – تيما	طيما	طيما	فيما
١٠ – يطور	يطور	يطور	بطور
١١ – نافيش	نيش	نيشى	نافس
١٢ – قدمة	قيذما	قيذما	قيدما

وكان له ابنة إسمها مَحْله زوجَّها من العيص (عيسو) ابن أخيه إسحق وعادت معه إلى فلسطين. ويقال إنها ولدت له الروم. ويقال لهم بنو الأصغر – لصفرة كانت فى العيص.

ذلك أن عيسو أو العيص ابن إسحق. تزوج من يهوديت بنت بيرى الحثى (من الحيثيين) الذين نزلوا بأرض كنعان (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله والذين معه. جزء ٢ ص ٢٢٩). ولم يوفق فى هذه الزيجة. ثم تزوج بسمة بنت إيلون – من الكنعانيين. وسمع عيسو أن أباه إسحق يوصى يعقوب بأن لا يتزوج من بنات الكنعانيين. وفهم من هذا أن أباه لم يكن راضيا عن زيجته الثانية فطلقها. وأخبر أباه أنه سيذهب إلى مكة ليخطب محلة بنت عمه إسماعيل. وانشرح صدر إسحق لذلك. وشد عيسو الرحال إلى مكة ولما وصلها طاف بالبيت

الحرام، ثم اهتدى إلى بيت عمه إسماعيل الذى رحب به وعرّفه بأبنائه، ولم يرفض طلبه وزوجه ابنته محلة.

يقول ابن كثير (البداية والنهاية، جـ ـ ص ١٨٠) إن ابنة إسماعيل كان اسمها نسمة، ولعل الأمر قد التبس عليه فخلط بينها وبين بسمة بنت إيلون الكنعانى.

تكاثر أبناء إسماعيل، كما كان ملاك الرب قد وعد هاجر حين وجدها على عين الماء فى البرية هاربة من معاملة سارة، فقال لها (التوراة، إصحاح ١٦ تكوين ١٠) ارجعى إلى مولاتك، تكثيرا أكثر نسلك، فلا يعد من الكثرة، وكما قيل لإبراهيم بعد ذلك (تكوين ١٧ : ٢٠) وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا، اثنى عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة.

وكثر أبناء إسماعيل وبدأوا فى الهجرة من مكة، واتخذت قبائلهم الأماكن الموضحة فى شكل ٤٦.

أدبئيل   سكن المنطقة التى تقع جنوب غرب البحر الميت حتى غزة.

مسـاً   سكن المنطقة على طريق القوافل شرقى مؤاب

تيمـا   سكن المنطقة حول العلا وتيماء

دومـا   سكن حول دومة الجندل

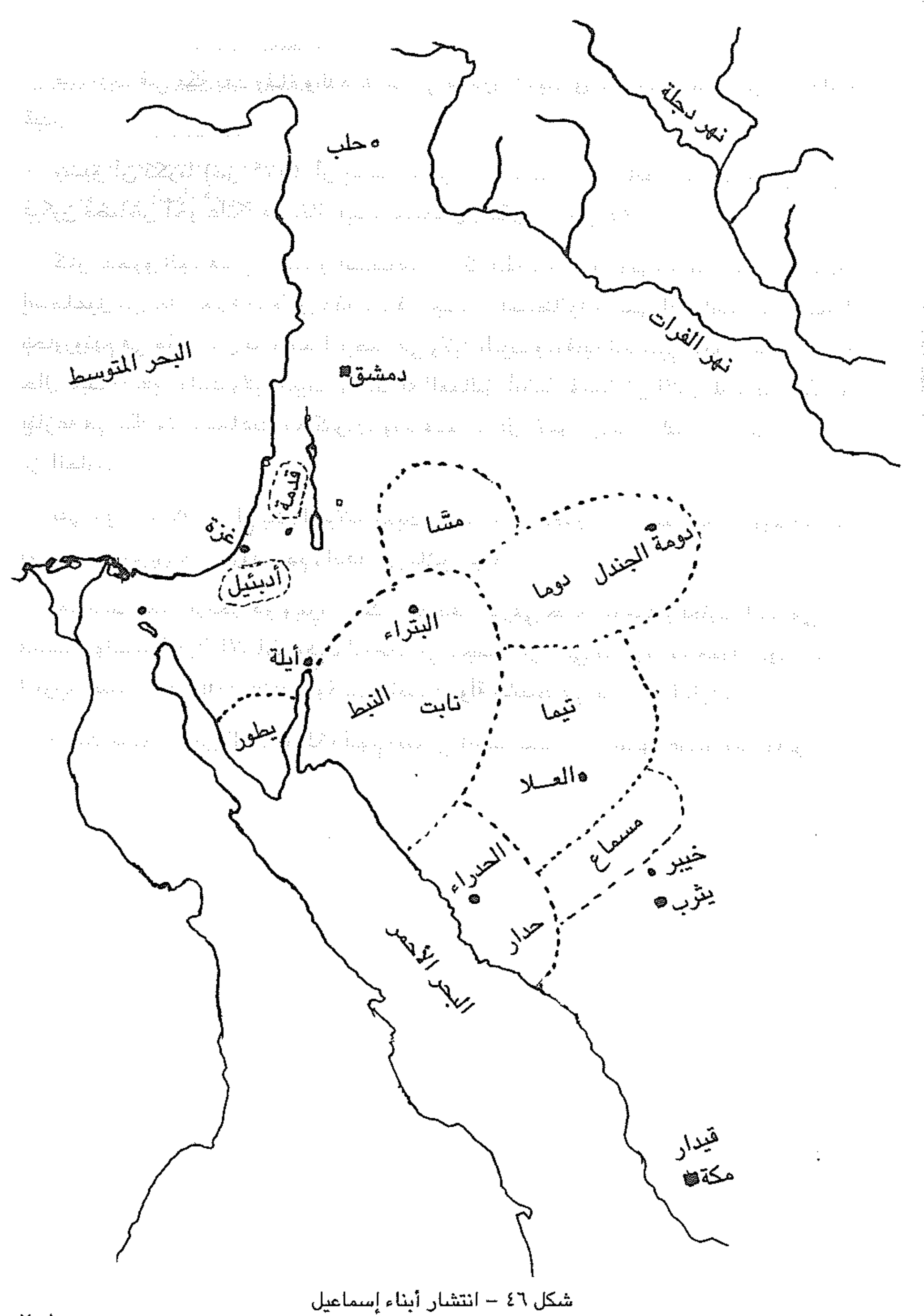
قدمـة   سكن حول مدينة قطنا بشمال فلسطين

يطـور   سكن الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سينا وهى منطقة الطور، وهناك من يرى أن بعض اليطوريين سكنوا الجزء الجنوبى من جبال لبنان، وأن دمشق كانت تعانى كثيرا من غزواتهم، وحدار أو حدر سكن شرقى الجزء الشمالى للبحر الأحمر.

ولعل الخيل التى كان أبوهم إسماعيل قد استأنسها وتعلم ركوبها قد أعطتهم خفة فى الحركة وسرعة مكنتهم من هذا الانتشار الواسع وبقى نابت وقيدار بمكة مع والدهم إسماعيل، وجميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أصلهم إلى نابت وقيدار ابنى إسماعيل.

وفاة إسماعيل عليه السلام:

وعاش إسماعيل ١٣٧ عاما وأسلم روحه ومات ودفن فى الحجر مع أمه هاجر، وسمى الحجر منذ ذلك الوقت بـ «حجر إسماعيل».



شكل ٤٦ – انتشار أبناء إسماعيل

ظل نابت فى مكة بعد وفاة والده يقوم على شئون البيت وزمزم وسقاية الحجيج يعاونه قيدار.

وسبق أن ذكرنا (ص ١٧٩)، أن إسماعيل تزوج – أم أولاده – عاتكة بنت عمرو الجرهمى. فيكون مضاض أخو عاتكة هو خال أبناء إسماعيل (شكل ٤١ ص ١٨٤).

كان عمرو الجرهمى – حمو إسماعيل – ذا أطماع. وزاد منها تزاوج عدد من أبناء إسماعيل من بنات جرهم. فكان هذا شرفا لجرهم. استطالوا به على العماليق الذين كانوا يجاورونهم فى مكة. ومن ثم طمعوا أيضا فى ولاية البيت وسقاية الحجيج، وتغلب مضاض – خال نابت – عليه وأخذ ولاية البيت. ودانت له العماليق أيضا. فاستوثق الأمر لمضاض بمكة لا ينازعه فى ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم. ثم آل الأمر من بعده للحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث.

بقى قيدار بمكة وإن لم يكن له ولاية البيت أو سقاية الحجيج. ومن نسله عدنان وبينهما ما يقرب من عشرين جيلا، وبعضهم زادها إلى ثلاثين جيلا.

أما نابت فقد ارتحل هو وبنوه وسكنوا المنطقة شرقى خليج العقبة والجنوب الشرقى من فلسطين وأسسوا دولة الأنباط. وهذه المنطقة فى مجملها أراضى صخرية يسميها اليونان بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea. وكانت عاصمة دولة الأنباط هى بطرا أو البتراء.

وكانت تجاورها من الغرب مملكة أدوم وتسمى أيضا سعير – أسسها عيسو أخو يعقوب.

جدول احداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحـــداث
امنمحيت الأول			١٩٧٨	٠	مولد إبراهيم عليه السلام فى أور
١٩٧٠ سنوسرت الأول (٣٤ سنة)			١٩٦٨	١٠	
		١٩٦٠ شولجي (حكم ٥٢ سنة)	١٩٥٨	٢٠	
			١٩٤٨	٣٠	
			١٩٣٨	٤٠	مبعثه
١٩٣٦ أمنمحيت الثاني (٣٢ سنة)					١٥ عاماً دعوة
			١٩٢٣	٥٥	
			١٩٢٢	٥٦	محنة إحراقه
			١٩٢١	٥٧	تركه لمدينة أور
			١٩٢٠	٥٨	فى لجش
			١٩١٩	٥٩	فى أوروك
			١٩١٧	٦١	فى بابل والمحاجة
			١٩١٣	٦٥	فى أشور
	١٩١٠ حمورابي (حكم ٤٢ سنة)		١٩١١	٦٧	فى نينوى
		١٩٠٨	١٩٠٨	٧٠	الوصول إلى حاران
١٩٠٤ سنوسرت الثاني (١٦ سنة)			١٩٠٣	٧٥	مغادرة حاران
			١٩٠٢	٧٦	فى حلب
			١٩٠١	٧٧	فى دمشق
			١٩٠٠	٧٨	فى حبرون
			١٨٩٨	٨٠	زيارة مصر – سارة عمرها ٧٠سنة
			١٨٩٦	٨٢	فى مدينة أون
			١٨٩٥	٨٣	فى هيراكليوبوليس
			١٨٩٤	٨٤	فى بنى حسن
			١٨٩٣	٨٥	العودة من مصر
			١٨٩٢	٨٦	الزواج من هاجر

تابع جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحداث
سنوسرت الثاني			١٨٩١	٨٧	ولادة إسماعيل
			١٨٩٠	٨٨	أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة
			١٨٨٩	٨٩	العودة من الحجاز وافتراق لوط
١٨٨٨			١٨٨٨	٩٠	مع ملك جرار
			١٨٨٧	٩١	أسر لوط وفك أسره
			١٨٨٦	٩٢	إقامة فى حبرون
				٩٣	
				٩٤	
				٩٥	
				٩٦	
				٩٧	
سنوسرت الثالث (حكم ٣٧ سنه)	حمورابى (حكم ٤٣ سنه)		١٨٨٠	٩٨	البشرى بإسحق وهلاك قوم لوط
			١٨٧٩	٩٩	ولادة إسحق
			١٨٧٨	١٠٠	أول زيارة لمكة – عمر إسماعيل ١٣ سنة
			١٨٧٧	١٠١	بناء البيت
				١٠٢	أمر الذبح والفداء
			١٨٧٥	١٠٣	مناسك الحج ثم العودة إلى حبرون
				١٠٤	
				١٠٥	
			١٨٧٢	١٠٦	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الأولى)
			١٨٧١	١٠٧	
١٨٥١	١٨٦٧		١٨٧٠	١٠٨	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الثانية)

احداث النصف الثانى من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	ق.م.	العمر	إبراهيم	العمر	إسماعيل	إسحق ويعقوب
سنوسرت الثالث		٩٩				ولادة إسحق
	١٨٧٨	١٠٠	أول زيارة لمكة	١٣	ختان إسماعيل	
		١٠١	بناء الكعبة			
	١٨٧٦	١٠٢	أمر الذبح والحج	١٥	أمر الذبح	
		١٠٣				
		١٠٤				
	١٨٧٢	١٠٦	زيارة مكة وحج	١٩	أول زواج	
	١٨٧٠	١٠٨	زيارة مكة وحج	٢١	ثانى زواج	
		١١٧		٣٠		
١٨٥١	١٨٥٨	١٢٠		٣٣		
أمنمحيت الثالث (حكم ٤٨ سنة)	١٨٥١	١٢٧		٤٠	مبعثه رسولاً	
		١٣٠				
		١٣٥				
		١٣٧		٥٠	رحلته إلى اليمن	
		١٣٩		٥٢	وفاة هاجر	إسحق ٤٠ سنة تزوج رفقة
	١٨٣٨	١٤٠		٥٣		
		١٤٥				رفقة عاقر ١٠ سنوات
	١٨٢٩	١٤٩	وفاة سارة بعد ولادة يعقوب وعمرها ١٣٩ سنة	٦٢		٥٠ عمر إسحق عند ولادة يعقوب
	١٨٢٨	١٥٠				
		١٥٥				
	١٨١٨	١٦٠				
		١٦٥				
	١٨٠٨	١٧٠				
١٨٠٢	١٨٠٣	١٧٥	وفاة إبراهيم	٨٨	عمر إسماعيل	٧٤ عمر إسحق